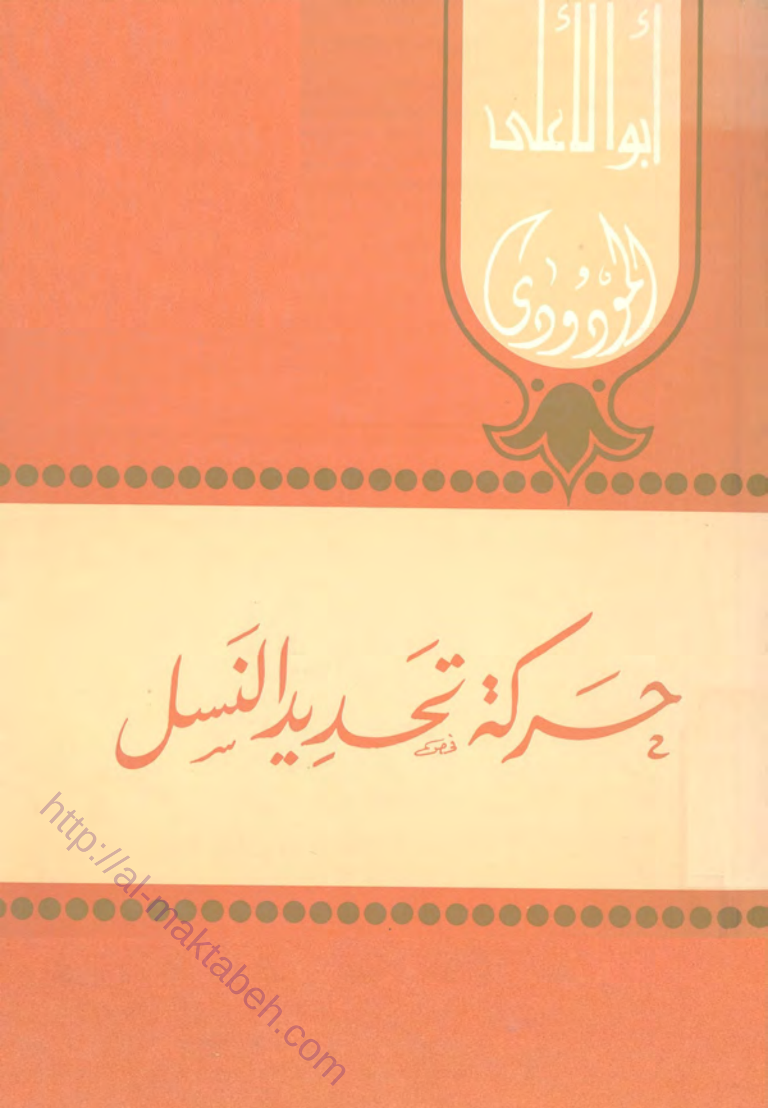


ابو الاعلى المودودي
حركة تحديد النسل



ابو الأعلى المودودي



دار الفكر

بيروت

الطبعة الأولى

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية حركة تحديد النسل وسياقها التاريخي

ان الغاية المقصودة من حركة تحديد النسل أو تنظيمه هي وقف النسل الانساني عن النمو والزيادة . وفي الماضي كانت تستخدم لتحقيق هذه الغاية عدة وسائل كالعزل والاجهاض (اسقاط الحمل) وقتل الاولاد وكبت النفس بالعزوبة أو بالابتعاد عن الاتصال الجنسي . أما في الزمن الحاضر فقد أصبح الناس لا يزاولون الوسيلتين الاخيرتين، وإنما الوسيلة التي اخترعوها مكانها هي أن يقدموا على الاتصال الجنسي ولكن مع الحيلولة دون وقوع الحمل وذلك بالآلات والعقاقير المانعة للحمل . لا شك أن وسيلة الاجهاض لا يزال لها رواج كبير في أوربا وأمريكا ، ولكن الوسيلة التي تؤكدها حركة تحديد النسل وتقوم بالدعاية لها وتعمل على ترغيب الناس فيها أكثر من كل وسيلة وتهيىء أسبابها وآلاتها بحيث لا يبقى في المجتمع رجل ولا امرأة لا تعرفها أو لا تستطيع الاستفادة منها .

بدء الحركة :

وحركة تحديد النسل هذه كان بدؤها في أوربا منذ أواخر القرن

الثامن عشر الميلادي . وفي ما نعلم أن الاقتصادي الشهير مالثوس(Malthus) في انكلترا هو أول من تقدم بفكرة هذه الحركة ودعا بدعوتها . ففي عهده بدأ السكان في انكلترا يتزايدون بصورة غير عادية لما كان عليه الشعب الانكليزي في تلك الايام من سعة العيش والرخاء الاقتصادي . فهو نظراً لهذا التزايد المخيف والتوفر الهائل لعدد السكان في بلاده قدر أن المكان الجدير بالسكنى على سطح الارض محدود وأن وسائل المعيشة ـ كذلك ـ محدودة ، ولكن ليس هناك حد يعرف لتضخم النسل وازدياد عدد السكان ، فقال ان النسل اذا بقي يتضخم هكذا بسرعته الفطرية، فلا بد أن تضيق عليه الارض يوماً ولا تعود وسائل المعيشة الموجودة على وجهها كافية لسد حاجاته، وبذلك ـ قال مالثوس ـ لا بد أن ينحط مستواه للمعيشة؛ فاذن لا بد ، للمحافظة على رفاهه المادي ورخائه الاقتصادي أن يكون ازدياد عدد أفراده متمشياً مع ازدياد وسائل المعيشة وموارد الرزق ولا يزيد عليه بحال، وتحقيقاً لهذا الغرض أشار مالثوس على شعبه باتخاذ تدابير لضبط النفس على أن لا يتزوج الافراد الا بعد أن تتقدم بهم السن، وأن يحاولوا التغلب على أهواء النفس والكبت من نزواتها في الحياة الزوجية اذا تزوجوا . وهذه الفكرة نشرها مالثوس لأول مرة سنة (١٧٩٨ م) في مجلة له تحت عنوان « تزايد السكان وتأثيره في تقدم المجتمع في المستقبل » .

وبعد مالثوس هذا ظهر فرانسيس بلاس (Francis Palace) في فرنسا ونادى بضرورة الحد من تزايد السكان . ولكن كان اقتراحه الذي تقدم به لتحقيق هذا الغرض ، هو منع الحمل بالآلات والعقاقير دون الوسائل

الخلقية المجردة . وفي سنة (١٨٣٣ م) قام في أميركا طبيب شهير هو تشارلس نوروتون (Charles Knorotton) ورفع صوته تأييداً لفكرة فرانسيس بلاس ولعل كتابه ثمرات الفلسفة (The Fruitsof Philosophy) هو أول كتاب جاء فيه شرح تفصيلي للتدابير الطبية لمنع الحمل وأشيد فيه بذكر منافعها من الوجهة الاقتصادية .

فشل الحركة البدائية وسببه :

وفي بدء الأمر لم يلتفت عامة أهل الغرب إلى فكرة منع الحمل التفاتاً يذكر ، لان الفكرة كانت ركيكة سخيفة في حد ذاتها . لقد كان لمالثوس ان يقدر النسبة التي بها يتزايد عدد السكان في بلاده، ولكن ما كان له بحال أن يقدر النسبة التي تتزايد بها وسائلها المعيشة ولا أن يطلع على خزائن الثروة التي سترتها الطبيعة في بطن الأرض ولاتزال تكشف عنها التجارب مع رقي العلم التجريبي وسيادة العقل وقوة الجهد والعمل وتضع يد الانسان على مزيد من وسائل المعيشة وموارد الرزق، ولا كان لنظيره أن ينفذ بحال إلى الامكانيات التي كانت خافية إلى زمنه وراء حجب الغيب وبرزت إلى حيز الوجود والظهور بقوة الجهد والعمل في مابعد . ثم ان عدد السكان في أوربا ما زال يتزايد —حسب تقدير مالثوس— بسرعته الفطرية حتى وصل إلى ضعفيه تقريباً في (٧٥) سنة، ولاسيما في انكلترا فان سكانها تزايدوا في هذه المدة بسرعة مدهشة قلما يوجد لها مثيل في تاريخ الانسان الماضي، فقد كان عددهم (١٢) مليوناً فقط سنة (١٧٧٩م) وبلغ ٣٨ مليوناً سنة ١٨٩٠م ولكن مع تزايدهم على هذا الوجه ، فقد تزايدت وسائلهم للمعاش هي الاخرى

بسرعة مدهشة في نفس هـــذه المدة ، حيث أصبحت دولتهم محتكرة للتجارة والصناعة العالمية ولم تعد حياتها الاقتصادية منحصرة في حاصلات أرضها فحسب . بل أصبحت تستورد الموارد الغذائية من بلاد الدنيا الاخرى عوضاً لما تصدر اليها من مصنوعاتها ومنتجاتها ، حتى أنها ـ على الرغم من تزايد السكان ـ لم تشعر قط بأن الأرض قد ضاقت على أهلها أو أن خزائن الطبيعة أصبحت تأبى التمشي مع تزايد عددهم .

الحركة الجديدة :

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر قامت في الغرب حركة جديدة لتحديد النسل تعرف بالحركة النيومالثوسية (Neo - Malthusian Movement) وبيان هذا أن سيدة تعرف بايني بيسانت قامت مع الاستاذ تشارلس بريدلا بنشر كتاب «ثمرات الفلسفة» للطبيب نولتون في انكلترا سنة ١٨٧٦ م ، وعلى هذا قدمتها الحكومة للمحكمة ولما نشرت أخبار هذه المحاكمة في الجرائد التفتت إليها وإلى حركة تحديد النسل أنظار الجمهور عامة . ومن ذلك أن تأسست في انكلترا سنة ١٨٧٧ م جمعية برئاسة الطبيب دريسديل (Drysdale) بدأت تنشر الكتب والرسائل تأييداً لحركة تحديـد النسل ، وبعد ذلك بسنتين ظهر كتاب « قانون عدد السكان » (Law of Population) للسيدة بيسانت ونفدت منه ١٧٥ ألف نسخة خلال سنته الاولى فقط ، وفي سنة ١٨٨١ وصلت هـــذه الحركة إلى هولاندا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وانتشرت بعد ذلك ـ شيئاً فشيئاً ـ في سائر البلاد المتحضرة في اوربا وأمريكا ، وقامت فيها أكثر

من جمعية واحدة عملت على تلقين الناس منافع تحديد النسل وتدريبهم على طرقه العملية ، وإقناعهم بأن عملية تحديد النسل ليست مشروعة فحسب بل هي حسنة من الحسنات من الوجهة الخلقية، ولا نافعة فحسب بل هي مما لا مندوحة عنه من الوجهة الاقتصادية . وفي كل مكان أقامت هذه الجمعيات عيادات لتحديد النسل يزود فيها الناس ـ رجالا ونساء ـ بالتعليمات والتوجيهات الفنية اللازمة لوضع الحد من زيادة أفراد أسرهم وهكذا لاقت هذه الحركة الجديدة رقياً ملموساً وانتشاراً واسعاً في مدة غير طويلة ولا تزال تتقدم بخطى واسعة حتى هذا اليوم .

أسباب النجاح :

لماذا انتشرت هذه الحركة ولماذا نالت ما نالت من القبول العام بين الجمهور بهذه السرعة المدهشة في العصر الجديد ؟ إنه ليس السبب الحقيقي لهذه الظاهرة ما لأجله كان مالثوس أشار على شعبه بتحديد النسل في بدء الأمر ، وإنما هو نتيجة لازمة للنهضة الصناعية الجديدة والنظام الرأسمالي والحضارة المادية السائدة اليوم في بلاد الغرب . وتعال نلقي نظرة فاحصة على كل واحد من هذه الأسباب ونتبين كيف أنه حمل الشعوب الغربية بل أجبرها إجباراً على وضع الحد لزيادة السكان في بلادها ؟

١ ـ النهضة الصناعية :

إنه لما اخترعت الآلة في بلاد الغرب وبدأت فيها سلسلة الانتاج الاجمالي (Mass production) بإقامة مصانع كبيرة بالأموال المشتركة ،

أخذ سكان القرى والارياف الصغيرة يتخلون عن مزارعهم وينتقلون إلى المراكز والمدن ليشتغلوا فيها في المعامل والمصانع ، وبذلك أقفرت القرى أو كادت وقامت مدن كبيرة مهمة جديدة اجتمع فيها مئات الألوف من العمال في مكان محدد ، مما زاد في بدء الأمر زيادة ملموسة من رفاه أوربا ورخائها الاقتصادي ، ولكنه بالذات خلق في ما بعد ما لا يأتي تحت الحصر من المشاكل الاقتصادية والكوارث الاجتماعية . فبه قد اشتد الصراع من أجل الحياة واحتدم التنافس بين الناس وارتفع مستوى المعيشة واتسعت حاجيات الحياة وغلت تكاليفها غلاء فاحشا أضيق الخناق على أصحاب الدخل المحدود ، حتى لقوا عرق القرب في الاحتفاظ بمستواهم الرفيع للمعيشة حسب رغباتهم وميولهم ، وازدحمت البيوت وارتفعت أجورها وتعذر على المكتسبين أن يكفلوا الآكلين غير المكتسبين حتى أصبح الآباء لا يتحملون تربية أولادهم ولا الأزواج النفقة على زوجاتهم وأخيراً اضطر كل فرد من أفراد الأسرة ، بطبيعة الحال أن لا ينفق ما يكسبه إلا على نفسه وأن يقلل ما استطاع من عدد المشتركين فيه معه[1] .

---

(١) حقيقة اعترف بها أحد الكتاب المشهورين في الغرب هو الاستاذ (Landis Paul) حيث يقول : « إن الانسان في المجتمع الصناعي قد اجتاز حدوده المشروعة وذهب ضحية لكثير من الغلطات والمفاهيم الفاسدة في ما يتعلق بالتوالد ونظام الاسرة والخصوبة والانتاج ، حتى لقد انقطعت صلة الجنس عن التوالد والتناسل ، ولم تعد وظيفته الآن التوالد والتناسل وإنما هي الترويح عن النفس والتمتع بالملذات » .

(راجع كتابه « القضايا الاجتماعية » المطبوع في شيكاغو سنة ١٩٥٩ ص ١٠٢) .

٢ – الاستقلال الاقتصادي للنساء :

في مثل هذه الظروف اضطرت النساء أن يكفلن أنفسهن بأنفسهن ويخرجن من بيوتهن ليضممن أنفسهن إلى الأفراد الكادحين لكسب المعيشة ، وبذلك بطلت القسمة الفطرية القديمة في باب الاقتصاد ، والتي كان بموجبها على الرجال أن يكدحوا لكسب معيشتهم ومعيشة أهلهم وعلى النساء أن يتولين تربية الأولاد وإدارة شؤون المنزل الداخلية حتى وصلن إلى المصانع والشركات والمكاتب للاشتغال والخدمة . ولما احتملن وزر كسب المعيشة تعذر عليهن أن يقمن في الوقت نفسه بخدمة إنجاب الأولاد وتنشئتهم ، تلك الخدمة التي كانت الفطرة أسندتها إليهن؛ ولا غرو ، فإن المرأة إذا كان عليها أن تعمل لتهيء لنفسها مرافق الحيـــاة وتؤدي نصيبها من ميزانية الاسرة المشتركة فأنى لها أن تستعد لإنجاب الأولاد وتقوم بواجب تربيتهم ؟! إن المشقة التي تكابدها أكثر النساء أيام الحمل لا تدعهن قادرات على أن يقمن بجهد جسدي أو فكري خارج بيوتهن ، ولا سيما آخر أيام الحمل ، فانه لا بد لهن أن يطلبن فيها الاجازة ، ومع ذلك لا يعود إليهن نشاطهن بعد وضع الحمل إلا بمدة ، كما لا يخفى .

إذا كانت الحقيقة هكذا ، فإن المرأة لا تستطيع – ولو أرادت – أن ترضع ولدها وتعنى بتربيته إلى ثلاثة أو أربعة أعوام على الأقل إذا كان عليها أن تقصد المكتب كل يوم للخدمة فيه ساعات طوالاً ، ولا يتاح لها في مثل هذه الحال أن تأخذ معها ولدها الرضيع إلى المكتب ولا أن تستخدم أحداً لرعايته وتربيته في البيت . وأما إذا بقيت بدون شغل إلى مدة طويلة لتقوم بوظيفتها الفطرية ، ماتت جوعاً أو أصبحت كَلًا لا يطاق على

زوجها . وفوق هذا فإن الذي تشتغل هي في مكتبه أو معمله ، لا يستطيع أن يصبر على غيابها عن وظيفتها لمدة أشهر مرة بعد مرة . وبالجملة فان المرأة لهذه الأسباب تجد نفسها مضطرة إلى الاعراض عن وظيفتها الفطرية . وإن حاجات البطن تبرد فيها عاطفة الأمومة التي قد أودعتها الفطرة صدرها .

٣ ـ الحضارة الجديدة :

وإن الحضارة الجديدة هي الاخرى قد خلقت من المشاكل والاسباب ما قد جعل المرأة تهرب من التوالد والتناسل :

إن العقلية المادية قد أنشأت في الناس من الاثرة وحب الذات ما قد جعل كل فرد في المجتمع يحب أن يهيىء لنفسه أكثر ما يستطيع من أسباب الترف والرفاهية وتنعم البال ولا يحب بحال أن يشاطره في ما يكسبه أحد غيره ولو كان أباه أو أمه أو أخاه أو أخته أو ولده ، وقد أحدث الأغنياء والمترفون طرقاً لا تعد ولا تحصى لترفهم والترفيه عن نفوسهم ، والناس من الطبقة الوسطى أو الدنيا عندما يرونهم يرفلون في أسباب البذخ والترف هكذا ، تحدثهم نفوسهم بأن يبذلوا سعيهم أيضاً لاقتنائها والاستمتاع بها ، والنتيجة لذلك أن كثيراً من أسباب البذخ والترف قد أصبحت اليوم في عداد لوازم الحياة ومرافقها الاساسية حتى بالنسبة لعامة الناس وأصبحوا يظنون أنه لا يمكنهم الحياة بدونها مما قد رفع مستواهم المعيشة العامة وبلغ بهم حيث قد أصبح من المحال لفرد منهم أن يستجيب لمطالب ذاته .

فضلاً عن أن يكون كفيلا باعداد أسباب المعيشة لزوجته وأولاده[1] .

وإن انتشار الثقافة والحرية بين النساء واختلاطهن علانية بالرجال كل ذلك قد بدل ذهنيتهن ولذلك قد أصبحن لا يرغبن في وظيفتهن الفطرية وينظرن إلى الاشتغال بشؤون البيت ورعاية الأطفال بكل ازدراء واحتقار ويهربن عنها ما وسعهن ، ويرين من الغباوة والحماقة ورقة العقل أن تترك المرأة ما في خارج بيتها من فرص اللهو والمتعة وتقبع في بيتها لأجل أطفالها ، ويحببن أن يبقين نحيفات لطيفات وعلى أكبر قسط من الجمال والرشاقة ليستجلبن إلى أنفسهن نظرات الرجال في الشوارع والمحال الاجتماعية الاخرى ، ولهذا الغرض ليس من البعيد عنهن — ولا من الصعب عليهن — أن يتناولن أدوية مسمومة كثيراً ما تودي بحياتهن[2]

(١) مما يكتبه كاتب فرنسي : « إن الأزواج والزوجات الذين يحاولون الحد من نسلهم في فرنسا لما وجهنا إليهم السؤال عن الوجوه التي على أساسها هم يحاولون هذا الحد ، علمنا بأن قليلاً منهم يحاولونه بناء على قلة المال وكثرة الأولاد لديهم ، وإنما الأسباب الحقيقية التي تبعث عليه أكثرهم هي : تحسين الوضع المالي ورفع مستوى المعيشة والاحتراس من خطر أن تتوزع الثروة المجموعة إلى قطع صغيرة متعددة وبذل الاهتمام الكلي بتعليم الولد الوحيد تعليماً عالياً وإعداده للمستقبل الرائع والاحتفاظ بجمال الزوجة ورشاقتها ونضارتها إزاء متاعب الحمل وشواغب رعاية الأطفال الكثيرين ورضاعتهم ، والضن بحرية النفس في التفرج والمرح والاستجمام ، والحيلولة دون أن تصبح الزوجة فيما إذا أنجبت عدة أطفال منهمكة بتربيتهم فيتعكر هكذا صفو الحياة الزوجية وتقل فيها فرص الاستمتاع بمباهج الحياة وملاهيها » .

Paul Bureau : Towards Moral Bankrupcy P. 64 London 1925

(٢) مما قد نبه عليه وكيل الصحة العامة في نيويورك قبل مدة أن النساء في أمريكا كثيراً ما يتناولن دواء يعرف بـ (ديميت روفينول) (Dimit Rophenol) وذلك بغية أن يصبحن أو يبقين نحيفات لطيفات ، مع أنه قد ثبت بالتجارب أن هذا الدواء فيه كمية وافرة من السم وقد لقي عدد عظيم من النساء حتفهن بسمه.

ولكنهن لا يرضين بحال أن يفسدن صحتهن بانجاب الذرية وينفقن أموالاً طائلة تبلغ عشرات الملايين من الايرات على تجميلهن وأزيائهن و لكن ميزانيتهن لا تسمح لهن بانفاق شيء على تربية الاطفال وتربيتهم .

إن المدنية الجديدة قد جاءت بما لا يأتي تحت الحصر من أسباب عبودية النفس والانسياق وراء الشهوات الجنسية : يحب الناس أن يتمتعوا بأكثر ما يمكنهم من فرص اللذة والمتعة ويجتنبوا — مع ذلك — ما قد قررته الفطرة من التبعات والنتائج على هذه اللذة والمتعة ، ومن هنا قد أصبح من المتعذر عليهم أن يتحملوا فترة الحمل ورعاية الاطفال بعدها ويعكروا هكذا فرصهم للاستمتاع بمباهج الحياة وملاهيها .

ولأجل تعليم الأطفال وتثقيفهم وإعداد فرص النجاح والتوفيق لهم في المستقبل يرى كثير من الناس — ولا سيما أفراد الطبقة الوسطى — أن لا ينجبوا أكثر من طفل أو طفلين ، لذا فقد ارتفعت مقاييسهم وأفكارهم بحيث إن وسائلهم لكسب المعاش لا تكاد تساير أفكارهم ومطامعهم وآمالهم . وقد أصبح من العسير عليهم أن يهتموا بتربية عدد كبير من الاطفال وينفقوا على تعليمهم ويعدوا لهم فرص البدء الرائع في الحياة وفق أفكارهم المادية ، مع إضافة أن الحياة المدنية الحاضرة قد جعلت تكاليف التعليم والتربية غالية جداً .

وإن الفكرة الإلحادية مع الفكرة المادية قد محت عن قلوب الناس فكرة الإلـه فضلاً عن أن يتوكلوا على الله ويثقوا برزاقيته ، فهم إنما ينظرون إلى ما في أيديهم من الوسائل المادية ويحسبون أنفسهم رازقين لانفسهم ولأولادهم.

تلك هي الأسباب الحقيقية التي لأجلها صادفت حركة تحديد النسل

ما صادفت من التقدم السريع والانتشار الواسع في الغرب . وإنك إذا نظرت في هذه الأسباب بدقة علمت أن أهل الغرب هم أنفسهم قد ارتكبوا الخطيئة أولاً حيث أقاموا مدنيتهم ونظامهم للاجتماع والمعيشة على أسس الرأسمالية والمادية والاثرة وعبودية النفس . ثم إن هذا البناء لما اكتمل وبدأ يؤتي ثمراته الوخيمة، ارتكبوا - إضافة إليها - حماقة أخرى هي أن يحاولوا المحافظة على هذا النظام المزخرف للمعيشة والاجتماع وعلى هذا الاسلوب الخلاب للحضارة والمدنية مع اجتناب نتائجها الشنيعة المحتومة ، ولو أنهم كانوا على شيء من العقل والفهم السديد لبحثوا أولاً عن المفاسد الحقيقية التي لأجلها ظهرت لهم في حياتهم هذه المصاعب والمتاعب، ثم ركزوا جهودهم على إصلاحها في حياتهم ولكنهم ما أدركوا المفاسد الحقيقية أصلاً . وإن أدركوها إلى حد ما فإنما أدركوها بعد أن كان افتتانهم بحضارتهم الجديدة بلغ بهم حيث لم يرضوا بأن يستبدلوا بها نظاماً أصلح للحياة ولكنهم — على العكس من هذا — أرادوا ان يحافظوا على هذه الحضارة وعلى نظامها للمعيشة والاجتماع ويخترعوا في الوقت نفسه طريقاً آخر للتغلب على مشاكلهم في الحياة . وإن أسهل طريق رأوا ان يتبعوه بعد البحث والتنقيب هو ان يحددوا أنسالهم ويقللوا من عـــدد أفراد أسرهم حتى تبقى الفرص مواتية لهم للاستمتاع بمباهج الحياة ووسائلهم المعاش بدون أن يشاركهم فيها عدد من الاطفال لا يرضونه ويخافون منه أن يجعل حياتهم متكدرة بأوزار من تبعات غير نافعة .

النتائج

وعلينا الآن أن نلقي نظرة على ما قد ظهر بالتجربة العملية من نتائج لهذه الحركة خلال المائة سنة الماضية. وإن مدة قرن كامل أكثر من الكافية لدراسة حركة كتب لها مثل ماقد ذكرنا في الفصل السابق من الانتشار والتوسع والتقدم السريع في غير قطر واحد من أقطار الغرب وفي غير شعب واحد من شعوبه.

ولنأخذ انكلترا وأمريكا كبلدين نموذجيين من البلاد الجارية على خطة تحديد النسل، لأن عندنا من وسائل الاطلاع على ما جريات هذين البلدين ماليس عندنا عن البلاد الاخرى. على أنه ليس هناك فرق كبير بينهما وبين سائر البلاد الغربية من حيث الظروف والاحوال.

عدم التوازن بين الطبقات :

والذي تدل عليه تقارير المسجل العام (Registerar General) وتحقيقات لجنة نسبة الولادة القومية (National Birth Rate Com- mission) وتقرير اللجنة الملكية لاحصائية السكان (Royal Commis- sion for Population) في انكلترا أن أكبر ما لحركة تحديد النسل

من الرواج هو في الطبقة العليا أو الوسطى . فالعمال الفنيـون من ذوي الرواتب الضخمة وأرباب التجارة والصناعة المثقفون بالثقافة العليا ورجال الرفاهية الاقتصادية من الطبقة الوسطى أو الأغنياء والمترفون من الطبقة العليـا هم المؤيدون لهـــذه الحركة والعاملون على تحديد نسلهم في أغلب الاحيان . وأما الفقراء والعمال غير الفنيين ، فليس فيهم رواج لتحديد نسلهم الا بمنزلة الصفر ، اذ ليس مستواهم للمعيشة بمرتفع ولا هم يتطلعون إلى مستقبل زاهر لانفسهم ولا هم يطمعون في معيشتهم كمعيشة أرباب الغنى والسعة ، وفوق هذا فإنـه لا يزال راسخاً فيهم المبدأ القديم القائل بأن على الرجل أن يعمل لكسب الرزق وعلى المرأة أن تقوم بإدارة شؤون المنزل ، فهم لأجل هذا لا يشعرون بحاجة إلى تحديد نسلهم على فقرهم وغلاء مرافق الحياة وضيق البيوت التي يسكنونها ، فلا تزال نسبة الولادة فيهم ٤٠ بكل ألف تقريباً . وعلى العكس من هذا فقد هبطت نسبة الولادة في الطبقتين العليا والوسطى هبوطاً ذريعاً بحيث لم تكن هذه النسبة في انكلترا سنة ١٩٥٥ الا ١٥٫٣ بكل ألف . والذين يشتغلون بالحرف الجسدية فإن أسرهم كبيرة ، والذين اتصلوا بالصلة الزوجية من الرجال والنساء في السنوات من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٠ مثـلاً ، فان أسر العمال الصغار منهم ـ حسب الاحصائيـات الجديدة ـ أكبر من أسر غيرهم بمعدل ٤٠ بالمائة على الأقـل .

يقول الاستاذ وارن ثامسن ـ الخبير الامريكي الشهير باحصائية

السكان ـ بعد أن درس دراسة وافية القسمة الطبقية بين سكان انكلترا وأمريكا والمانيا وفرنسا وسويد :

« ان قسمة السكان اذا جعلناها بـــين القائمين بالاعمال الجسدية والموظفين ذوي الياقة البيضاء ، فان الطبقة الاولى أكثر خصوبة من الطبقة الثانية ، وإذا قسمنا حتى القائمين بالاعمال الجسدية إلى الفلاحين وغيرهم ، فان الفلاحين أكثر خصوبة من غيرهم ، ومن بين العمال غير الفلاحين فإن العامل الذي ليست عنده خبرة فنية والذي عمله متعب وقذر ودنيء ، فان أسرته أكبر من أسرة غيره ... ومن حيث التعليم ، فان الذين هم أقل ثقافة ، أسرهم كبيرة ، والذين هم أكثر ثقافة ، أسرهم صغيرة »[1] والنتيجة لكل ذلك أن طبقات الفلاحين والعمال هي في ازدياد وتضخم في البيئة العاملة لتحديد النسل ويتضاءل فيها حجم طبقات الذين هم أعلى درجة من حيث العقل والفكر والثقافة والخبرة الفنية ، ممن فيهم الاهلية للقيادة والتوجيه ، وهـــذا مما لا بد أن ينحط بتلك البيئة بأجمعها إلى الزوال والفناء في النهاية ، لأن النتيجة اللازمة لذلك هي قحط الرجال ومن المعلوم أن أمة إذا أصابتها نوبة من قحط الرجال ، فانها لا تستطيع أن تبقى حية رافعة الرأس بعدها .

ان قلة الطبقات ذات القدرة والاستعداد الفني وتضاؤل حجمها

---

(١) كتاب مشاكل السكان « (Population Problems) لتامسن وارين (Thampson Warren S.) المطبـــوع في نيويورك سنة ١٩٥٣ م ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

وانحطاط المعيار الفكري والعقلي العام وحط الرجال . . تلك هي الاخطار التي تواجهها اليوم البلاد الجارية على خطة تحديد النسل ، وان أرباب الفكر والعلم من أهلها في غاية من القلق والاضطراب لأجلها . استمع إلى ايلدوس هكسلي (Aldous Huxley)حيث يقول في كتابه الجديد «الزيارة الثانية للعالم الجديد الجريء» (Brave New World Revisited) :

« انه بناء على الأخطاء التي ارتكبناها حتى الآن ، قد أصبح من اليقيني أننا على قدر ما نزداد عدداً ، سيكون مستوانا من وجهة النظر الحياتية منخفضاً » [1] ويقول بالنسبة للمستقبل :

« على الرغم من الادوية الجديدة وأغلى ما قد استُجِدّ من طرق المعالجة ـ ولأجلها فقط بعض الاحيان ـ فإن مستوى سكان بلادنا للصحة العامة لن يرتفع أبداً ، وانما سينخفض يوماً فيوما ، ومع انخفاض مستواهم للصحة لا بد أن ينخفض مستواهم للفكر والعمل » . وبهذا الصدد ينقل هكسلي الرأي الآتي لطبيب خبير بالاحياء هو الدكتور شيلدون :

« إن طبقة العمال والفلاحين هي التي يتزايد أفرادها في ظروفنا الراهنة إزاء طبقة المثقفين والفنيين العليا ، وهذه الغلطة (Deliquency) هي حقيقة حياتية وأساسية في ما يتعلق بالتناسل الانساني » .

ويضيف شيلدون قائلاً : « هناك حقيقة مُرة قد ظهرت مما أجري من التجارب الطبية في أمريكا هي أن مستوى الذكاء العام في هذه الايام منخفض بالقياس إلى سنة ١٩١٦ » .

---

(١) الكتاب المذكور أعلاه : ص ٢٧ .

وقد بكى لهذه الظاهرة المزرية المفكر البريطاني الشهير برتراندرسل (Berterand Russel) ومن العجب أن كلاً من رسل وهكسلي في طليعة المؤيدين لحركة تحديد النسل ولا سيما لترويجها في البلاد الشرقية. يقول رسل:

« وفعلاً إن عدد السكان في فرنسا ثابت (Stationary) هذه الأيام ـ أي لا يزال قائماً على حاله لايزيد ولا ينقص ـ ومتوجه إلى هذه الحالة بسرعة بالغة في انكلترا، مما يدل دلالة واضحة على أن هناك في هذين البلدين طبقات يقل أفرادها وطبقات أخرى يتزايد أفرادها. فمالم يحدث تغير أساسي في أوضاعنا الراهنة، فإنه لا بد أن تنقرض فعلاً الطبقات التي يقل أفرادها ولا يبقى مجتمعنا مشتملاً الا على الطبقات المتزايد الآن أفرادها.. أما الطبقات التي يقل أفرادها، فهي طبقات المثقفين والفنيين والمتوسطين، وأما الطبقات التي يتزايد أفرادها فهي طبقات الجهال والفقراء والأغبياء والجبناء والجامدين. والطبقات التي يتضاءل حجمها يوما فيوماً، فإن المنقرضين منها بأكبر سرعة هم الذين مستواهم للفكر والذكاء أعلى من غيرهم. والنتيجة المحتومة لكل هذا ان كل جيل من أجيالنا يخرج منه أصلح ما يكون فيه من العناصر الذكية والمثقفة وهو سائر نحو العقم بطريق صناعي إزاء الذين يكتب لهم البقاء على الأقل »[1] ولبيان المؤثرات الخطيرة لكل ذلك يستطرد قائلاً:

---

(١) كتاب « مبادىء الانشاء الاجتماعي » (Principles of Social Reconstruction) للاستاذ برتراند رسل، المطبوع سنة ١٩٥٤، ص ١٢٤.

«وانا اذا أخذنا نموذجاً عاماً (١) للاطفال من سكان انكلترا ثم درسنا ظروف آبائهم ، علمنا أن مستواهم للفهم والقوة والعقل والثقافة أحط من مستوى عامة سكان انكلترا وأرفع من مستواهم في الكسل والركود والنكد والغباوة والحماقة والتوهم ، كما أننا سنعلم من ذلك ان الذين هم ذوو العقل والفهم والذكاء والثقافة لا ينجبون الاطفال على قدر عددهم أنفسهم أو بكلمات أخرى لا يبقى لكل زوجين منهم طفلان على قيد الحياة بالمعدل العادي ، وعلى العكس من هذا فالذين يتصفون بالصفات النقيضة لهذه الصفات ، فان كل زوجين منهم ينجبان أكثر من طفلين ولا يزالان يستزيدان من عدد أطفالهما بالتناسل » (٢)

ثم يستعرض رسل مؤثرات هذا التغير قائلاً :

إن من نتيجة القلة المطردة في العناصر الذكية :

١ — أن الأفراد الانكليز والفرنسيين والألمان يقل عددهم بصفة مطردة .

٢ — ولأجل هذا التغير قد قامت في الدنيا ولا تزال تقوم إزاء هذه الامم سيطرة أمم أخرى هي أقل منها حضارة ولا تزال تنعدم فيها التقاليد العليا .

٣ — وفي نفس الامم لا يتزايد الأفراد إلا في طبقاتها السفلى ،

---

(١) هذا مصطلح خاص من مصطلحات علم الاحصاء ، ومعناه أن تؤخذ من المجموعة طائفة تمثل وتحوز في نفسها طباع المجموعة وصفاتها .

(٢) المصدر المذكور ص ١٢٤ — ١٢٥ .

ومعلوم أن هؤلاء الأفراد المتزايدين ، ليس لهم نصيب من الذكاء والثقافة وبعد النظر .

ورسل في هذا الصدد يوازن بين الظروف الحاضرة والأيام الأخيرة للحضارة الرومية ويقول بأن مثل هذه العناصر غير الذكية كانت لها يد وأي يد في إزالة الحضارة الرومية :

« إن الانحطاط في الذكاء والقوة والنشاط والثقافة ، الذي ظهرت بوادره في دولة الروم في القرون الثاني والثالث والرابع ما زال غير مفهوم على مرور الزمان ، إلا أن هناك أسساً قوية لتعليله بأنه لم يحدث في ذلك الزمان إلا مثل ما قد حدث في حضارتنا الحاضرة ، أي ما زالت العناصر المثقفة الذكية في كل جيل من أجيال الروم فاشلة في انجاب الاطفال على قدر عدد أفرادها وما زالت الزيادة لاتحصل في الروم إلا بالعناصر التي كانت على حظ زهيد من الذكاء وقوة العمل والنشاط[1] » .

وإن رسل بعد ما يسوق في كتابه مثل هذه المباحث، لا يتوصل إلا إلى النتائج الآتية :

يقول : « إنه مما لا يقبل المكابرة أو الإنكار أن نظامنا الاقتصادي ومستوانا للأخلاق إذا لم يحدث فيها شيء من التغير ، فلا بد أن يحدث أقبح وأبشع تغير في أخلاق سكان بلادنا وأعمالهم بغاية من السرعة في الجيلين أو الأجيال الثلاثة الآتية ، وذلك بصورة أن الطبقات التي تكون أكثر ثقافة وأدباً وذكاءً وخبرة فنية تكون القلة أكثرَ في عدد أفرادها .

(١) المصدر المذكور ص ١٢٦

وعلى هذا فاذا كنا نريد لأنفسنا السلامة من الاطراد إلى هذه النتيجة الوخيمة، فعلينا أن نقضي على اختيارنا (Selectiveness) النحس الرائج[1] فينا اليوم بصدد نسبتنا للمواليد مهما كلفنا ذلك .

وهكذا فان التوازن بين الطبقات يحدث فيه الاختلال الشديد لأجل تحديد النسل ، ولا يزال العنصر الذكي الحيوي النشيط ينقرض لأجله شيئاً فشيئاً ، ومن جانب آخر يكون من نتيجته أن النسبة بين عدد الاطفال والعجائز تفسد بصورة فظيعة جداً ، مما تكون مؤثراته الاقتصادية والمدنية بعيدة المدى ومقلقة للغاية .

إن أمة إذا ظل فيها الاطفال يقلون وتنخفض نسبتهم وظل فيها العجائز يتزايدون وترتفع نسبتهم ، فان الدم الجديد لا يدخل فيها بسيره الفطري ، وبقلة عدد الاطفال فيها لا يتأثر طلبها المستهلكات فحسب ، بل يأخذ يتسرب إليها على وجه شامل الجمود والخمول والكسل والركود مكان التقدم والحركة والنشاط ولا تزال تبرد فيها عاطفة الصلابة وقوة العزيمة والصمود في وجه الاخطار والشدائد وبذل النفوس والمهج في سبيل مبدأ من المبادىء النبيلة ويصبح الجزء الاكبر من تلك الامة خاملاً هياباً يقول (إنا وجدنا آباءنا على أمةٍ وإنا على آثارِهم مقتدون). وهذا ما يجعل تلك الامة شيئاً فشيئاً متخلفة تخلفاً ملموساً في كل مجال من مجالات العلم والاقتصاد والثقافة والعمران إزاء الامم التي يحصل النمو والتزايد في عدد أفرادها بسيره الفطري ، والتي يبقى فيها العدد الكبير من شبانها يرتفعون

---

(١) أي اختيار الطبقات العليا للقلة واختيار الطبقات السفلى للزيادة .

بآمالها ويعملون على استثارة هممها وإرساخ عزائمها . انظر إلى هذه الامم الغربية ... فالسرعة المتزايدة التي تنخفض بها نسبة الاطفال والشبان وترتفع نسبة العجائز في هذه الامم ،قد بدأت تظهر نتائجها الفطرية وأصبح من السهل الميسور لكل لبيب مستبصر أن ينظر فيها بعين الاعتبار . فالميلان الذي قد بدأ للعيان خلال السبعين سنة الماضية ، نذكره في الجدول الآتي[1] :

البلد	السنة	الاطفال دون ١٠ سنوات	الشبان من ١٠ سنوات حتى ١٩ سنة	الاشخاص من ٥٠ الى ٦٤ سنة	العجائز فوق ٦٤ سنة
انكلترا وويلز	١٨٨٠	٢٥٫٧ ٪	٢٠٫٦ ٪	٩٫٨ ٪	٤٫٦ ٪
	١٩٥٠	١٥٫٥ ٪	١٢٫٤ ٪	١٦٫٨ ٪	١٠٫٩ ٪
المانيا	١٨٨٠	٢٥٫١ ٪	١٥٫٧ ٪	٨٫١ ٪	٧٫٩ ٪
	١٩٥٠ [2]	١٤٫٥ ٪	٩٫٣ ٪	١٦٫٤ ٪ [3]	٩٫٣ ٪
فرنسا	١٨٨٠	١٨٫٣ ٪	١٧٫١ ٪	١٤٫٥ ٪	٨٫٠ ٪
	١٩٥٠	١٤٫١ ٪	١٥٫٧ ٪	١٦٫٤ ٪	١١٫٠ ٪
امريكا	١٨٨٠	٢٦٫٧ ٪	٢١٫٤ ٪	٨٫٤ ٪	٣٫٤ ٪
	١٩٥٠	١٩٫٥ ٪	١٤٫٤ ٪	١٤٫٣ ٪	٨٫١ ٪

وغني عن البيان أن مثل هذا التغير واقع أيضاً في الوضعية الداخلية

---

(١) وهذا الجدول أخذناه من كتاب « مشاكل عدد السكان » لتامبسن ص ٩٥

(٢) هذه الأرقام إنما هي من ألمانيا الغربية وهي غير شاملة لألمانيا الشرقية .

(٣) ولعل السبب في قلة انخفاض النسبة هنا أن كان هذا الجيل قد ترعرع تحت سياسة هتلر وكان هتلر من أشد المعارضين لحركة تحديد النسل .

لعدد سكان سائر البلاد الغربية بدون استثناء . وإن هيئة الامم المتحدة قد نشرت تقريراً تحقيقياً عن الميلان إلى كثرة عدد العجائز في سائر البلاد الغربية وأبدت عليه قلقها وانزعاجها الشديد[1] . فالذي تدل عليه الاحصائية المذكورة في تقريرها أن نسبة البالغين ٦٥ سنة أو أكثر قد ارتفعت بصورة غير عادية في السنوات بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ بحيث أننا إذا فرضنا هذه النسبة سنة ١٩٠٠ مائة ، فهي سنة ١٩٥٠ كما يأتي في مختلف البلاد الغربية :

نيوزي لاندا ٢٣٦ ، بريطانيا ٢٣١ ، النمسا ٢١٢ ، أمريكا ٢٠٠ ، ألمانيا ١٩٠ ، بلجيكا ١٧٣ ، فرنسا ١٤٤ .

ومما قد جاء بيانه في التقرير — كذلك — أن التغير في الخصوبة ونسبة المواليد له دخل كبير في تغيير هذه النسبة ، وأن التغير في نسبة الوفيات ما أثر في هذا الشأن مثل ما قد أثر في نسبة المواليد[2] .

والاستاذ تامسن يبدي أسفه الشديد وقلقه العظيم على اختلال النسبة بين عدد الاطفال والعجائز في البلاد الغربية ويقول في هذا الصدد :

« إن هذه الحقيقة — أي ارتفاع نسبة العجائز في البلاد الغربية — ذات تأثير كبير وعاقبة مزرية لأن معنى تزايد الافراد المتقدمين في السن

---

(١) أعمار السكان وعواقبها الاقتصادية والاجتماعية (Tne Aging of Population and its Economic and Social Implications) لمكتب الشؤون الاقتصادية والاجتماعية الامم المتحدة ، المطبوع بنيويورك سنة ١٩٥٦

(٢) المصدر المذكور ص ٢٢

أن ترتفع نسبة الوفيات وتنخفض نسبة المواليد . ومن المعلوم مع ذلك أن العجائز يكونون أقل نفعاً وأبطأ إنتاجاً من الشبان باعتبار الوجهة الاقتصادية[1] » .

إنه لا بد لتقدم الاقتصاد واضطراده على الاسس الصحيحة المحكمة أن تبقى نسبة مخصوصة مستقرة بين عدد العجائز والشبان حتى لا تضعف الأيدي المسيّرة لقطار الحياة المدنية. وقد ضمنت الطبيعة بكل ذلك للانسان، إلا أن التدخل من قبل الانسان في عمل الطبيعة بتحديد نسله ، يخل بهذا التوازن الفطري ، ولأجله يتزايد عدد العجائز ولا يتزايد عدد الاطفال بسرعة متناسبة ولاتزال النسبة بينهما في اختلال مطرد مما تكون نتجيته اللازمة في النهاية أن يقل عدد العاملين الاقوياء وتضعف القوة القومية وتتداعى القوة الاقتصادية . ثم إنه إذا وجدت في أمة قلة العاملين الاقوياء وقحط الرجال مع انخفاض نسبة الشبان فيها، فانه لا بد لتلك الامة أن تصير في عداد الامم المحكومة بدلاً من أن تكون حاكمة وتتدلى من درجة العلو والغلبة والسيادة إلى درجة الذل والهوان والتابعية، لان الحقيقة أن الطبيعة قلما تغتفر الذين يعاكسون أوامرها وهناك أسباب خافية يضمرها إقدامهم على معاكسة أوامرها هي التي تقوم عاجلاً أو آجلاً بعقابهم على جريمتهم وتهيء الاسباب الواضحة لاعتبار غيرهم.

٢ ـ كثرة الفواحش والامراض الخبيثة :

وبسبب تحديد النسل قد صادف الزنا والامراض الخبيثة الاخرى

---

(١) الاستاذ تامسن في كتابه « مشاكل السكان » ص ٩٥

أيما رواج في المجتمع الغربي . إن هناك أمرين لا ثالث لهما يثبتان النساء - بعد خشيتهن لله - على جادة الاخلاق ومعيارها الأعلى هما حياؤهن الفطري وخوفهن من ان ولادة ولد الزنا تفضحهن في البيئة . أما الحاجز الاول منها فقد أزاحته المدنية الجديدة إلى حد كبير ، فأنى للحياء أن تبقى منه بارقة بعد الاختلاط العلني بين الرجال والنساء في محافل الرقص والغناء والخمر وسواحل البحار ومسابح الملاهي ؟ وأما الخوف من ولادة ولد الزنا ، فان الرواج العام لوسائل تحديد النسل قد جعله أيضاً أثراً بعد عين وشيئاً يمت إلى الماضي ، ولأجله قد أصبح الرجال والنساء جميعاً كأنهم قد نالوا إجازة عامة باقتراف الزنا .

ومع كثرة وقائع الزنا لا بد أن تتفشى الامراض الخبيثة. ففي انكلترا يولد في كل سنة أكثر من ٨٠ ألف ولد بدون زواج شرعي . يقول تقرير مؤتمر ديواسيزان (Déocesan Conference) ان واحداً من كل ثمانية أطفال ولدوا سنة ١٩٤٦ كان من الزنا ، وأنه قد حملت في هذه السنة أكثر من مائة ألف امرأة خارج دائرة الزواج . ويقول الدكتور آزوالد شوارز (Oswald Schwarz) : « انه نحو ٨٠ ألف امرأة في انكلترا يلدن أولاد الحرام كل سنة حسب المعدل العادي (أي ثلث مجموع المواليد تقريباً) ، وان امرأة من كل عشر نساء بالتقدير العادي مزاولة للعلاقة الجنسية خارج دائرة الزواج ، وأن النساء اللاتي تشملهن هذه الاحصائية ، كانت سن ٤٠٪ منهن عند الولادة غير الشرعية أقل من ٢٠ سنة ، وكانت سن ٣٠ ٪ منهن ٢٠ سنة ، وكانت سن ٢٠٪ منهن

٢١ سنة . فهــــذه الاحصائية في حد ذاتها مخيفة تثير القلق في النفوس ولكن مما لا ينبغي أن نغفل عنه بهذا الشأن هو أن هذه الاحصائية انما هي لوقائع الزنا التي وقع فيها نوع من الخطأ (أي وقع فيها الحمل على رغم كل ما اتخذ من التدابير لمنعه) ، ومعنى هـذا أن كل ما هو واقع في حقيقة الأمر ، لا تعرض منه هذه الاحصائية الا جزءاً يسيراً »[1] . فهذه الاحصائية التي قدمها الدكتور شوارز تدل على أن واحدة من كل عشر نساء في انكلترا متلوثة بالاثم ، الا أن الوضع الذي تعرضه المعلومات الاخيرة ، هو أفظع وأبشع حتى من إحصائية الدكتور شوارز هـذه . ان التقرير الذي نشره الدكتور تشيسر (Cheoser) ووضعه على أساس المعلومات الحاصلة من ٦٠٠ امرأة سنة ١٩٥٦ ، يقول ان واحدة من كل ثلاث نساء فى انكلترا تفقد جوهر عفتها قبل الزواج[2] ، وهذا مايؤيده أيضاً الدكتور تشيسر في كتابه الاخير « هل قد عادت العفة أثراً بعد عين » ؟[3]

ويعرض الدكتور سوروكن ـ المؤرخ الشهير والخبير بالشؤون

---

(١) كتاب نفسية الجنس (The Psychology of Sex) المطبوع سنة ١٩٥١ ، ص ٦٠ .

(٢) كتابه : « العلاقة الجنسية والزوجية والعائلية للمرأة الانكلـيزية » (The Sexual, Maritial and Family Relationship of English Woman) المطبوع سنة ١٩٥٦ .

(٣) المطبوع بلندن سنة ١٩٦٠ ، ص ٧٥ .

الاجتماعية ـ الارقام الآتية للعلاقات الجنسية غير الشرعية في أمريكا وبيكي للوضع الخطير الذي تبينه [١]:

العلاقات غير الشرعية قبل الزواج	الرجال من ٢٧ إلى ٨٧٪ النساء من ٧ إلى ٥٠٪
العلاقات غير الشرعية بعد الزواج	النساء من ٥ إلى ٢٦٪ الرجال من ١٠ إلى ٤٥٪
أولاد الحـــــرام	سنة ١٩٢٧ : ٢٨ من كل ألف سنة ١٩٤٧ : ٣٨،٧ من كل ألف

حوادث الاجهاض سنوياً من ٣٣،٣٠٠ إلى ١٠٠،٠٠٠

« ومظهر ذلك الحقيقة القائلة بأن الزيادة في بيع الادوية والآلات المانعة للحمل تكاد تبلغ عنان السماء في امريكا ».

ويقول سوروكن بعد هذا :

« ولعلنا لسنا مع هذا بحاجة إلى بيان المؤثرات والنتائج الشاملة التي تترتب على هذا الاسترسال وراء الشهوات الجنسية العارمة على الفرد والبيئة والأمة بصورة عامة . وسواء أسميتم هذا الاسترسال « الحرية الجنسية » أو « الفوضى الجنسية » فانه لا تتبدل الحقيقة القائلة بأن نتائجه أبعد تأثيراً من نتائج كل الانقلابات التي شاهدتها عين التاريخ حتى اليوم »[٢]

---

(١) السلوك الجنسي في الرجل (Sexual Behaviour in Human Male) ص ٥٥٢ .

(٢) كتابه الثورة الجنسية في امريكا (The American Sex Revolution) المطبوع بيوسطون سنة ١٩٥٦ ص ١٣ـ١٤ .

وحسب تقرير كنزي أن نسبة أولاد الحرام في أمريكا هي ١ : ٥، وان نسبة الاولاد من الامهات العذارى هي ١ : ٤، وتقول التقديرات القابلة للوثوق بها إلى حد ما أن واحداً من كل أربعة أحمال يسقط، بل يقول تقرير بجلة تايم(Time) عن سانفرانسيسكو أنقدأسقطفيها ١٨،٠٠٠ حمل مقابل ١٦،٤٠٠ مولود[١] .

وكذلك إذا درسنا إحصائيات الجرائم - ولا سيما الجرائم الجنسية - علمنا أنها في تقدم مطرد يوماً فيوما . فالجرائم التي يدخل في اختصاص الشرطة أن تتدخل في شأنها، وتطلع عليها الشرطة في انكلترا تعدو بالسرعة الآتية[٢] :

سنة ١٩٣٨ : ٢٨٣،٠٠٠ جريمة

سنة ١٩٥٥ : ٤٣٨،٠٠٠ جريمة

وقد ارتفعت نسبة الجرائم الجنسية خلال هذه المدة من ١٠٧٪ إلى ٦،٣٪ من مجموع الجرائم[٣] . ومما تدل عليه إحصائية المكتب الاتحادي لتحقيق الجرائم (Federal Bureau of Investigation) أن حوادث الزنا سنة ١٩٥٥ ازدادت ٦٠٪ بالقياس إلى السنوات بين ١٩٣٧ و ١٩٣٩، وقد ازدادت الجرائم الاخرى بالمعدل المتراوح بين ٥ و ٨٠٪ [٤] .

(١) كتاب « مشاكل السكان » المذكور ص ٤١٨-٤١٩ .

(٢) استعراض للظروف الاجتماعية في انكلترا وويلز (A survey of Social Conditions in England and Wales)المطبوع باكسفورد سنة ١٩٠٨، ص ٢٦٦ .

(٣) المصدر المذكور ص ٢٧٠ .

(٤) كتاب « مشاكل السكان » المذكور ص ٣٨٦ .

وإذا تعرضنا لتعداد جميع الجرائم الكبيرة ، علمنا أن الشرطة سنة ١٩٥٨ اطلعت على ٣٣٠،٠٠٠ من حوادثها مع أن هذا العدد لم يكن سنة ١٩٤٠ إلا ١٥٠،٠٠٠ فقط[١] .

وان تشرد الشبان أيضاً في تقدم وتفاقم بحيث أن الـ ٢٫٩٨٠٠٠٠ الذين قبضت عليهم الشرطة سنة ١٩٥٧ في ١٤٧٣ مدينة من مدن أمريكا بتهمة ارتكابهم مختلف الجرائم، كانت من ٢٫٠٥٣٠٠٠ شخص منهم أقل من ١٨ سنة[٢] .

وأيضاً ان الامراض المتولدة من الفوضى الجنسية في فشو وتقدم مطرد وتكاد مؤثراتها تفتك بالصحة القومية العامة على رغم كل ما قد أوجد من أحسن الفرص المواتية لمالجتها .

يقول الدكتور توماس باران (Thomas Paran) - الطبيب الجراح العام لخدمة صحة الجمهور في أمريكا - عن مرض الزهري (Syphilis) مثلاً : « أنه أفتك وأضر بمائة مرة من مرض فالج الاطفال وان خطره في أمريكا مثل خطر السرطان وحمى الدق والتهاب الرئة ، حتى أن واحداً من كل أربعة أشخاص إنما يذهب ضحية الموت لسبب الزهري مباشرة أو غير مباشرة» . ويقول الاستاذ بال ليندوس بعد نقله رأي الدكتور بيرن:

---

(١) كتاب « تغير الديمقراطية » (The Change of Democracy) للاستاذ بليتش وبامجارتنر (Blich and Baumgartner) المطبوع بنيويورك ص ٥١٠ من الطبعة الرابعة .

(٢) المصدر المذكور ص ٥١١ .

« لقد كانت الامراض الخبيثة في تضاؤل وانحطاط لرواج الادوية الحديدة واستعمالها بعد سنة ١٩٤٧ ولكنها نكصت مرة أخرى وعادت سيرتها الاولى منذ سنة ١٩٥٥، ففي مدن امريكا كلها تقريباً نجد أن مرض الزهري والسيلان في انتشار وتقدم بسرعة لا توصف، وان أكثر من يفشو فيهم هذان المرضان هم الاحداث — من الفتيان والفتيات — الذين منهم أقل من عشرين سنة، بل الحقيقة أن نصف المصابين بهذين المرضين هم هؤلاء الاحداث »[1] .

وقد جاء في عدد اغسطس (آب) ١٩٦١ لمجلة ريدرز دائيجست (مختار القراء) الامريكية مقال لجورج كينت (Kent) و وافريد جريتوراكس (Wilfred Greatorex) يصرحان فيه بأن قد عادت الامراض الخبيثة تنتشر من جديد في مدن بريطانيا ومراكزها الكبيرة كلندن وبرمنجهام وليفربول بسرعة لا نظير لها سابقاً، وأن النجاح الذي كان حصل لمدة من الزمان في مقاومة هذه الامراض بالادوية الجديدة القاتلة لجراثيمها قد تحول اليوم إلى الفشل حيث قد ازداد عدد المصابين بهذه الامراض خلال السنوات الاربع ـ منذ ١٩٥٥ إلى ١٩٥٩ — بمعدل ٢٠٪، فقد كان المصابون بمرض السيلان مثلا ٣١ الف شخص سنة ١٩٥٩، أي قد ازداد عددهم بمعدل ٧٠٪ منذ سنة ١٩٥٥، مع بيان أن هذه الاحصائية إنما هي لاولئك الاشخاص الذين دخلوا المراكز المخصوصة لمعالجة الامراض الخبيثة وهي غير متضمنة للذين يراجعون

---

(١) كتاب « مشاكل السكان » المذكور ص ٢١٣ .

لمعالجتهم الاطباء والخبراء المشتغلين بالمعالجة على انفرادهم ولا الذين لا يراجعون طبيباً لمعالجتهم أصلاً. ثم يقولان أن هذا الوباء الماحق، أي وباء الامراض الخبيثة، منتشر على نطاق واسع بين الشعب الانكليزي كله، وإن أكثر ما يدعو إلى الحزن والاسى من نواحيه أنه متدفق كالسيل المنجرف في الاحداث من الفتيان والفتيات بصفة خاصة. وحديثاً قد قام عدد من الاطباء والخبراء بالامراض الوبائية بمقارنة بين احصائيات السنوات منذ ١٩٤٨ حتى السنة الجارية، وقدموا تقريراً يقول بأن مرض السيلان قد ازدادت إصاباته بنسبة ٣٦٪ و ٢٨٪ بين الفتيان والفتيات البالغين ١٨ و ١٩ سنة بالتوالي خلال مدة سنة واحدة فقط. ويقدر الدكتور ا. ج ديلزل وارد (A.G. Dalzell Ward) رئيس اللجنة المركزية لتعليم الصحة في انكلترا أن هذا الانتشار الواسع للامراض الخبيثة ما شوهد له نظير بين الفتيان والفتيات دون عشرين سنة قبل الآن. فقد كان في مستشفى واحد بلندن ٤٩٠ شخصاً مصاباً بهذه الامراض في آن واحد ولم تكن من واحد منهم تجاوزت عشرين سنة. وقد كان نصف المصابين بهذه الامراض في ايفربول ممن كانت سنهم بين ١٤ و ٢٠ سنة.

وقل مثل هذا بالنسبة للبلاد الاخرى أيضاً. ففي جلسة أخيرة المنظمة الدولية للصحة (World Health Organisation) قدمت ١٦ بلداً من مختلف بلاد العالم تقريراً يقول أن الزهري والسيلان منتشران فيها كالوباء الماحق، وقد تضاعف عدد المصابين بالسيلان ثلاث مرات في ايطاليا ومرتين في دانمارك بين سنتي ١٩٥٨ و ١٩٥٩.

فهذه الاحصائيات وهذه الاوضاع الفاسدة إن كانت تدل على شيء، فهي تدل على أن باب الاثم الذي فتحته حركة تحديد النسل في الحياة الاجتماعية للعالم الجديد ، يدخل منه الآن عفاريت الزنا والجرائم الجنسية والامراض الخبيثة بأتم ما يتصور من الجرأة والاقدام وانهم قد لفوا المجتمع كله بشرورهم وويلاتهم .

٣ – كثرة وقائع الطلاق :

إن تحديد النسل هو أحد الاسباب الاساسية التي قد أوهنت قيود العلاقات الزوجية بين سكان البلاد الغربية .

من المعلوم أن الذرية لها نصيب كبير فى المحافظة على العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ، فهما ما داما لم ينجبا ولدا ، يكون من السهل جداً على كل واحد منهما أن يفارق زميله . لأجل هذا فقد أصبح لرواج الطلاق انتشار واسع جداً في البلاد الغربية ، وأكثرُ من يطالبون فيها بالطلاق هم من الازواج والزوجات بدون ذرية . ففي محكمة واحدة من محاكم الطلاق بلندن فسخت أكثر من ١١٥ زيجة في دقيقة ونصف دقيقة وقد كانوا كلهم جميعاً ـ بدون استثناء ـ أزواجاً وزوجات لم تكن لهم ذرية .

يقول عامة الخبراء بالشؤون العمرانية أن عدم وجود الذرية لدى الزوجين له دخل كبير في كثرة وقائع الطلاق ، بل هو مما يكاد يجتمع عليه رأيهم جميعاً . يقول تالكوت بارسن (Talcott Parson) بعد أن قدم في هذا الشأن الارقام الواضحة :

« إن وقائع الطلاق إنما تحصل، أكثر ما تحصل، في السنوات الاولى بعد الزواج أو بين الازواج والزوجات الذين لا تكون لهم ذرية . وسواء أكان أحد الزوجين من المطلقين والمطلقات سابقاً أو لم يكن كذلك، فهما إذا بدآ ينجبان الذرية مرة ، تتوثق علاقتهما الزوجية إلى حد كبير وقلما يتفكران في الانفصال بعده »[1] .

وكذلك يعرض الاستاذان بارنيس و ريودي (Barness and Ruedi) خلاصة استقصاءاتهما ولباب تحقيقاتهما في هذا الشأن بكلماتهما الآتية :

« إن الازواج والزوجات الذين يطالبون بالطلاق ، ثلثاهم ممن لم يرزقوا طفلا ، وخمسهم ممن لم يرزقوا أكثر من طفل واحد ، والحقيقة أن هناك علاقة واضحة بين الطلاق والحياة الزوجية بدون ذرية »[2] .

ومما جاء الاعتراف به في المدد الصادر في يونيو (حزيران) ١٩٦١ لمجلة « النفساني (Psychologist) الانكليزية الشهيرة :

من الواجب على كل زوج وزوجة أن يكون أباً أو أماً ، فان الذين يؤخرون انجاب الذرية يندمون على غلطتهم وسوء رأيهم في ما بعد . إن الزواج بدون ذرية يسبب بين كل يوم وآخر ما لا يعد من المفاسد والمشاكل المرهقة وسواء أكان الزوجان على وفاق وطمأنينة في ما بينهما،

(١) كتابه « استقرار النظام العائلي في أمريكا » (The Stability of The American Family System) المطبوع بلندن سنة ١٩٦١ ص ٩٤ .
(٢) كتابهما « الاسلوب الامريكي للحياة » (The American Way of Life) المطبوع بنيويورك سنة ١٩٥١ ص ٦٥٢ .

فانه لا بد أن يتسرب إلى حياتها الانقباض والكآبة والتذمر والانزعاج الشديد شيئاً فشيئاً مع مرور الايام ولا بد أن يشعرا هناك بأنهما قد بلغا نهاية سفرهما . إن الخبراء بالشؤون العمرانية لا ينفكون ينبهوننا على أن نسبة الطلاق في الاسر التي ليس لديها طفل أرفع منها في الاسر الاخرى . والسبب في ذلك واضح جداً هو أنه بذلك لا تتحقق عاطفة الرجل بل رغبته الفطرية في أن يكون أباً ولا رغبة المرأة في أن تكون أماً، وذلك مما له أهميته الكبرى بالنسبة المرأة خاصة . إن تحديد النسل يودي برغبتها الفطرية ـ أن تكون أماً ـ وذلك ما يمكن أن يهدم عليها جهازها العصبي ويفسد عليها صحتها ويجعلها بدون أي أمل أو مسرة أو رغبة في الحياة ».

وإلى هذه النتيجة الوخيمة يشير الدكتور فريد مين ورفاقه بعد تحقيقاتهم التي قاموا بها في هذا الشأن . يقولون :

« إن نسبة الطلاق أرفع في الأسر التي نتيجة الزواج فيها الحرمان من الاولاد أوقلة عدد الأولاد »[١] .

وان السرعة التي ترتفع بها نسبة الطلاق في البلاد الجارية على خطة تحديد النسل لها من الاهمية مالا يستهان به . يقول الدكتور آزوالد شوارز عن انكلترا مثلاً :

---

(١) الاساتذة فريدمين وويلبتون وكامبيل (Freedman, Whelpton and Campbel) كتابهم « التخطيط العائلي والعقم وزيادة السكان » (Family Planning, Sterrility and Population Srowth) المطبوع بنيويورك سنة ١٩٥٩، ص ٤٥ .

ان السرعة التي يجري بها سيل حوادث الطلاق منذ نصف القرن الماضي فيها شدة كشدة الوباء وسمية كسميته . لقد كانت حصلت في انكلترا ٨٢٦ حادثاً للطلاق سنة ١٩١٤ ، وبلغ عددها ٣٥٢٢ حادثاً سنة ١٩٢١ ، و ٤٠٠٠ حادثاً سنة ١٩٢٨ وما زال هذا العدد يتضخم بعد هذا حتى بلغ ٣٥٫٥٧٤ حادثاً سنة ١٩٤٦ . أليس هـــذا ايذاناً بالخطر من قبل الطبيعة يدل على أن حضارتنا قد اجتازت أكبر ما قدر لها من درجات الكمال الخلقي ؟ (١)

وإننا بهذا الصدد إذا درسنا الاحصائية التي وضعتها محكمة انكلترا للشؤون العائلية ، علمنا أن معدل حوادث الطلاق في انكلترا يتزايد بالسرعة الآتية :

سنة ١٩٣٦ : ٤٠٥٧ حادثاً
سنة ١٩٣٩ : ٧٩٥٥ حادثاً
سنة ١٩٤٧ : ٦٠٧٥٤ حادثاً

ثم بدأ هذا المعدل يهبط هبوطاً يسيراً في السنوات التالية وما زال على حاله حتى سنة ١٩٥١ ثم ارتفع بعد ذلك مرة أخرى ولا يزال بين ارتفاع وهبوط حتى اليوم .

وأما أمريكا فقد كانت واحدة من عشر العلاقات الزوجية فيها تنفصم بالطلاق وكانت البقية انمـــا تنفصم بالموت إلى سنة ١٨٩٠ الا أن هذه

(١) كتابه « فلسفة الجنس » (The Philosophy of Sex) ص ٢٤٣ .

النسبة بدأت تنخفض بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى صارت ١ : ١٫٥٨ بدلاً من ١ – ١٠ سنة ١٩٤٩ ، كما أن النسبة بين الزواج والطلاق أيضاً منحدرة إلى الاختلال المطرد الشديد ، ولعل الارقام الآتية أحسن بلاغ لبيان هذه الحقيقة : (١)

السنة	الطلاق	الزواج
١٨٧٠	١ :	٣٣٫٧
١٩١٥	١ :	١٠٫١٢
١٩٤٠	١ :	٦٫٠
١٩٤٢	١ :	٥٫٠
١٩٤٤	١ :	٤٫٠
١٩٤٥	١ :	٣٫٠
١٩٥٠	١ :	٤٫٣
١٩٥٨	١ :	٣٫٧

ومعنى هذا أن عدد الزواج اذا كان ٣٤ سنة ١٨٧٠ فما كان فيها عدد الطلاق إلا واحدا ولكن قد أصبح عدد الطلاق الآن واحداً في مقابل ٤ وهو عدد الزواج . وقد كانت ثلاث نسوة فقط هن المطلقات من بين ألف امرأة سنة ١٨٩٠ ولكن بلغ عددهن ١٧٫٨ سنة ١٩٤٦، مما يدل دلالة واضحة على أن عدد المطلقات قد تضاعف الآن ست مرات تقريباً منذ سنة ١٨٩٠ . وبناء على هذا يقول الاستاذ سوروكن ان قداسة العلاقة

(١) كتاب «استعراض للظروف الاجتماعية في انكلترا وويلز» المذكور ص ٧–٨.

الزوجية تهان الآن مرة بعدمرة وبأشد فظاعة وعلانية بالنسبة الماضي حتى لقد أصبح كل بيت بمثابة محل لوقوف السيارة حيث لاينزل الزوجان الا ليلة أو بعض ليلة ، بدلاً من أن يكون منزلا ينزل فيه الزوجان ويعيشان عيشة هادئة مستقرة .

ومع كثرة حوادث الطلاق فإن مرض الهجران الزوجي (Desertion) في انتشار وتقدم ، ويسميه الأمريكيون في حياتهم العامة « طلاق الرجل الفقير » (Poor man's Divorce) . ففي هذه الأيام هناك أكثر من مليون اسرة تكابد المشاكل المترتبة على هذا المرض ، وبموجب الاحصائية الأخيرة يوجد في أمريكا اليوم ٩٦،٠٠٠ امرأة قد هجرت زوجها و ١٥٢٦،٠٠٠ رجلا قد هجر زوجته ، وحسب تقدير سوروكن أن ٤٪ من مجموع النساء المتزوجات في أمريكا هن في حالة الهجران الزوجي ، وتبذل عليهن خزانة الدولة نحو ٢٥٠ ملون دولار سنويا[1] ، وبناء على كثرة حوادث الطلاق والهجران الزوجي هناك ١٢ مليونا من ٤٥ مليون طفل — أي بنسبة زائدة على ٢٥٪ — في أمريكا هم محرومون من رعاية الآباء والامهات ، وغني عن البيان أن هؤلاء الاطفال هم الذين قد جعلوا مشكلة تشرد الشبان (Guvenile Deliquency)من أهم المشاكل المرهقة في أمريكا .

(١) هذه الأرقام إنما هي عن سنة ١٩٥٣ ، راجع كتاب « الثورة الجنسية في أمريكا » المذكور للدكتور سوروكن ، ص ٨ .

٤ ــ انخفاض نسبة المواليد :

ومن أهم النتائج في هذا الصدد أن الشعوب التي تجري على خطة تحديد النسل في بلادها ، قد انخفضت فيها نسبة المواليد إلى درجة خطيرة جداً ، وقد قلنا سابقاً أن حركة تحديد النسل كان بدؤها في اوربا سنة ١٨٧٦ . وتعال لنبين لك الآن بالجدول في الصفحة التالية ماذا كانت نسبة المواليد بكل ألف شخص في مختلف البلاد الغربية سنة ١٨٧٦ وكيف أنها بدأت تنخفض بعد ذلك شيئاً فشيئاً حتى وصلت إلى ما هي عليه هذه الايام:

إن هذا الجدول أحسن بلاغ لبيان نتائج حركة تحديد النسل في البلاد الغربية . فانخفاض نسبة المواليد بصفة مطردة في كل بلد من البلاد الغربية ــ بدون استثناء ــ منذ تاريخ بدء هذه الحركة ، إن كان يدل على شيء فانما يدل على أن منع الحمل هو أكبر أسبابه إن لم نقل أنه سببه الوحيد . فقد اعترف السجل العام في انكلترا بأن ٧٠٪ من نسبة انخفاض نسبة المواليد هي على رواج منع الحمل ، وقد جاء الاعتراف في الموسوعة البريطانية أيضاً بأن الوسائل الصناعية لمنع الحمل لها أكبر يد في خفض نسبة المواليد في مختلف البلاد الغربية .ومما يدل عليه تقرير اللجنة الملكية لمدد السكان سنة ١٩٤٩ أن الذين دخلوا الحياة الزوجية قبل سنة ١٩١٠، كان ١٦٪ منهم فقط يمارسون منع الحمل ؛ ولكن قد أصبح ٧٤٪ من الازواج والزوجات يمارسونه بعد سنوات ١٩٤٠ ــ ١٩٤٢ .وأيضاً يصرح تقرير اللجنة الملكية في هذا الصدد بما يأتي :

« إن الذي تشهد به الحالة الاجتماعية في انكلترا وفي البلاد الاخرى

نسبة المواليد (١)

البلد / السنة	١٨٧٦ م	١٩٠١ م	١٩١٣ م	١٢٦٩ م	١٩٣٤ ! ١٩٣٠ م	١٩٣٩ ! ١٩٣٥ م	١٩٤٤ ! ١٩٤٠ م	١٩٥٣ م	١٩٥٤ م	١٩٥٥ م	١٩٥٧ م	١٩٥٨ م
انكلترا وويلز	٣٦,٣	٢٨,٥	٢٣,١	١٢,٨	١٥,٨	١٥,٣	١٦,٠	١٥,٩	١٥,٦	١٥,٥	١٦,٥	١٦,٨
فرنسا	٢٦,٢	٢٢,٠	١٩,٠	١٨,٨	١٧,٣	١٥,١	١٦,٣	١٨,٩	١٨,٩	١٨,٦	١٨,٦	١٨,٢
المانيا	٤٠,٩	٣٥,٧	٢٧,٥	٢٠,٧	١٦,٦	١٩,٩	—	١٥,٨	١٦,٦	١٦,٠	١٧,٠	١٧,٠
ايطاليا	٣٩,٢	٣٢,٦	٣١,٧	٢٧,٨	٢٤,٥	٢٣,٢	٢٠,٨	١٧,٧	١٨,٢	١٨,١	١٨,١	١٧,٦
بلجيكا	٣٣,٢	٢٩,٤	٢٢,٦	١٨,٩	١٧,٦	١٥,٥	١٣,٨	١٦,٦	١٨,٦	١٦,٨	١٧,٠	١٧,١
دانمارك	٣٢,٦	٢٩,٧	٢٥,٦	٢١,٠	١٧,٩	١٧,٩	٢٠,٣	١٧,٩	١٧,٣	١٧,٣	١٦,٨	١٦,٦
هولاندا	٣٧,١	٣٢,٣	٢٨,٣	٢٣,٨	٢١,٧	٢٠,٣	٢١,٨	٢١,٨	٢١,٦	٢١,٦	٢١,٢	٢١,١
سويد	٣٠,٨	٢٧,٠	٢٣,١	١٦,٩	١٤,٤	١٤,٥	١٥,٤	١٥,٤	١٤,٦	١٤,٦	١٤,٥	١٤,٢
السويسرا	٣٣,٠	٢٩,٠	٢٣,١	١٨,٢	١٦,٧	١٥,٤	١٧,٠	١٧,٠	١٧,٠	١٧,٠	١٧,٧	١٧,٦

(١) الارقام بعد سنة ١٩٣٦ مأخوذة من الكتاب السنوي للامم المتحدة لاحصاء السكان سنة ١٩٥٩م.

أن انخفاض نسبة المواليد إنما هو نتيجة ناتجة من منع الحمل ووضع الحد لعدد أفراد الاسرة قصداً، ومن تأثيرها المباشر أن نسبة المواليد اليوم أخفض بكثير منها لو كان الناس إنما يحاولون تحديد نسلهم بدون قصد وبغير الوسائل الصناعية »[1].

وعلى حسب ما قام به وهيلبتون وكيسر (Whelpton and Kiser) من الاستقصاءات والتحقيقات هناك ٩,٥٪ من الازواج والزوجات في أمريكا يحاولون منع الحمل على وجه من الوجوه[2]. ومما يدل عليه تحقيقات فريد مين (Freedman) وزملائه أن أكثر من ٧٠٪ من الازواج والزوجات في أمريكا يستخدمون الوسائل الصناعية لمنع الحمل على وجه شامل. ومما يصرح به هؤلاء المؤلفون بعد دراساتهم الطويلة الأوضاع الاجتماعية في أمريكا وبريطانيا:

« أن السبب الاساسي لتضاؤل الاسرة وقلة أفرادها هو المحاولات المبذولة بالقصد والاختيار لمنع الحمل »[3].

ولكي نعرف نتائج منع الحمل على وجه أوضح في البلاد الغربية عامة، علينا أن نقارن بين نسبة الزواج والمواليد في هذه البلاد. فبينما لم تهبط نسبة الزواج في انكلترا في السنوات بين ١٨٧٦ و ١٩٠١ إلا بـ ٣,٦٪، قد هبطت فيها نسبة المواليد بـ ٣٥,٥٪، وبينما قد ظلت نسبة الزواج فيها ثابتة في السنوات بين

---

(١) ص ٣٤.
(٢) مقال « التخطيط للخصوبة » (The Planning of Fertility).
(٣) كتاب « التخطيط العائلي والعقم وزيادة السكان » المذكور ص ٥.

١٩٠١ و ١٩١٣ ، قد هبطت فيها نسبة المواليد إلى ١٦٫٥ ٪ . وأما الفرق الموجود بين نسبة الزواج ونسبة المواليد في مختلف البلاد الغربية في السنوات بين ١٩٢٠ و ١٩٢٦ ، فيبينه الجدول الآتي:

البلد	ارتفعت نسبة الزواج	هبطت نسبة المواليد
فرنسا	بـ ٧٫٦ ٪	بـ ٢٨٫٢ ٪
ألمانيا	بـ ٩٫٤ ٪	بـ ٤٩٫٤ ٪
ايطاليا	بـ ٩٫٨ ٪	بـ ٢٩٫١ ٪
هولاندا	بـ ١٠٫٢ ٪	بـ ٣٥٫٠ ٪
السويد	بـ ١١٫٣ ٪	بـ ٤٥٫١ ٪
دانمارك	بـ ١٢٫٣ ٪	بـ ٣٥٫٦ ٪
سويسرا	بـ ١٢٫٩ ٪	بـ ٤٤٫٨ ٪
انكلترا وويلز	بـ ١٣٫٣ ٪	بـ ٥١٫٠ ٪
ناروبج	بـ ٢٦٫٠ ٪	بـ ٣٨٫٠ ٪

وهذا المنهج الخاطىء المهلك نفسه تسلكه أمريكا . فقد كانت نسبة المواليد فيها إلى أواخر القرن التاسع عشر ٤٠ بكل الف ، ولكنها بدأت تهبط بعد ذلك حتى صارت ١٨٫٧ بكل ألف سنة ١٩٣٥ وهي ٢٣٫٦ بكل ألف الآن . أما نسبة الزواج فقد كانت ٩٫٣ بكل ألف سنة ١٩٠١ ثم صارت ١٠٫٤ بكل ألف سنة ١٩٣٥ ، وهي ٩٫٤ بكل ألف هذه الأيام . فالذي تدل عليه هذه الارقام والحقائق أن العلاقات الزوجية بين الرجال والنساء في البلاد الممارسة لتحديد النسل قد صارت - أو كادت -

بدون أي نتيجة ، وأن الانحطاط الذي قد اعترى فيها نسبةَ المواليد أكبرُ من الانحطاط الذي قد اعترى فيها نسبةَ الزواج ، وأحياناً قد ترتفع فيها نسبةُ الزواج ولكن لا تزال فيها نسبة المواليد تتدلى بصفة مستمرة. ومما قد جاء الاعتراف به في احدى الوثائق الرسمية في بريطانيا: «أنه على رغم ارتفاع نسبة الزواج فان نسبة المواليد ما زالت متهورة في القرن العشرين ، بل إن هذه الفترة ما ارتفعت فيها نسبة الزواج فحسب، بل قد قلت فيها سن الزواج أيضاً»(١) .

ومن مظاهر هبوط نسبة المواليد هبوطُ المعدل العادي لعدد أفراد الاسر . فالمعدل العادي لحجم الاسرة في الغرب في تضاءل واختصار بصورة مستمرة . وما الأغلبية الساحقة فيه الآن إلا للاسر التي ليس لديها أي ولد أو إنما لديها ولد أو ولدان ، وهناك فرق كبير في هذا الشأن بين احصائياته قبل حركة تحديد النسل وبعدها . ولك أن تعرف الفرق من جهة عدد الأولاد بين الزيجات سنة ١٨٦٠ والزيجات سنة ١٩٢٥ في انكلترا بالجدول في الصفحه التالية(٢) :

وكنتيجة لهذا الفرق لا يزال المعدل العادي لعدد أفراد الاسرة في الغرب في هبوط وتدهور مستمر مع مرور الايام . لقد كان عدد الأولاد لدى كل امرأة متزوجة في السنوات بين ١٨١٠ و ١٨٧٩ هو

(١) «عدد السكان والاحصائيات القومية» (Population and Vital Statistias) للامم المتحدة ، ابريل ١٩٦١ .

(٢) تقرير اللجنة الرسمية عن عدد السكان في انكلترا سنة ١٩٤٩ ، ص٢٦ .

عدد الاولاد	الزيجات	
	سنة ١٨٦٠	سنة ١٩٢٥
لاولد	٩ ٪	١٧ ٪
ولد او ولدان	١١ ٪	٥ ٪
ثلاثه اولاد او اربعة	١٧ ٪	٢٢ ٪
خمسة اولاد او ستة	٤٧ ٪	١١ ٪
عشرةاولاد او اكثر	١٦ ٪	— ٪

٥،٨ حسب المعدل العادي ، ولكنه هبط في ما بعد حتى صار ٢،٢ سنة ١٩٢٥[١] . وهو في الأيام الحاضرة أكثر بقليل من ٢،٢ [٢].

وفي أمريكا كان عدد الاولاد لدى كل امرأة متزوجة ٤،٧ حسب المعدل العادي حتى سنة ١٩١٠ ، ثم هبط حتى صار ٢،٤ سنة ١٩٥٥ . ولقد كانت فيها نسبة النساء المتزوجات بدون ولد ١٠٪، ونسبة النساء المتزوجات مع ولد او ولدين ٢٢٪ من مجموع عدد النساء المتزوجات حتى سنة ١٩١٠ ، ولكن بدأت هذه النسبة ترتفع في ما بعدحتى صارت١٦٪ و ٤٧٪ — على الترتيب — سنة ١٩٥٥ . وعلى العكس من ذلك فقد كانت فيها نسبة النساء اللاتي لدى كل واحدة منهن سبعة أولاد أو أكثر

(١) كتاب « استعراض للظروف الاجتماعية في انكلترا » المذكور ص٢٣.

(٢) « بريطانيا » من كتب الجيب المنشورة من قبل المكتب المركزي للمعلومات بلندن سنة ١٩٦١ ص ١٢ .

٢٩٪ من مجموع النساء المتزوجات حتى سنة ١٩١٠ ، ولكن بدأت هذه النسبة تهبط في ما بعد حتى صارت ٦٪ فقط سنة ١٩٥٥[1] .

وأما إذا كان عدد السكان في البلاد الغربية قد ازداد على رغم هذا الهبوط المطرد لنسبة المواليد فيها ، فانما السبب في ذلك أن تقدم فن الطب في هذه البلاد، وأخذ سكانها بالتدابير الواسعة الجديدة للمحافظة على صحتهم قد أهبطا فيها نسبة الوفيات إلى حد كبير ، ولكن الفرق بين نسبة الوفيات ونسبة المواليد لم يبق فيها الآن إلا يسيراً جداً ، ولذا فان الناس فيها كثيراً ما يبدون مخاوفهم من أن تزيد نسبتهم الوفيات على نسبتهم للمواليد عن قريب ، مما سيكون معناه أن الذين يموتون من أفرادهم ، يكونون أكثر عدداً من الاطفال الذين يولدون في بلادهم . إن فرنسا وبلجيكا والنمسا من البلاد التي ما زال يقل فيها عدد السكان بدلا من أن يتزايد على فترات قصيرة ، أي أنها ما استطاعت خلال هذه الفترة أن تحافظ حتى على مستواها السابق . وأما عدد السكان في انكلترا فهو أيضاً يكاد يكون ثابتا ، وهذه الكارثة المخيفة كانت قد تعرضت لها أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية . وقد كان عدد الوفيات في النمسا أكثر من عدد المواليد في السنوات ١٩٣٥ و ١٩٣٨ ، وأيضاً كان عدد الوفيات في فرنسا أكثر من عدد المواليد في السنوات بين ١٩٣٥ و ١٩٣٩ ، بحيث أن عدداً عظيماً من الناس من البلاد الاخرى لو لم يهاجروا إلى فرنسا في ذلك الزمان لنقص فيها عدد السكان على وجه ملموس ، وفي الواقع كان

(١) كتاب « التخطيط العائلي والعقم وزيادة السكان » المذكور ص ٥ .

قد نقص عدد السكان فيها في سنوات ١٩٣٤/٣٦ و ١٩٣٨/٣٩.[1]

والذي يظهر من احصائيات السكان في مدن أمريكا أن السكان الموجودين إلى سنة ١٩٥٠ عجزوا عن أن ينجبوا ذرية على قدر عددهم، حتى لقد كان يقدر نظراً لما كانت عليه نسبة المواليد في تلك الايام أن هذه النسبة إذا لم ترتفع، فلا بد أن يقل عدد السكان في أمريكا بنسبة ٢٥٪ بعد جيل واحد.

ومما كان قد انتهى إليه الامر في بريطانيا أواخر سنة ١٩٤٥ — كما يقول تقرير لجنة احصائيتها لسنة ١٩٤٩ - ان لم يكن معدل عدد الاولاد لدى كل أسرة الا ١٠٦٨ فقط وذلك في طبقاتها الراقية التي لا تكسب رزقها بالمشقة الجسمانية، وكان قد مضى على عقد زواج أهلها ما بين ١٦ و٢٠ سنة . وقد كانت هذه الحالة المزرية بنفسها تدل على أن هذه الطبقات على وشك الفناء والانقراض بعد مـــدة من الزمان . ومما يقدره الخبراء بالشؤون الاجتماعية في هذا الصدد :

« أن السكان الذين لا ينجب كل زوج وزوجة منهم أكثر من ولدين أو الذين لا يبقى لكل زوج وزوجة منهم أكثر من ولدين على قيد الحياة، من المقدر لهم أن ينقرضوا آخر الامر ، اذ لا بد أن يظل عددهم يقل نسلاً بعد نسل أي بعد كل ثلاثين سنة ».

«ولعله من السهل عليك أن تدرك هذا بمثال ... إن كل ألف شخص إذا لم يكن لكل زوجين منهم أكثر من ولدين ، فإنهم سوف يبقون ٦٣١ شخصاً بعد الثلاثين سنة الاولى، و٣٨٦ شخصاً بعد ٦٠ سنة ، و٢٩

(١) الكتاب السنوي عن عدد السكان (١٩٤٨) الامم المتحدة .

شخصاً فقط بعد ١٥٠ سنة»[1]. ان الاقتصاديين الخبراء بالاحصائيات لـكي يدركوا الميول الحقيقية بين السكان لايبذلون الاهتمام بنسبة المواليد فقط ، وإنما يدرسون كذلك العوامل التي تسبب الزيادة أو النقصـان في عـــدد السكان ، وبـذلك يستنتجون النسبة الصافية لتزايدهم (Net Reproduction Rate) ، ومن ثم يقولون إن هذه النسبة إذا كانت « واحدة » فعدد السكان ثابت ، وإذا كانت « أكثر من واحدة » فهو في زيادة ، وإذا كانت « أقل من واحدة » فهو في قلة . وفي مايلي نذكر لك النسبة الصافية لزيادة أو قلة عدد السكان في بعض البلاد الغربية المهمة ، فانه من الممكن بذلك أن تتبين الوضع الحقيقي في هذه البلاد :

البلد	السنة	النسبة الصافية
انكلترا	١٩٣٣	٠٫٧٤٧
	١٩٣٧	٠٫٧٨٥
	١٩٤٠	٠٫٧٧٢
	١٩٤٩	٠٫٩٠٩
بلجيكا	١٩٣٩	٠٫٨٥٩
	١٩٤٧	١٫٠٠٢

البلد	السنة	النسبة الصافية
فرنسا	١٩٣٠	٠٫٩٣٠
	١٩٣٥	٠٫٨٧٠
	١٩٤٠	٠٫٨٢٠
	١٩٥٤	٠٫٩٤٠
نرويج	١٩٣٥	٠٫٧٤٦
	١٩٤٠	٠٫٨٥٨
	١٩٤٥	*١٫٠٧٥

(١) الدكتور فريدرك برغوثير (Dr. Frederic Bugheo - rior) في كتابه « الزواج والاسرة » (Marriage And Family) المطبوع بنيويورك ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٢٣٩ .

(*) الموسوعة البريطانية سنة ١٩٥٥ ج ١٨ ص ٢٣٤ .

ولا تسل عما قد أحدثت ولا تزال تحدث هـذه الارقام من القلق والانزعاج الشديد بين أهل الفكر والنظر في الغرب نفسه ، حتى أن كثيراً من المفكرين الذين يؤيدون حركة تحديد النسل ويدعون إليها بكل حماستهم من أهله عندما شاهدوا نتائجها الخطيرة — نتائج ما بذروه بأيديهم — أقضت عليهم المضاجع وما تمالكوا أنفسهم من الحيرة والاضطراب ودعوا هنالك ثبوراً . فقد بدأوا الآن إلى تغيير سياستهم بالنسبة لبلادهم أنفسهم على الاقل . وفي مايلي نسرد عليك رأي أحد الخبراء بالشؤون الاجتماعية في هذا الصدد :

يقول : « ان مالثوس لو كان اليوم على قيد الحياة ، لما وسعه الا الشعور بأن الانسان في الغرب قد رمى إلى أبعد من اللازم بصدد وضعه الحد لنسله ، بل الحقيقة أنه قد أثبت أن نظره قصير جداً بشأن التفكير في حفظ مستقبل حضارته » .

ويضيف قائلا : « ان عدد السكان في فرنسا وبلجيكا قد قل من وقت لآخر لأن الوفيات فيها كانت أكثر من المواليد ، ولكن البقية الباقية من الامم الصناعية المتحضرة في الغرب يواجهها أيضاً هذا الخطر . وفي أمريكا نفسها لما قارن علماء الاحصائيات بين نسبة المواليد ونسبة الوفيات في السنوات بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ ، قالوا إن خطر قلة السكان سيتحول

إلى حقيقة ثابتة بعد جيل واحد فقط »[١]. ومن وجهة النظر الاقتصادية الخالصة يقول اقتصادي شهير في الغرب : « أننا إذا كنا نرتكب حماقة المحافظة على قلة السكان ، فلنعلم أحسن العلم أن ليست قلة السكان حلاً لمشكلة البطالة في بلادنا ، كما أنه من المحال أن يرتفع بها مستوى معيشة بقية السكان . ان مؤثراتها الاقتصادية لا بد أن تكون سيئة للغاية ، اذ لا بد لسببها أن ترفع عندنا نسبة العجائز وبذلك يضطر المنتجون (Producers) أن يظلوا يشغلون المتقاعدين . وأما إذا وجدت بين المنتجين أنفسهم طبقة كبيرة مشتملة على العجائز ، فانـــه من المحال عندئذ أن تبقى في نظامنا للانتاج تلك المرونة التي لا بد منها لتحقيق مقتضيات الظروف المتبدلة والوسائل المتجددة ، فعلينا لكل ذلك — أن نستمين بكل طريق ممكن للقيام في وجه خطر قلة السكان »[٢].

ويقول مؤرخ آخر في الغرب : «ان طريقاً آخر يوضع به الحد لحياة أمة مسرفة سافلة، هو أن يُعمل على اهباط نسبتها للمواليد ، اذ من قانون الفطرة أن أية أمة إذا لبت نداء الشهوات النفسية وانقطعت إلى التشرد

---

(١) الاستاذ ليندليس بال في كتابه « المشاكل الاجتماعية » المذكور ص ٥٩٦/ ٥٩٧ .

(٢) الاستاذ كول ج.د.ح. (Cole G. D·H.) في كتابه « توجيه الرجل الذكي إلى العالم بعد الحرب » (The Intelligent Man's Guide to - The Post - War World)

والجنس ، غفلت عن إنجاب الذرية وتخليد النسل وحسبت الاطفال عرقلة في سبيل حريتها ولذاتها ورخائها الاقتصادي . وهذا السلوك المادي لقانون الفطرة يُرغِّب العاكفين على عبودية الشهوات الجنسية في استخدام الوسائل المتنوعة لمنع الحمل واسقاط الجنين ويكون من نتيجة ذلك أن عدد أفراد تلك الامة يصبح ثابتاً لا يتقدم ولا يتأخر في بدء الأمر ثم يأخذ في الانحطاط والتردي حتى يبلغ بها حيث لا تقدر على قضاء حاجاتها الاساسية اللازمة ، فلا هي تقدر أن تحتفظ بشخصيتها المستقلة ولا أن تدافع عن نفسها أعداءها من جانب الفطرة أو من جانب البشر . وهذا هو الانتحار ، وغذاؤه ذلك العقم الذي هو نتيجة فطرية للتشرد وارتكاب المنكرات الجنسية . ثم إن من نتيجة هذا وذاك يختصر الزمن المقدر لحياة تلك الامـــة ، وهذا الطريق للانتحار قد أودى بحياة كثير من البيوتات الملكية والطبقات الفنية الراقية والجماعات الانسانية من الوجهة الحيانية والعمرانية وبه قد ذهبت كثير من الامم والشعوب القوية ضحية الفناء والزوال في التاريخ الانساني »[1].

ويلفت كولين كلارك (Colin Clark) نظرنا إلى النواحي السياسية والمدنية لحركة تحديد النسل بكلماته الآتية :

«إن مؤرخ المستقبل عندما يرقب من نافذة القرون الماضية ، لابدأن يعد من أهم حوادث زمننا الجاري ذلك القرار الذي اتخذته فرنسا في أوائل القرن التاسع عشر واتخذته بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر بشأن القيام في وجـــه زيادة السكان في بـلادهم ، اذ لم يكـن الا من نتيجة

(١) سوروكون في كتابه « الثورة الجنسية في أمريكا » المذكور ص ٧٨/٧٩.

هـــذا القرار أن أصيب نفوذ الفرنسيين والانكليز وسيادتهم وسيطرتهم السياسية في كل أرجاء العالم بالشلل أولاً وبالزوال والفناء بعده »[١].

فهذا هو الاستعراض الوجيز لما قد ظهر في مختلف بلاد الدنيا من نتائج حركة تحديد النسل لما أقبلت عليها هذه البلاد واتخذتها خطة قومية وحركة اجتماعية لنفسها. وهذه النتائج ماثلة للعيون اليوم ككتاب مكشوف لا لبس فيه ولا ابهام. أما الأمم التي ذكرناها في هذا الاستعراض، فقد انتهت المدة المقدرة لاستمتاعها بلذات الحياة، فهي بعد أن قد بلغت أوج رقيها المادي، منحدرة الآن إلى الزوال والافول، وقد كلفتها الفطرة أن تقوم بمهمة افنائها والقضاء على مقوماتها بنفسها، ولكن امة جديدة إذا كانت لم تخرج من حالة البؤس والنكبة والذل والعبودية السياسية إلا حديثاً، وكانت تطمح ببصرها إلى معارج الرقي والازدهار وتتمنى لنفسها البقاء والحياة، فهل يكون دليلاً على تعقلها أن لاتبدأ سعيها للرقي والازدهار إلا من الحماقات التي انما ارتكبتها الامم الاخرى بعد أن بلغت أوج الكمال وذروة الرقي والازدهار ؟

---

(١) مقالة « الاسر الصغيرة » (The Smoll Families) في جريدة « تايمز » اليومية، عددها الصادر في ١٥ مارس ١٩٥٩.

رد الفعل

إن هذه الأوضاع المتدهورة قد بعثت القلق والانزعاج الشديد بين عامة أرباب الفكر والنظر البعيد في جميع الامم الغربية ، فالمفكرون من أبناء هذه الامم يبدون عليها اليوم مالا يوصف من السخط والتذمر ، وأهل السياسة والبصيرة في الشؤون القومية منهم يبذلون مساعيهم لتغييرها ، وفي كل قطر من أقطارهم قد انبعثت ولا تزال تنبعث أفكار جديدة بشأن مشكلة السكان ، كما قد قامت فيها ولا تزال حركات معادية لحركة تحديد النسل ، مما قد بدأ يغير السلوك الاجتماعي شيئاً فشيئاً بالنسبة للسابق . وفي ما يلي نذكر على وجه الايجاز استعراضاً دقيقاً لما قد ظهر حتى الآن من رد الفعل على حركة تحديد النسل ونتائجها الوخيمة في مختلف بلاد الغرب .

انكلترا :

في أيام الحرب العالمية الاولى ١٩١٦ الّفت في انكلترا لجنة خاصة لاستعراض نسبة الولادة القومية (National Birth Rate) ، وكانت هذه اللجنة تتألف من ٣٣ عضواً كلهم من رجال الطب والاقتصاديات والعلوم التجريبية والخبراء بفن الاحصائية والشؤون التعليمية والعلوم

الدينية، ومن قبل الحكومة اشترك فيها الدكتور استيفنسون (Stevenson) المسؤول عن إجراء الاحصائيات ، والسير آرثر نيوز هوم (Aurther Newshome) الرئيس الأعلى للشؤون الطبية ، فهذه اللجنة وضعت عدة تقارير جاء في واحد منها :

« على بريطانيا أن تراقب بعناية من الحذر والاضطراب النقص المتزايد في هبوط نسبة الولادة القومية وعليها لمواجهة هذا النقص وتغييره بالزيادة إلى حد الامكان أن تتخذ كل ما يأتي في دائرة قدرتها من التدابير الفعالة».

ويقول السير جورج نيومين، الرئيس الأعلى للشؤون الطبية في مكتب وزارة الصحة معرباً عن رأيه في هبوط نسبة الولادة القومية في انكلترا:

« إننا إذا لم نقم في وجه هذا الخطر —هبوط نسبة الولادة القومية— ونعمل على تداركه ، فلا بد أن تصير بريطانيا في عداد القوى من الدرجة الرابعة » .

وقال السير وليم بيفردج (Beveridge)، مدير مدرسة الاقتصاديات في لندن ، في إحدى خطبه التي أذاعها من إذاعة لندن :

« إن النسبة بين عدد الوفيات والمواليد إذا بقيت تتدلى بالسرعة الجارية اليوم فلا بد أن يبدأ عدد السكان في انكلترا يتناقص في عشر السنوات الآتية ولا بد أن يتناقص بمليوني نسمة على الأقل إلى الثلاثين سنة الآتية » .

وقد كان هذا هو رأي الاستاذ كارسا ندرس من جامعة ليفربول .

وللقيام في وجه هذا الخطر المخيف أقيمت في انكلترا حركة ضد حركة تحديد النسل ، وأسست جمعية باسم «رابطة الحياة القومية» (League of National Life) اشترك فيها عدد عظيم من الأفراد الممتازين رجالا ونساء.

وأثناء الحرب العالمية الثانية كذلك أحس المفكرون في بريطانيا أشد ما يكون من القلق والاضطراب بمضرات تناقص عدد السكان . وفي سنة ١٩٤٣ أبدى المستر هربريت مارسين ، وزير داخلية بريطانيا ، رأيه في هذه المشكلة القومية بكلماته التالية :

« إن بريطانيا إذا كانت تحب المحافظة على مستواها في الوقت الحاضر والتقدم في سبيل الرقي والازدهار في المستقبل ، فمن اللازم أن يتزايد فيها عدد أفراد كل اسرة بنسبة ٢٥٪ على الأقل » .

وقد كان الشعور العام لدى أرباب الفكر والبصيرة في بريطانيا في تلك الايام أن انكلترا إذا كانت تحب لنفسها البقاء والتقدم ، فمن واجبها أن تتخذ سياسة جديدة فعالة لمعالجة مشكلة قلة السكان، وتقاوم بكل شدة وصرامة هبوط نسبة المواليد . ولهذا الغرض ألفت فيها سنة ١٩٤٤ لجنة من قبل الحكومة كانت وظيفتها الوحيدة أن تدرس المشكلة من جملة نواحيها المختلفة ثم تقترح التدابير والاجراءات اللازم اتخاذها للتأثير في الرأي العام للمحافظة على المصلحة القومية في المستقبل . فهذه اللجنة قدمت تقريرها في شهر مارس ١٩٤٤ وكشفت فيه القناع عن وجه الحقيقة التالية :

« إن السبب الكبير — بل السبب الوحيد إلى حد كبير — في تضاؤل

حجم الاسرة في بريطانيا هو المحاولات المبذولة قصداً واختياراً للاستبقاء على تضاؤل حجم الاسرة ووضع الحد لعدد أفرادها » .

ومما قد صرحت به اللجنة في هذا التقرير بكل تفصيل: أن الظروف الاقتصادية والاجتماعية والمدنية في القرنين التاسع عشر والعشرين جعلت الاسرة الكبيرة عبئاً ثقيلاً ، وإن إمكان استخدام جهود الأطفال تحدّد بناء على قانون العمل (Factory Act) والقوانين التعليمية ، كما إن هناك عوامل أخرى قد اتحدت مع هذه الأسباب وجعلت العدد الأكبر للأولاد في البيوت سبباً للخسارة المالية ، حتى رغب الناس في تحديد النسل ورأوا فيه وسيلة ناجعة وسياسة نافعة للاستبقاء على تضاؤل حجم الاسرة وقلة عدد أفرادها . وقد تقدمت اللجنة بعد هذا بعدة توصيات تفصيلية كان الغرض المقصود من ورائها أن لا يكون الاطفال في الاسرة عبئاً اقتصادياً ولا يكون إنجاب الانسان عدداً كبيراً من الأطفال عبارة عن تعريضه نفسه لأزمة مالية خطيرة. ومما قد وصّت به اللجنة في هذا الشأن :

١ ـ أن تمنح كل أسرة مكافأة مالية على قدر ما يكون لديها من الاطفال .

٢ ـ وأن يدخل التعديل على قانون ضريبة الدخل بحيث تخف وطأته على المتزوجين الذين لديهم عدة أطفال وتشتد على غير المتزوجين .

٣ ـ وأن تبنى على نطاق واسع بيوت تشتمل على أكثر من ثلاث حجرات للنوم .

٤ ـ وأن يجري من مشاريع المحافظة على الصحة والاعمال الخيرية ما يساعد على رفاه الاسرة الكبيرة ورخائها الاقتصادي .

٥ ـ وأن تؤلف جمعيات تقوم بالتحقيقات في مشكلة قلة السكان وتعلم الناس كيف يتخذون الوسائل للتغلب على هذه المشكلة .

وبهذا الشأن تقدمت اللجنة أكثر من اللازم حتى وصّت باتخاذ وسائل شنيعة كوسائل التوليد الصناعية(Artificial Insémination) للتغلب على مشكلة قلة السكان .

وبعد التفكير في توصيات اللجنة هذه أُدخلت عدة تعديلات مهمة في قوانين انكلترا وسياستها للحياة الاجتماعية والعائلية . فالآن يمنح فيها الاطفال مكافآت مالية وتمنح النساء إجازة أيام ولادة الطفل مع مكافأة مالية خاصة ، وتوفر فيها فرص التعليم والعلاج والسكن للمتزوجين ولاسيما الذين لديهم عدة أطفال حتى لا يتردد الناس في إنجاب الأطفال بكثرة . وقد بدأت هذه السياسة الجديدة للحياة الاجتماعية والعائلية تؤتي ثمارها ، فما قد جاء بيانه في الاحصائية الاخيرة في بريطانيا أن نسبة المواليد وتزايد السكان في تقدم وارتفاع شيئاً فشيئاً . لقد كانت نسبة المواليد في السنوات بين ١٩٣١ و ١٩٤١ هي ١٤،٨ بكل ألف وصارت ١٧،٤ بكل ألف في السنوات بين ١٩٤١ و ١٩٥١ ، كما أن معدل الزيادة السنوية لعدد السكان كان ١٠٧،٠٠٠ نسمة في السنوات بين ١٩٣١ و ١٩٤١ ، وصار ٢٥٠،٠٠٠ نسمة السنوات بين ١٩٥١ و ١٩٦٠ . وقد قيل في إعلان الاحصائية الاخيرة أن النسبة التي قد ازداد بها عدد السكان في انكلترا خلال عشر السنوات الماضية ، أرفع من كل

نسبة ازدياد عددهم خلال النصف الماضي من القرن الجاري [1].

فرنسا :

أما فرنسا ، ففيها أيضاً قـــد تنبهت الحكومة لخطر انخفاض نسبة المواليد ، وشعرت بأن معنى هذا الانخفاض هلاك الشعب الفرنسي ، ولذا فقد بدأ أهل الفكر والبصيرة من أهاليها يقولون بأن عددهم إذا اطرد في قلة هكذا ، فإنه لابد أن يُدخِل شعبَهم بأجمعه في عالم الفناء والزوال ويجعله في عـداد الامم البائدة يوماً من الأيام . والذي تدل عليه تقارير الاحصائيات في فرنسا ان عدد سكانها كان سنة ١٩٢١ أقل منه سنة ١٩١١ بمليونين ومائة ألف نسمة ، وهو وإن كان قد ازداد بمليون ونصف مليون نسمة سنة ١٩٢٦ م ، ولكنه في الغالب إنما كان نتيجة لدخول عدد عظيم من الاجانب في فرنسا . والجدير بالذكر أن عـدد الأجانب في فرنسا في ازدياد وتضخم حتى أنهم ليؤلفون اليوم ٧و٢٪ من سكان فرنسا كلها. وهذا مايشكل ـ كما لا يخفى ـ خطراً محدقاً، وطامة كبرى للشعب الفرنسي، لأن كل شعب إذا كان عدد الاجانب في بلاده يتزايد وكان عدد أفراده الاصليين يتناقص في هـذا الزمان ، زمان القوميات النسلية ، فمعنى ذلك أن الحياة القومية لذلك الشعب قائمة على شفا جرف هار . وأخيراً قـد قامت في فرنسا حركة قوية باسم « الاتحاد القومي لزيادة السكان » لمقاومة هذا الخطر ، وقد أصدرت فيها الحكومة قانوناً يحرم تعليم منع الحمل ونشر المعلومات عن طرقه ووسائله خطابةً أو كتابة أو إشارة بالسر أو العلانية.

---

(١) مجلة الاخبار البريطانية : ٢٩ يوليو (تموز) ١٩٦٠ .

حتى إن الاطباء أنفسهم ملزمون بموجب هذا القانون أن لا يقوموا سراً أو علانية بشيء قد ينتج عنه منع الحمل . ولحمل السكان على كثرة التناسل قد وضعت فيها أكثر من عشرة قوانين بموجبها تمنح الاسر ذات العدد الكبير من الاطفال مكافآت مالية وتعفيها من بعض الضرائب،وتوفر لها تسهيلات متعددة في الرواتب والأجر والمعايش ، وفي أجور السفر في القطار ، بل هي تمنحها الجوائز والوسائم ، وعلى العكس من ذلك تفرض فيها الضرائب الاضافية على الذين لا يتزوجون أو يتزوجون ولكن لا ينجبون ذرية ، كأن فرنسا قد أفاقت اليوم من سباتها العميق وتود لو تكفرعن خطيئتها التي مازالت ترتكبها حتى الأمس بانحرافها عن قوانين الفطرة . وفعلاً قدبدأت مؤثرات هذه السياسة الجديدة تترتب على نسبتها للمواليد ، كما تدل على ذلك الارقام الآتية :

السنوات	نسبة المواليد بكل ألف
١٩٣٦ - ١٩٤٠	١٤,٥
١٩٤١ - ١٩٤٥	١٥,١
١٩٤٦	٢٠,٦
١٩٤٧	٢١,٠
١٩٥١	١٨,٢

ومن نتيجة كل ذلك أن قد ازداد عدد سكانها بنسبة ٢٦٪ في السنوات بين ١٩٣٨ و ١٩٥٤ .

ألمانيا :

وفي ألمانيا لما استولى الحزب النازي على نظام الحكم ، رأى في الهبوط المطرد لنسبة المواليد أكبر خطر محدق بالشعب الألماني ، ولذا بذل جهوده لمقاومته وتدارك نتائجه . قالت إحدى الجرائد النازية :

« إن نسبة المواليد في وطننا إذا ظلت تهبط هكذا ، فعسى أن يأتي علينا يوم لا يكون فيه الشعب الالماني كله إلا شعباً عقيماً وينتهي فيه انبعاث الاجيال الجديدة للاضطلاع بمهات الجيل الحاضر » .

ولإصلاح هذا الوضع المخيف أصدرت الحكومة النازية قانوناً يمنع تعليم منع الحمل وترويج طرقه ، ومع ذلك بدأت تخرج النساء من المعامل والمكاتب وتمنح الشبان مبالغ عظيمة باسم « دَين الزواج » (Marriage Loan) لترغيبهم في الزواج وتفرض الضرائب على غير المتزوجين والمتزوجين بدون ذرية ، وتعفي من الضرائب ـ جزئياً أو كلياً ـ الافراد المنجبين لعدد كبير من الاطفال . فهي سنة ١٩٣٤ منحت عشرة ملايين جنيه كديون الزواج وقد استفاد منها نحو ٦٠٠ ألف رجل وامرأة ، كما أنها قررت بموجب قانون أصدرته سنة ١٩٣٥ أن تخفف من ضريبة الدخل ١٥٪ عمن ينجب طفلاً ، و٣٥٪ عمن ينجب طفلين و ٥٥٪ عمن ينجب ثلاثة أطفال أو أكثر . وبهذه التدابير بدأت نسبة المواليد في ألمانيا النازية ترتفع من فورها . فبينما كانت ١٦،٦٪ في السنوات بين ١٩٣١ و١٩٣٥ ، صارت ١٩،٦٪ في السنوات بين ١٩٣٦ و ١٩٤٠ .

ايطاليا :

وإن حكومة موسوليني بذلت جل اهتمامها لزيادة السكان برفع نسبة المواليد في بلادها بعد سنة ١٩٣٣ . فهي لهـذا الغرض نهت عن ترويج منع الحمل وأصدرت قانوناً يحظر نشر الكتب والرسائل والمقالات عن معلوماته ووسائله ، وهي لترغيب النـاس في الزواج والتناسل اتخذت من الخطوات مثل ماقد ذكرنا آنفاً تحت عنوان فرنسا وألمانيا . ومما يصرح به قانون إيطاليا أن كل فعل أو خطبة أو مقالة إذا كانت ترغب الناس في منع الحمل ، تعد جريمة من اختصاص الشرطة أن تتدخل في شأنها ويجوز الحكم على من يقترفها بالعقوبة سنة أو بغرامة مالية أو بالعقوبة و الغرامة المالية معاً ، ويعتبر هذا مطبقاً حتى على الأطباء في الظروف العادية .

السويـد :

مما قاله أحد وزراء السويد سابقاً ـ وهو تراني جر (Tryggar) ـ أثناء إحدى خطبه في المجلس النيابي قبل مدة :

إن الشعب السويدي إذا كان لا يريد لنفسه الانتحار ، فعليه أن يتخذ التدابير المؤثرة لمقاومة انخفاض نسبة المواليد في وطنه . لقد أصبح انخفاض نسبة المواليد خطيراً للغاية ينذر بالويل منذ سنة ١٩٢١ اذ توقف منذ تلك السنة تزايد السكان » . وكان من تأثير هـــذا التنبيه أن الحكومة السويدية ألفت في شهر مايو ١٩٣٥ لجنة خاصة وضعت بتقاريرها الضخمة سياسة جديدة أمام الحكومة . ومما قد اقترحته هذه اللجنة ضرورة العمل على تضخيم الاسرة بحيث يكون ثلاثة أو أربعة أقل عدد

للاطفال لدى كل اسرة في السويد ، وقد اتخذت الحكومة بعد تقارير اللجنة ما يأتي من الاجراءات القانونية :

١ ـ الرقابة على بيع الادوية المانعة للحمل من قبل الجنة الصحة القومية .

٢ ـ تخفيف الضرائب عن الوالدين في ما إذا كان لهما أطفال لم يبلغوا ١٨ سنة .

٣ ـ إنشاء الدور الرخيصة الأجرة .

٤ ـ الخصم السنوي التدريجي لمن كان له ثلاثة أطفال أو أكثر .

٥ ـ المحافظة على الصحة ولا سيما إعداد الادوية المجانية لصحة الاطفال.(١)

وهناك أثر ظاهر يتبين لهذه السياسة الجديدة على نسبة المواليد في السويد كما ستعرف ذلك بالجدول الآتي :

السنوات	نسبة المواليد بكل ألف
١٩٣١ ـ ٣٥	١ و ١٤
١٩٣٦ ـ ٤٠	٧ و ١٨
١٩٤١ ـ ٤٤	٧ و ١٩

وبعد الحرب العالمية الثانية هبطت نسبة المواليد في السويد مرة أخرى. والآن وقد تعرفتَ على حركة تحديد النسل وعرفت حقيقتها والاسباب التي دعت إلى بدئها ثم إلى ترويجها وترقيتها حتى ظهر منها ما ظهر من النتائج في جميع البلاد التي وضعتها موضع التطبيق والتجربة ، يحسن بنا أن نحيلك على موقف الإسلام من هذه الحركة فإنه عسى أن يرسخ في ذهنك ـ بعد كل هذا ـ ويتضح لك ما فيه من المصالح بأكثر سهولة وأوضح اسلوب.

---

(١) والعجب كل العجب أن السويد هو البلد الذي قد أبرم الاتفاقية مع حكومة باكستان ـ قبل عدة أشهر فقط ـ لمساعدتها على التقليل من عدد سكان باكستان .

مبادئ الإسلام

إن الاستعراض التفصيلي الذي سقناه في الصفحات الماضية لأسباب رقي حركة تحديد النسل ونتائجها في الغرب ، إذا دققنا فيه النظر ، قفزت إلينا حقيقتان مهمتان :

أولاهما : أن ليس السبب في نشوء أمنية تحديد النسل ورواج حركته بين أهل الغرب ، أن كانت فطرتهم هي التي تقضي عليهم أن يبتعدوا عن التوالد والتناسل ، وإنما سببه الرئيسي في حقيقة الأمر أن نظام المدنية والحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية الذي قد لاقى الرواج بينهم منذ قرنين ، هو الذي قد خلق عندهم من الظروف والملابسات ما قد اضطرهم إلى الاحتراز من التوالد والتناسل ، والنفرة عن نتائجه وتبعاته . ولو أن هذه الظروف والملابسات لم توجد عندهم ، لما عرفوا تحديد النسل وبقوا على جهلهم بوسائله كما كانوا عليه في أواسط القرن التاسع عشر ، لأن فطرتهم التي كانت تقتضيهم في ذلك الزمان الحنين إلى الذرية والرغبة في التوالد والتناسل ، توجد فيهم حتى اليوم دون أن يطرأ عليها تغير خلال هذه المدة .

وأخراهما : أن الأخطار والمشاكل التي تواجهها الأمم الغربية في أيامها

الحاضرة لتحديدها النسل،قد أثبتت بدون ما ريب أن التغيير الذي تريد حركة تحديد النسل أن تدخله على قوانين الفطرة ، في غاية من المضرة بالإنسان والإنسانية وأنه لا يجوز لذلك أن يدخل على قوانين الفطرة نوع من التغيير والتبديل ، وإنما الذي يستحق التغيير والتبديل هو ذلك النظام للمدنية والحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية الذي قد تبناه أهل الغرب والذي يحمل الإنسان بل يجبره إجباراً على مخالفة قوانين الفطرة ويجره إلى الدمار والهلاك جراً عنيفاً .

المبادىء الأساسية :

إن هذين الدرسين اللذين قد تلقيناهما من التجربة الغربية ، يقربانا إلى مبادىء الاسلام ويطويان ما بيننا وبينها من التباعد ، لأن الاسلام دين الفطرة فلا تقوم كل الطرق والمناهج التي قررها لسلوك الإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية ، إلا على القاعدة الشاملة القائلة بأن على الإنسان أن يتبع في حياته قوانين الفطرة ، عين القوانين التي يسير عليها نظام السماوات والأرض بأجمعه ولا يتبع نظاماً يجبره على مخالفتها. والذي نعلم من بيان القرآن الحكيم أن الله سبحانه وتعالى ما خلق كل شيء في السماوات والأرض إلا على فطرة الاهتداء إلى الطريق المستقيم الذي يستطيع بسلوكه أن يقوم بما قد وسد إليه من العمل في نظام الوجود أحسن قيام وأكمله. يقول سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه الصلاة السلام: (رَبُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدى)(١) .

---

(١) طه : ٥٠

إن كل شيء في السماوات والأرض متبع للهداية المذكورة في هذه الآية بكل إذعان وخضوع وتذلل لأنه غير قادر على أن يحيد ولو قيد شعرة عن الطريق المعين من جانب الله سبحانه وتعالى لسلوكه، إلا الإنسان، فإن الله تعالى بنفسه قد أعطاه القدرة على أن يحيد عن ذلك الطريق، ويأبى سلوكه ويخترع من دونه طرقاً أخرى باستخدام عقله وذكائه على وجه خاطيء ويسلكها ببذل سعيه، ولكن من الحقيقة — كذلك — أن كل طريق يخترعه الإنسان بعقله وذكائه ويسلكه إتباعاً لهوى نفسه بعد تنكبه عن صراط الله المستقيم، هو طريق خاطيء ومن الضلال اتباعه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ).

ومهما كان الإنسان يرى هذا الضلال نافعاً لنفسه بظاهر عينه، فالحق أنه عندما يترك طريق الله ويتجاوز عما قد وضع من الحدود لحياته، فإنما هو يظلم نفسه لأن سلوكه الخاطيء لا بد أن يثبت آخر الأمر مضراً لنفسه وموصلاً إلى موارد الهلاك:(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) . ومما يصرح به القرآن الكريم أن محاولة الإنسان لتغيير خلق الله ومخالفة قوانين الفطرة، ما هي في حقيقة أمرها إلا فعلة شيطانية لا يرشده إليها إلا الشيطان نفسه:(وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ). والشيطان هو عدو الإنسان من الأزل إلى الأبد:(وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ).

فالقاعدة الكلية التي قد وضع عليها الاسلام نظامه للمدنية والحضارة والحياة الاجتماعية والاقتصادية، هي أن من واجب الإنسان ـ من حيث

هو فرد ومن حيث هو عضو في الجماعة الإنسانية ـ أن لا يحقق مقتضى من مقتضيات فطرته إلا وفق قوانين الفطرة تماماً،ولا يستمين بكل ما أعطاه الله من المواهب والقوى من جسدية وفكرية إلا وفقاً لذلك الطريق المستقيم الذي هداه الله إليه بنفسه ، فليس له أن يعطل قوة من قواه ولا أن ينحرف في استخدامها عن هدى الله ولا أن يسلس قياده للشيطان بحثاً عن سعادته وفلاحه في الطرق المخالفة لقوانين الفطرة .

مدنية الاسلام وتحديد النسل :

وإنك إذا نظرت في تعاليم الاسلام واضعاً نصب عينيك هذه القاعدة الكلية ، عرفت أن نظام الاسلام للمدنية والحياة الاجتماعية قد استأصل كل تلك الدواعي والأسباب التي ترغم الانسان على أن يعرض عن تحقيق هذا المقتضى المهم ـ التوالد والتناسل ـ من مقتضيات فطرته . وقد عرفت أن الإنسان ، من حيث هو إنسان ، لا تدعوه أي حاجة من حاجات نفسه ولا أي غريزة من غرائز فطرته إلى تحديد نسله، وإنما نظام المدنية من طراز مخصوص هو الذي عندما يخلق ظروفاً مخصوصة للجماعة الإنسانية ، يجد فيه الإنسان نفسه مضطراً إلى أن يقطع دابره أو يضع الحد لنسله ابتغاء الرفاه المادي والرخاء الاقتصادي ولذاته . ولك أن تستنتج من هذا أن نظاماً للمدنية إذا كان قائماً على طراز يختلف عن ذلك الطراز المخصوص ولم تتولد فيه الظروف المخصوصة التي ذكرناها ، فانه من المحال البتة أن يوجد فيه سبب أو داعية لتحريض الانسان وترغيبه

في تغيير خلق الله والتجاوز عن حدوده والانحراف عن مقتضيات قوانين الفطرة .

والاسلام بنظامه للحياة الاقتصادية قد استأصل شأفة العقلية الرأسمالية، فقد حرم الربا والميسر والقمار ونهى عن الاحتكار والاستئثار الشخصي وجمع المال، وأجرى في المجتمع طرق الزكاة والإرث. فأحكامه هذه تستأصل كثيراً من المفاسد والمنكرات التي قد حولت الحياة الاقتصادية في الغرب إلى عذاب أليم لكل شخص سوى الرأسمالي .

كما أن الاسلام بنظامه للحياة الاجتماعية قد أعطى المرأة حقوق الإرث وجعل لها حقاً معلوماً في ما يكسبه الرجل وأمر أن تكون دائرة عملها مستقلة عن دائرة عمل الرجل على حسب ما تقتضيه فطرتها وفطرة الرجل ، ونهى بقانونه للحجاب عن الاختلاط الحر بين الرجال، والنساء، فهو هكذا قد أزال عن حياة الانسان الاقتصادية والاجتماعية كثيراً من المفاسد والرذائل الخلقية التي بها تستمد المرأة أو تضطر إلى الانحراف عن واجبها الفطري ، إنجاب الذرية وتخليد النسل .

كما أن الاسلام بتعاليمه الخلقية قد دعا الإنسان بل حرضه تحريضاً على أن لا يحيا في هذه الدنيا إلا حياة الشرف والفضيلة والبساطة والتقوى، وهو لذلك قد حرم الزنا والخمر وأوصد الطرق المؤدية إلى كثير من مشاغل اللهو والطرب والمجون والاستهتار التي تجعل الإنسان من المبذرين إخوان الشياطين ، وأمر بالاقتصاد في الملبس والمسكن وأسباب الزينة والجمال ، وقضى على ذلك الانحلال الخلقي والاسترسال الممقوت وراء

الأهواء واللذات النفسية ، الذي هو من أهم الأسباب التي لأجلها قد صادفت حركة تحديد النسل ما صادفت من النجاح والانتشار الواسع بين أهل الغرب. وفوق كل هذا فقد دعا الاسلام إلى التكافل والتضامن وصلة الأرحام وإعانة الجيران والإنفاق على الفقراء والمساكين والعجزة، ونهى عن البخل والأثرة والأنانية .فكل تعاليم الاسلام وأحكامه هذه تنشىء في الإنسان على انفراده ، وفي المجتمع بصفته الجماعية، وسطاً خلقياً لا تنشأ فيه دواعي تحديد النسل وأسبابه أبداً .

وأهم من ذلك أن الاسلام قد أمر الإنسان أن لا يكون عبداً إلا لله ولا يعتقد إلا بألوهيته ولا يتوكل إلا على عونه ولا يرى في غيره رازقاً لنفسه ولكل ذي روح في السماوات والأرض . وهذا ما يحول دون أن تنشأ في الإنسان تلك العقلية التي تجعل منه حيواناً نهماً لا يؤمن إلا بوسائله ولا يتوكل إلا على جهوده .

وخلاصة القول: إن قوانين الاسلام للحياة الاجتماعية والاقتصادية مع تعاليمه الخلقية وتربيته الروحانية قد محت كل سبب أو داعية من تلك الأسباب والدواعي التي لأجلها نشأت ثم تقدمت وانتشرت حركة تحديد النسل في المدنية الغربية . فالإنسان إذا كان مؤمناً بالإسلام مصدقاً لتعاليمه وقوانينه من الوجهة الفكرية والعملية ، فإنه من المحال أن تنشأ في نفسه رغبة في تحديد النسل أو تعرض له في حياته ظروف ترغمه على الانحراف عن طريق الفطرة المستقيم .

فتوى الاسلام في تحديد النسل :

وحتى الآن ما تكلمنا على مسألة تحديد النسل إلا من الوجهة السلبية، وتعال لنرى الآن ماهي فتوى الاسلام في هذه المسألة من الوجهة الإيجابية؟

إن القرآن قد جاء في أحد مواضعه كقاعدة كلية أن ليس الإقدام على تغيير خلق الله إلا عمل من أعمال الشيطان :(ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) ، والمراد بتغيير خلق الله في هذه الآية أن يستعمل شيء لغير الغرض الذي خلقه الله لأجله ، أو أن يستعمل على وجه يضيع به الغرض المقصود من خلقه . فعلينا أن ننظر الآن — تحت هذه القاعدة الكلية — ما هو خلق الله ـ أي الغرض الفطري ـ في العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ؟ وهل أن تحديد النسل يستلزم التغيير لخلق الله أم لا يستلزم ؟ إن القرآن بنفسه يرشدنا إلى الجواب الشافي على هذا السؤال ، إذ يعرض غرضين ويقول إنهما المقصودان من العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة . أما الأول فقد جاء بيانه في قوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم) وأما الآخر فيتضمنه قوله تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) .

فالأولى من هاتين الآيتين تبين حقيقة حياتية (Biological Fact) بالنسبة للعلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة . فالرجل من الوجهة الحياتية بمثابة « الحارث » ، والمرأة بمثابة « الحرث » ، والغرض الفطري الرئيسي من

العلاقة بينهما هو الاستبقاء على النوع البشري . وفي هذا الغرض يشترك مع الإنسان الحيوان والنبات كذلك[1] .

(١) من المضحك المبكي أن كاتباً يتسم بالاسلام في باكستان استدل بهذه الآية نفسها على مشروعية تحديد النسل بل وجوبه . ومما قال في هذا الصدد أن الحارث لايتعلق بحرثه إلا لغرض الزرع ، فالوطن إذا كان بحاجة إلى الزرع فعلى الحارث أن يأتي حرثه . وأما إذا لم تكن به حاجة إلى الحرث فما للحارث حق في إتيان حرثه ، بل عليه أي على الحارث ـ فوق هذا ـ أن لا يأتي حرثه إلا على قدر حاجة الوطن إلى الزرع .

فاللازم بموجب هذا التفسير الغريب لآيات القرآن أن لايجوز الاتصال الجنسي بين زوجين عقيمين أصلاً ، وأن يحرم حتى بين زوجين غير عقيمين بعد وقوع الحمل مالم يشعرا بحاجة إلى طفل آخر مرة أخرى. بل الذي يتحتم بموجب هذا التفسير أن تدخل العلاقة الزوجية تحت رقابة الدولة وإشرافها ، فاذا أعلنت الدولة أنها غيرمحتاجة إلى الاطفال ، فعلى الرجال من سكانها جيماً أن لايقربوا زوجاتهم ، وإذا أعلنت أنها بحاجة إلى الأطفال ، فعليهم أن يجددوا الرابطة بينهم وبين زوجاتهم من فورهم . ثم إنه من الواجب بحكم هذا التفسير أن ترفع التقارير إلى الحكومة : كم من النساء قد حملن في حدود الدولة ؟ وعلى الحكومة ، بدورها، أن تدق ساعة الخطر إذا مارأت أن النساء في حدود الدولة قد حملن على قدر حاجتها إلى الأطفال ، ويحرم على الرجال عند سماعهم إعلان الحكومة دفعة واحدة أن يقربوا نساءهم .

إن هذا هو التخطيط الشامل « لنظام الربوبية » الذي لم يخطر مثله حتى الآن ولا على قلوب الشيوعيين . والعجب كل العجب أن ليس مصدره ـ كما يدعي الكاتب المذكور ـ إلا القرآن، مع أننا ولو سلمنا أن تشبيه العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة « بالحارث والحرث » تشبيه كامل ، فان أي شخص إذا كانت له مسكة من العقل والفهم ، لا يمكن أن يمر بخلده انه من الحرام على الحارث أن يأتي حرثه بعد إلقائه البذرة فيه .

والآية الثانية تبين للعلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة غرضاً آخر هو الاستبقاء على النوع البشري وإقامة الحياة المدنية التي لا يمكن أن يرتفع بنيانها إلا بعشرة الرجال والنساء معاً كالأزواج والزوجات . ولما كان الغرض خاصاً بالإنسان وحده ، لذا فان الخالق تبارك اسمه قد وضع في تكوين الإنسان من الدواعي إلى تحقيق هـذا الغرض مالم يضعه في تكوين غيره من الحيوانات أو النباتات .

بيان خلق الله :

إن الله سبحانه وتعالى لكي يدبر نظام هذا الكون ويدير معمله ، قد تولى فيه الاهتمام بأمرين هما الغذاء والتوالد . فالمقصود من الغذاء أن تبقى الأنواع الموجودة في هذا الكون حية قائمة بتسيير نظامه إلى مـدة معلومة ، ولهذا قد هيأ أسباب الغذاء الوافرة ، وأودع الأجساد النامية أهلية لجذب الغذاء وهضمه حتى يلتحم بها ويصير جزءاً من أجزائها وأنشأها على رغبة فطرية في طلب الغذاء . ولو لم تكن في الأجساد النامية ـ من نباتات وحيوانات وأناس ـ هذه الرغبة الفطرية في طلب الغذاء ، لهلكت جماء ولما بقيت في معمل الكون حياة ولا حركة ولا نضرة . إلا أن لبقاء الأنواع وحياتها في نظرة الفطرة أهمية ليست لبقاء الأفراد وحياتهم ، لأن الأفراد ليس لحياتهم إلا مدة يسيرة مع أن بقاء الكون وسيره باطراد يستلزم أن يولد أفراد جدد قبل أن يموت الأفراد الاولون ليرثوهم ويحلوا محلهم . ولتحقيق هذه الضرورة الجذرية قد اهتمت الفطرة بنظام التوليد . فما التقسيم بين الأنواع باعتبار الذكر والانثى وجعل تكوين

الذكر مختلفاً عن تكوين الأنثى ، ووضع الميلان في كل منها إلى الآخر ، ووضع عاطفة قوية بينهما للاتصال الجنسي إلا لأن يلدا قبل موتهما أفراداً جدداً للقيام بمهمة تسيير نظام الكون . ولو لم يكن ثمة هـذا الغرض ، لما كانت ثمة حاجة إلى خلق الذكر والانثى أو الرجل والمرأة كجنسين مختلفـين .

ثم انظر نظرة أخرى ، إن الانواع الكثيرة الأولاد ما خلقت فيها الفطرةُ عاطفةً قويةً لحب الاولاد ورعايتهم وتربيتهم ، لأن هذه الانواع إنما تبقى حية بمجرد كثرة التناسل ، وأما الانواع القليلة الاولاد فقد خلقت فيها الفطرة عاطفة قوية لحب الأولاد والسهر على رعايتهم والصبر في تربيتهم إلى مدة غـــير يسيرة حتى يستقلوا بأمرهم ويحفظوا أنفسهم بأنفسهم . وفي هذا الباب نجد أن طفل الإنسان أضعف من طفل أي نوع آخر ، وهو لهذا أحوج من غيره إلى رعاية أبويه وعطفهما لـــمدة طويلة . ومن جانب آخر لا تكون نزعـة الشهوة الجنسية في الأنواع الحيوانيـة إلا وليدة فصول خاصة من السنة أومحدودة تحت المطالب الجبلـيّة ، إلا الإنسان ، فليست هذه النزعة فيه وليدة فصل خاص من فصول السنة ولا محدودة بحد من حدود الجبلة . ولهذا فإن الرجل والمرأة في النوع البشري مجبولان على أن تكون العلاقة الزوجية بينهما دائمة متصلة . وهذان الأمران هما اللذان يجعلان من الإنسان مدنيّ الطبع ، ومن هنا يقوم أساس البيت ، ومن البيت تتفرع القبائل والشعوب والأمم ، وأخيراً يقوم على أساسه بناء المدنية الإنسانية الشاملة .

وانظر بعد هذا في تركيب جسد الانسان . . . . انه لما يدل عليه علم الاحياء أن المصلحة النوعية قد أوثرت على المصلحة الذاتية في تركيب جسد الانسان . وأن كل ماقد أعطي الانسان ، هو لنوعه أكثر منه لذاته ، وأن الغدد التناسلية (Sexual Glands) تقوم بأكبر وأهم خدمة في جسد الانسان ، فهي من جانب تمد فيه ماء الحياة (Hormon) ، ذلك الماء الذي ينشيء فيه الحسن والجمال والبهاء والرواء والنضارة والطراوة والذكاء والحركة والقوة والنشاط ، ومن جهة أخرى تنشيء فيه قوة التوليد والتناسل ، تلك القوة التي تجبر الرجل والمرأة على التقارب الملامسة الزوجية. وان السن التي يكون فيها الانسان أوفر همة واستعداداً للقيام بالخدمة النوعية ، تكون هي بعينها سناً لشبابه وجماله ونشاطه ، وأما السن التي تفتر فيها همته ويعود فيها غير أهل للقيام بالخدمة النوعية، تكون هي بعينها سناً لضعفه وعجزه وشيخوخته وهرمه، وأن العملية الزوجية عندما تضعف فيه، فكأنها تؤذنه بانتهاء المدة المقدرة لحياته ، وعلى هذا إذا أخرجت من جسده غدده التناسلية ، فهو كما لايعود أهلا للقيام بالخدمة النوعية ، كذلك تقل فيه القوة والنشاط للقيام بالخدمة الذاتية لأن قواه الجسدية والعقلية لاتكون بدون هذه الغدد الا ضعيفة جداً .

وخدمة المصلحة النوعية ، لها في جسد المرأة من الأهمية ماليس حتى في جسد الرجل ، بحيث إننا إذا أنعمنا التفكير في تركيب جسدها ، علمنا أن ليس هذا التركيب كله الا ليقوم بخدمة الإبقاء على النوع البشري، فالمرأة عندما تدخل سن البلوغ يبدأ بها الطمث وهو الذي يعدها للحمل

في كل شهر ، وعندما تستقر النطفة في رحمها ، يحدث انقلاب هائل في نظام جسدها كله وتبدأ مصلحة الجنين هي التي تتحكم فيها ولاتترك لها من قوتها الجسدية إلامقداراً يسيراً لا تبقى على الحياة بدونه ، ولا تصرف بقيتها الباقية إلا في تغذية الجنين وتربيته . ومن هنا ينشأ في فطرة المرأة الحب والايثار والتضحية من أجل ولدها بحيث لاتكون عاطفة الأبوة في الرجل قوية عميقة مثل عاطفة الأمومة في المرأة . وبعد وضع الحمل يحدث في جسد المرأة انقلاب آخر يعده لإرضاع الولد . إذ تجذب غدد الرضاعة من دم الام أحسن أجزائه لتصنع بها اللبن المرضيع ، وهنا ترغم الفطرة المرأة على أن تضحي بمصلحتها الذاتية في سبيل المصلحة النوعية . وبعد الرضاعة يعد جسد المرأة لوقوع الحمل مرة أخرى ولاتزال بها سلسلة الحمل والرضاعة مادامت مستعدة للقيام بخدمة المصلحة النوعية ، بحيث إن استعدادها للقيام بهذه الخدمة إذا ماولى مدبراً قرعت باب الموت والانصراف من هذه الدنيا ، ومع ابتداء سن اليأس يزول عنها حسنها وجمالها وتنعدم فيها الرشاقة والجاذبية وتدخل في عالم من الآلام الجسدية والهموم النفسية لا ينتهي إلا مع موتها. فالذي يدل عليه كل هذا أن أحسن ايام المرأة هي الايام التي لاتحيا فيها الا للمصلحة النوعية، وأن أسوأها هي الأيام التي لا تحيا فيها الا لمصلحتها الذاتية .

إن كاتباً شهيراً في روسيا هو آنتون نيمي لوف (Anton Nemilov) قد ألف في هذا الموضوع كتاباً سماه «المأساة الحياتية للمرأة» (Biological Tragedy of Woman) ونشر في لندن ترجمته الانكليزية سنة ١٩٣٢م. فهو يؤكد في هذا الكتاب أن ليست ولادة المرأة الا لتقوم بخدمة الابقاء على النوع البشري . وهذه الحقيقة عينها قد بينها كثير من الكتاب

الآخرين ، فمثلا يقول الدكتور الكسيس كارل (Dr. Alixis Carrel) - من الفائزين بجائزة نوبل - في كتابه « الانسان ذلك المجهول » (Man, The Unknown) :

« إنه حتى هذه الأيام لم ينضج فكر الإنسان ولم يشعر على الوجه التام بما لوظيفة التوليد من الأهمية في حياة المرأة . إن قيام المرأة بهذه الوظيفة مما لا مندوحة عنه لكمالها القياسي ، فما تحريف النساء عن التوليد ورعاية الطفل إلا حماقة شنيعة لا يقدم عليها عاقل » .

ويقول طبيب آخر من علماء النفس - هو الدكتور آزوالد شوارز (Ozwald Schwarz) - في كتابه نفسية الجنس (The Psycho - logical Sex) « أي شيء يا ترى يدل عليه وجود الغريزة الجنسية في الإنسان ؟ ! ولتحقيق أي غرض قد وضعته الفطرة ؟ ! من الحقيقة التي لا غبار عليها أن هذه الغريزة إنما هي لإنجاب الذرية وتخليد النسل ، إذ من القوانين الثابتة في علم الأحياء أن كل عضو في جسد الإنسان يجب أن يؤدي وظيفته الخاصة المستقلة حتى يحقق بذلك المهمة التي قد أسندتها اليه الفطرة . وعلى هذا إذا منع هذا العضو من أداء وظيفته الخاصة . فلا بد أن تتعرض حياة الإنسان لمشاكل مرهقة متعددة . ومما يتعلق بهذا البحث أن جسد المرأة لم يخلق في معظمه إلا لوظيفة الحمل والتوليد فهي إذا منعت أن تعمل لتحقيق هذه الوظيفة الأساسية انظامها الجسدي والعقلي ، فلا بد أن تذهب ضحية الاضمحلال والتذمر والعقد النفسية المتعددة . وعلى خلاف هذا فانها عندما تصبح أماً، تجد جمالاً جديداً

وبهاءً روحياً يتغلب على ماقد يعتريها من الضعف والاضمحلال بسبب وضع الطفل وإرضاعه [1] . ويضيف قائلاً :

« إن كل عضو في جسدنا يجب أن يقوم بوظيفته ، وعلى هذا فإنه إذا حيل بينه وبين أن يقوم بوظيفته ، فلا بد أن يختل به التوازن في نظامنا الجسدي . إن المرأة ليست بحاجة إلى إنجاب الذرية لمجرد أن ذلك مما تقتضيه عاطفة الامومة التي قد فطرت عليها أو لمجرد أنها ترى القيام بهذه الخدمة واجباً على نفسها بناء على ضابط خلقي مفروض عليها ، وإنما هي بحاجة اليها لأن نظامها الجسدي ما بني كله إلا للقيام بها ، وهي إذا منعت أن تقوم بها ، فلا بد أن تتأثر شخصيتها كلها بالانقباض والحرمان والهزيمة واليأس المميت » .

وهذه الحقيقة هي التي يشير اليها القرآن الحكيم عندما يبين أن الغرض الأصلي الذي تقصده الفطرة بإقامة العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة ، هو الإبقاء على النوع البشري ، وأن الغرض الثاني الذي تقصده الفطرة باقامة هذه العلاقة هو أن يؤسس الإنسان حياته المدنية بتقيده بالحياة الزوجية . فليست الجاذبية التي وضعها الله بين الرجل والمرأة ، ولا اللذة التي وضعها في ملامستها الزوجية ، الا ليحقق الانسان هذين الغرضين . وأما أنه إذا كان إنما يريد اللذة ويأبى القيام بتحقيق هذين الغرضين ، فهو بدون شك يحاول تغيير خلق الله لأنه لا يستخدم القوى والاعضاء التي قد أعطاه الله إياها للابقاء على نوعه ، وانما يستخدمها لمجرد تحقيق

---

(١) نفسية الجنس لآزوالد شوارز ص١٧ .

غرضه الذاتي . فما مثله إلا كمثل رجل يضع في فمه لقم أغذية لذيذة ثم يلفظها لفظاً دون أن يبتلعها ، وذلك لينال لذة اللسان فحسب ، فكما أن رجلاً مثل هذا لا يرتكب بفعلته إلا الانتحار ، كذلك فإن الرجل الذي لا يريد بعلاقته الزوجية إلا اللذة والمتعة ويحول دون أن يتحقق غرض بقاء النوع البشري فهو لا يرتكب بفعلته الا جريمة قتل النسل ، بل هو يخادع الفطرة ويستهزىء بقوانينها ، لأن اللذة التي وضعتها الفطرة في العلاقة الزوجية ، إنما هي بمثابة أجرة ينالها الإنسان على الخدمة التي يقوم بها لتحقيق غرض من أغراض الفطرة ، ولكن يريد هذا الرجل أن يتقاضى الاجرة كاملة ويأبى القيام بالخدمة . أفليس هذا بمخادعة للفطرة واستهزاء بقوانينها ؟ !

★ ★ ★



المضـــار

وتعـال الآن انرى : هل إن الفطرة تعاقب الذين يخادعونها ويستهزئون بقوانينها — على ما بينا في الفصل السابق — أم تتركهم وتخلي سبيلهم بدون ما عقاب على جريمتهم؟ يصرح القرآن بأن العقاب يقع عليهم، وذلك بصورة أنهم لا يضرون بأعمالهم إلا أنفسهم . وفي ذلك ورد قوله تعالى: « قدْ خَسِرَ الذينَ قَتلوا أوْلادَهم سَفَهاً بغيْرِ علْمٍ وحرّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على الله »(١) . فالنتيجة التي ورد ذكرها في هـذه الآية لتحريم نعمة التناسل بقتل الأولاد هي الخسران . وتعال انرى في ما يلي، ما هي الوجوه التي تظهر عليها نتيجة الخسران هذه ؟

---

(١) إن قدماء المفسرين إنما بينوا قوله تعالى : « وحرموا ما رزقهم الله » . أنهم يحرمون على أنفسهم ما قد أحل الله لهم من المأكولات ، والسبب في ذلك أن لم تكن ثمة حركة لتحديد النسل في زمانهم ، ولكن الله الذي يحيط بعلمه كل ما كان وما سيكون ، ما استعمل إلا كلمات عامـة لا تشمل تحريم المباحات من المأكولات فحسب ، وإنما تشمل أيضاً تحريم كل نعمة أنعمها على عباده وكلمـــة « الرزق » لا تستعمل في معاجم اللغة وفي كلام العرب لمجرد المأكولات والمشروبات وإنما تستعمل لكل نعمة بما فيها نعمة الذرية ، ولما قد جاء هنا ذكر تحريم « الرزق » عقب قتـل الأولاد ، فمعناه الواضح أنه كما قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم ، كذلك قد خسر الذين حرموا على أنفسهم نعمة التناسل وإنجاب الأولاد .

١ - في الجسد والروح :

ولأن التناسل والتوالد علاقة مباشرة بجسد الانسان وروحه ، فعلينا أن نعرف قبل كل شيء المؤثرات التي تحدث لتحديد النسل أو تنظيمه - كما يقال - في جسد الانسان وروحه .

قد بينا سابقاً أن الهدف الرئيسي الذي تقصده الفطرة بقسمة النوع البشري وجعله على جنسين مختلفين : الذكر والانثى ، إنما هو التوالد والتناسل والاستبقاء على النوع البشري . وقد قلنا كذلك أن الذي تطالب به عين فطرة الذكر والانثى أن يقوما بواجب إنجاب الذرية ، ولذلك قد وضعت الفطرة في المرأة بوجه خاص ، رغبة أكيدة في الذرية ، وعاطفة شديدة لمحبتها. وقد علمت كذلك كيف أن الغددالتناسلية في الانسان تؤثر في جسده تأثيراً عميقاً وكيف أنها تؤدي واجب حمل الانسان على خدمة نوعه ، وكيف أنها - في الوقت نفسه - تنشيء فيه الحسن والجمال والبهاء والطراوة والرشاقة والجاذبية والنشاط والقوة العقلية ، ولا سيما في المرأة ، لم يخلق هيكلها الجسدي إلا ليقوم بخدمة النوع البشري ويؤدي واجب الاستبقاء على وجوده ، فهو الهدف الرئيسي الذي قصدته الفطرة بخلقها وهو الواجب الذي تطالبها الفطرة بادائه .

فالنتيجة التي لا بد أن يتوصل إليها عقلك إذا ما أنعمت النظر في كل هذه الأمور ، هي أن الانسان إذا كان إنما يقصد اللذة بعلاقته الزوجية ويأبى أن يحقق الغاية التي قصدتها الفطرة من وراء هذه العلاقة وجعلت

طلبها ملتحماً مع دمه وروحه ، فمن المحال أن لا تترتب على جريمته مؤثرات موبقة وعواقب وخيمة في جهازه العصبي وفي نشاط غدده التناسلية .

والتجربة تؤيد هذه النتيجة العقلية . يقول تقرير لجنة نسبة الولادة القومية في بريطانيا سنة ١٩٢٧ بصدد الكلام عن مشكلة تحديد النسل من الوجهة الطبية :

« إنه من الممكن باستخدام الوسائل المانعة للحمل أن ينشأ الاضطراب والاختلال في نظام الرجل الجسماني ، كما أنه من الممكن أن ينشأ به الضعف في قوته التناسلية أو تنعدم فيه هذه القوة بتاتاً . ومما يجوز القول به على وجه عام أن هذه الوسائل وإن كانت تحدث في صحة الرجل مؤثرات سيئة جداً ، إلا أن الذي يخشى دائماً أن الرجل عندما لا تشبع غريزته الجنسية بعلاقته الزوجية ، يعتريه التبرم والانقباض شيئاً فشيئاً في حياته العائلية ، ولا بد إذن أن يحاول إشباع غريزته الجنسية بوسائل أخرى تفسد عليه صحته بل قد تعرضه للأمراض الخبيثة » .

ثم يقول تقرير اللجنة المذكورة بالنسبة للنساء :

« إن منع الحمل إذا كان لازماً من الوجهة الطبية وكانت ولادة عدد كبير من الأطفال قد أفسدت على المرأة صحتها ، فلا شك أن وسائل منع الحمل تحدث مؤثرات حسنة في صحة المرأة ، ولكن إذا لم تكن ثمة حاجة تدعوها إلى منع الحمل فلا بد أن تكون النتيجة المحتومة لاتخاذ تدابيره الصناعية أن ينشأ التوتر في نظام المرأة الجسماني وبلازمها — شيئاً فشيئاً — القلق والاضطراب والتبرم والضجر ، لأنها عندما لا تشبع غريزتها

الجنسية ، فإن علاقتها بزوجها يعتريها — ولا بد — الشذوذ والانزعاج. وقد شوهدت هذه النتائج بصفة خاصة في الذين يختارون طريق العزل لمنع الحمل[1] » .

وتبين الدكتورة ميري شارليب (Dr. Mary Scharlieb) نتائج التجارب بهذا الشأن بكلماتها الآتية :

« إن وسائل تحديد النسل ـ سواء أكانت هي اللولبيات المعدنية او الأقراص والعقاقير القاتلة للحيوانات المنوية أو حواجز المطاط وغيرها ـ وإن كانت المرأة لا تتعرض باستخدامها لضرر فوري ظاهري ، ولكنها إذا ظلت تستخدمها لمدة من الزمان ، فلا بد أن يصيبها الانهيار العصبي (Nervous Instability) قبل أن تبلغ سن الكهولة . ومن النتائج اللازمة لاستخدام هذه الوسائل التبرم والتذمر والقلق والنزق والأرق وتوتر الأعصاب وتشويش الفكر وهجوم الأحزان وضعف القلب ونقص الدورة الدموية وشلل اليدين والرجلين والتهاب الجسد واضطراب العادة الشهرية » .

ومن الأطباء من يقول « إن سقوط الرحم (Falling of tho Womb) وفساد الذاكرة من النتائج اللازمة لاستخدام وسائل منع الحمل ، بل إن هذه الوسائل كثيراً ما تسبب المراق (الوسواس) وخفقان القلب والجنون وما إليها من العلل الخطيرة الأخرى . زد على ذلك أن المرأة عندما لا تلد إلى مدة ، قد تحدث في أعضائها التناسلية تغيرات تتأثر بها

(١) أي الإعتزال بعيداً عن المرأة .

أهليتها للتوليد ، وإنها عندما تحمل بعد ذلك ، تعاني ألماً شديداً أثناء الحمل والوضع[1] ».

ويقول الاستاذ ليونارودهلم . ب. (Lunard Hill M . B.) في احدى مقالاته : « إن التغيرات التي تحدث في جسد المرأة عندماتدخل من البلوغ ، لا تحدث كلها إلا لغاية التناسل،ولا تدورعليها العادةالشهرية في كل شهر إلا لتمدها لوظيفة الحمل . فكل عانسة أو كل امرأةتنهي نفسها عن الحمل ، تنتهي فيها كل دورة للعادة الشهرية مع يأس كل أعضائها التي كانت قد أعدّت للحمل في تلك الدورة . والنتيجة المحتومة لعدم تحقق هذا المقتضى الفطري ولتعطل الأعضاء التناسلية أن يحدث الاختلال والتذمر في مزاج المرأة ويصيبها الاضطراب في وظيفة أعضائها التناسلية، ولا تمر عليها أيام العادة الشهرية إلا بغاية من الألم والاضطراب وأن يسترخي ثدياها ويفارق وجهها الجمال والرشاقة ويصيبها القلق واليأس والانزعاج والتشوش الفكري . ومما يجب أن لا يغيب عن الأذهان أن الغدد التناسلية لها تأثير بالغ في حياة الإنسان ، اي لا تولد فيه القوة التناسلية فحسب،وإنماتولد فيه كذلك النشاط والحيوية والجمال والجاذبية وبها تنشأ فيه كثير من الصفات والطباع الخلقية. وهذه الغدد عندمايتضاعف

---

(١) ان الدكتور آرنولد لوراند (Lurand) قد تصدى لبيان المؤثرات السيئة لاستخدام وسائل منع الحمل بكل تفصيل في كتابه « العادات المقصرة للحياة وإعادة الشباب » (life Shorting Habits and Rejuvenation) وقد طبع هذا الكتاب بفيلدلفيا سنة ١٩٢٢ .

عملها مع دخول الانسان من البلوغ ، فكما أنها تسبب فيه الاستعداد للتناسل ، كذلك تسبب فيه الجمال والرشاقة والقوة العقلية والجسدية والشباب والنشاط والحركة . وعلى هذا إذا حيل بين هذه الغدد وبين أن تؤدي وظيفتها الفطرية المقصودة من وراء تكوينها ، فانها لا بد أن يصيبها الشلل والتعطل في أداء وظيفتها الضمنية ـ أي التقوية ـ أيضاً . وبالأخص ليس معنى منع المرأة أو امتناعها عن الحمل إلا أن يُعطّل نظامها الجسدي ويترك بدون ما غاية ولا هدف في الحياة . وقد ذكرنا سابقاً رأي الدكتور آروالد شوارز في هذه المسألة حيث يقول : « من الحقيقة التي لا غبار عليها أن ليست الغريزة الجنسية في المرأة إلا لإنجاب الذرية وتخليد النسل ، إذ من القوانين الثابتة في علم الاحياء أن كل عضو في جسد الإنسان يجب أن يؤدي وظيفته الخاصة المستقلة حتى يحقق بذلك المهمة التي قد أسندتها إليه الفطرة . وعلى هذا إذا منع هذا العضو أن يؤدي وظيفته الخاصة فلا بد أن تتعرض حياة الانسان لمشاكل مرهقة متعددة . ومما له علاقة بهذا البحث أن جسد المرأة لم يخلق في معظمه إلا لوظيفة الحمل والتوليد ، فهي إذا منعت أن تعمل لتحقيق هذه الوظيفة الأساسية لنظامها الجسدي والعقلي ، فلا بد أن تذهب ضحية التذمر والاضمحلال والعقد النفسية المتعددة . وعلى هذا خلاف فانها عندما تصبح أماً ، تجد جمالاً جديداً وبهاء روحياً يتغلب على ما قد يعتريها من الضعف والاضمحلال بسبب وضع الطفل وإرضاعه[1] » .

---

(١) نفسية الجنس (Psychology of Sex) المطبوع بلندن سنة ١٩٥١ ، ص ١٧ .

ومما لا مجال فيه لأدنى شك أن تحديد النسل ظلم صريح للمرأة ؛ فهو ينشب الحرب بينها وبين فطرتها ، ونتيجة لذلك يختل فيها نظامها الجسدي وينهار عليها جهازها العصبي .

إن تحديد النسل، في حد ذاته ، خروج سافر على نظام الانسان الفطري . وفوق هذا فان الطرق التي تستخدم لمنع الحمل تترك على الرجل والمرأة - ولا سيما على المرأة - مؤثرات سيئة تنغص عليها حياتها وتهدم عليها شخصيتها .

من أقدم وأهم طرق تحديد النسل الإجهاض أو إسقاط الحمل (Abortion) وعلى رغم الرواج الكبير الذي قد صادفته الوسائل الحديثة الاخرى لمنع الحمل ، فإن الإجهاض لا يزال هو الطريق المستعمل لمنع الحمل في كثير من بلاد الدنيا ، بل هناك بلاد يوجد فيها عدد لا يستهان به من النوادي والعيادات الخاصة بالإجهاض . والسبب في ذلك أن ليست هناك وسيلة من وسائل منع الحمل قد ثبت نجاحها في منع الحمل مائة في المائة ، فعلى الرغم من استخدامها قد يحدث الحمل فيعالجه المتبرمون من نسلهم بقتل ولدهم الذي يريد أن يخرج إلى نور الدنيا على غير تصريح منهم قبل أن يولد . أما دعوى أنصار حركة تحديد النسل أنه بتنظيم النسل قد نقصت في الدنيا حوادث الإجهاض إلى حد كبير ، فإن الحقائق الثابتة بالارقام الناطقة تفندها تفنيداً . فعلى ما يبينه الاستاذ بال جيب هارد (Paul. H. Yehard) مستنداً إلى إحصائية أمريكا الأخيرة ، لاتزال هناك ٨٪ من العوانس و ٢٠ - ٢٥٪ من المتزوجات يمارسن طريقة

الإجهاض كل سنة في أمريكا [١]. وقد بذلت الجهود المتتابعة في اليابان بعد الحرب العالمية الثانية لترويج حركة منع الحمل تحت إشراف القائد الأعلى الأمريكي، ولكن زادت فيها حوادث الإجهاض رغم هذه الحركة لمنع الحمل على صورة لا مثيل لها في تاريخ اليابان السابق. ففي سنة ١٩٥٠ ما كان الا ٢٩,٥٪ من سكانها هم الذين يلجؤون إلى وسيلة الاجهاض، ولكنه انتشر بين ٥٢٪ منهم في سنة ١٩٥٥. وعلى حسب تقدير الاستاذ ساقي (Sauvy) يحصل في اليابان ١,٢٠٠,٠٠٠ ـ أي نحو مليون وربع مليون ـ حادث الاجهاض كل سنة. وأما إذا أضفنا اليها حوادث الاجهاض غير المشروعة ـ التي لا يقل عددها عن مليوني حادث على أهون تقدير ـ فان عددها يبلغ حيث لا تقضي منه العجب [٢]. وبموجب التحقيق الذي عملته جريدة «مين شي» (Mainichi) اليومية في اليابان إن الأسر التي تزاول تحديد النسل في اليابان، يُزاول فيها طريقُ الاجهاض بستة أضعاف بالنسبة للأسر التي لا تزاول تحديد النسل.

وأيضاً فان النتيجة التي كانت قد انتهت اليها اللجنة الملكية لاستعراض نسبة الولادة في انكلترا سنة ١٩٢٧، هي أن الاجهاض له رواج في الاسر المزاولة لتحديد النسل بـ ٨,٢٧ أضعاف بالنسبة لرواجه في الأسر غير المزاولة لتحديد النسل.

---

(١) «الحمل والولادة والاجهاض» (Pregnacy Birth and Aportion) المطبوع بنيويورك سنة ١٩٥٨، ص ٥٦ و ١١٩.

(٢) ميك مارمك آرثر (Mc Mormack Aurther) في كتابه «الجمهور والفضاء والغذاء» (People , Space and Food) المطبوع بلندن سنة ١٩٦٠ ص ٦٧.

وإلى نتيجة مثل هذه قد انتهت تحقيقات الاستاذ ارين ب . توئبر (Arene B. Teuber) بجامعة برينستون في أمريكا . يقول الاستاذ ارين ب . توئبر : «إن الاجهاض قد تضاعفت حوادثه عدة مرات بعد رواج وسائل منع الحمل ، وما رواجه الآن بين المتزوجات فحسب ، بل هو عام كذلك بين الفتيات غير البالغات عشرين سنة [1] .

ومما يتفق عليه رأي أكثر علماء الطب أن الاجهاض له مؤثرات مهلكة على صحة المرأة وعلى نظامها العصبي . ونحن هنا نكتفي بسرد رأي الدكتور فريدرك تاسيج.(Taussig, Fredrik. g.) إذ قد جاء فيه لباب المعلومات الطبية في هذا الموضوع . يقول: « إن الحمل عندما يخرج قبل اكتماله ـ ويصطلح على هذه الفعلة بكلمة الاجهاض (Abortion) ـ فهناك ثلاثة أضرار يتعرض لها النسل الانساني لأجله :

١ ـ يهلك عدد غير معلوم من أفراد البشرية قبل أن يخرجوا إلى نور الحياة .

٢ ـ ويذهب عدد غير يسير من الأمهات ضحية الموت أثناء عملية الاجهاض .

٣ ـ وبالاجهاض تحدث في المرأة مؤثرات مرضية (Pathological) لا يستهان بعددها ، وتجرح فيها إمكانيات التوليد في المستقبل على صورة مفزعة جداً [2] .

---

(١) المصدر المذكور ص ٦٧ .

(٢) الاستاذ تانسنج فريدريك ج(Tanssing Fredrick g) في مقاله «مشكلة الاجهاض» (The Abortion Problem) في «أعمال مؤتمر اللجنة القومية عن صحة الأم ببالتي مور (Baltimore) سنة ١٩٤٤ ، ص ٣٩ .

ولتحديد النسل وسائل أخرى غير الاجهاض تعرف عامة بالوسائل المانعة للحمل (Contraceptives) إلا أن الرأي الذي يراه علماء الطب حتى في هذه الوسائل ، هو :

١ - ان ليست منها وسيلة أكيدة مضمونة لمنـــع الحمل مائة في المائة .

٢ - وان ليست منها وسيلة لاتحدث مؤثرات سيئة في صحة المرأة وفي جهازها العصبي .

وعلى حد قول الدكتور كلير فولسوم (Dr. Clair E. Folsome):
«ليست عندنا حتى اليوم أية وسيلة معلومة سهلة اورخيصة غير ضارة يمكن استخدامها لتحديد النسل[١] » .

وأيضاً إن المؤثرات النفسية التي تتركها كل وسيلة من وسائل منـع الحمل في صحة المرأة وحياتها العامة مربكة جداً ، وبهـــا لاتحدث المشاكل المرهقة فحسب ، بل هي كثيراً ماتودي حتى بتلك اللذة التي قد أودعتهـــا الفطرة العملية الجنسية جزاء على أداء الإنسان خدمة زيادة النسل [٢].

وهذه الحقيقة تبينها الدكتورة ستياواتي (Dr. Sattyawati) في كتابها «التخطيط العائلي» (Family Planning) بكلماتها الآتية :

---

(١) تقدم التحقيقات في وسائل تحديد افراد الاسرة ، الموافقة للبيئات الريفية Progress in search for Methods of Family Limitations) suitable for Agration Societies) المطبوع بنيويرك سنة ١٩٥٢ ، ص ١٣٠ .

(٢) كتاب الاستاذ ميك كارمك المذكور ص ٧٤ .

« وأحياناً تكون نتائج تحديد النسل خطيرة جداً حيث إن الانسان يفقد بها طمأنينة القلب، ويصيبه الاضطراب النفسي والقلق العصبي والأرق الشديد، بل طالما يذهب ضحية المراق والاختناق ويختل عليه توازنه العقلي وتعقم النساء ويفقد الرجال قوتهم التناسلية[1] ».

وأما حبوب منع الحمل (Contraceptive Pills) التي طالما تبذل الجهود للاشادة بذكرها والدفاع عن سمعتها، فلا يخفى على أهل البصيرة مافيها من عوامل المضرة بصحة المرأة وتعطيل كثير من قواها العقلية والتناسلية، فمن الخيانة الشنيعة القول بأنها غير ضارة بصحة المرأة. يقول ميك كارمك:

« وانه وإن لم يأت الوقت لنبدي فى هذه الحبوب رأياً طبياً قاطعاً، ولكن من الواضح على كل حال انه من المحال ان تكون هذه الحبوب وسيلة يقينية لمنع الحمل، ولا تحدث لها مؤثرات سيئة في حياة المرأة في ما بعد. ان هذه الحبوب إنما تعمل عملها بوقف بويضة المرأة عن النمو، ولا بد ـ هكذا ـ ان يحدث الاضطراب في عادتها الشهرية، والأمر مادام كذلك، فان العقل لا يصدّق أبداً أنه من الممكن ان يحدث مثل هذا التغير الهائل في نظام غدد المرأة بدون ما اثر غير محدود[2] ».

ولك ان تجد في هذه الحبوب رأياً طبياً آخر يجوز الاعتماد عليه في ملحق الموسوعة البريطانية للتجارب الطبية، فقد ورد في هذا الملحق القول الآتي للدكتور ج. ي. سوئير (G. I. Swyer):

---

(١) جريدة باكستان تايمز (Pakistan Times) بلاهور: ٢١ سبتمبر ١٩٥٩ ص ٤.

(٢) كتاب الاستاذ ميك كارمك المذكور ص ٨١.

«ليس بوسعنا أن ننكر ما في هذه الحبوب من إمكان المؤثرات المضرة الطويلة المدى . ومن المفاسد الكبيرة في طريق العلاج بها أن على المرأة فيه أن تتناول عشرات الحبوب بتسلسل كامل ووفق نظام معين . وفوق هذا فان غلاء ثمن هذه الحبوب وكثرة المفعولات غير المحمودة فيها يضمان الحد لاقبال المرضى على طريق العلاج بها».

وآخر ما بلغنا بهذا الشأن هو رأي الدكتور الشهير رينيل ديوكس في هذه الحبوب حيث يقول :

«.. فالمرأة عندما تتناول هذه الحبوب لمنع حملها، فهي لا تتعرض للصداع والآلام العصبية فحسب ، بل لا تأمن على نفسها أن يصيبها مرض عضال كالسرطان[1]».

فلعلك قد أدركت بما بيّنا حتى الآن مبلغ كل هذه الطرق لمنع الحمل من الخطر على صحة الانسان والضرر بطمأنينته الفكرية والنفسية ، ولكن من غير القطعي ، حتى بعد احتمال كل هذه الاخطار ومكابدتها، ان يكون احد هذه الطرق وسيلة ناجحة في منع الحمل لأن الطرق المستخدمة اليوم لمنع الحمل غير قطعية إلى حد «مقلق» كما يقول تقرير اللجنة الملكية في انكلترا . وأيضاً مما قد توصل اليه الدكتور ايكبالد (Dr. M. Ekbald) بالسويد بعد عدة تجارب أجراها في هذا الشأن « ان ٣٨٪ من ٤٧٩ » إمرأة في السويد حملن على رغم ما اتخذن من التدابير لمنع الحمل - أي من المحال أن تأمنوا على أنفسكم خطر الذرية - بشكل جزم ويقين» ولا بد أن تكابدوا لدفعه كل نوع من المضرات والخسائر.

---

(١) جريدة « الصدق » بلكنؤ (الهند) : ١٨ نوفمبر ١٩٦٠ .

ومضرة فادحة أخرى ـ علاوة على هذه المضار ـ أن الرجال والنساء عندما يأمنون على أنفسهم ـ بزعمهم ـ حدوث الحمل باستخدامهم وسائل تحديـد النسل ومنع الحمل ، لا يبقى لهم استيلاء على غرائزهم الجنسية السفلى ، وهناك تتخطى مطالب الرجل الشهوانية من المرأة حدود الاعتدال ولا تعود العلاقة بينهما إلا كعلاقة بهيمية بحتة لا تكون الكلمة المسموعة فيها إلا الميول الشهوانية والغرائز الجنسية . وهذا مافيه أكبر خطر محدق بالصحة والاخلاق معاً . يقول الدكتور فورستور :

« ان زوجية الرجل إذا اتجهت بتمامها إلى عبودية مطالب النفس وأهوائها السفلى ولم تكن لديه قوة لكبح جماحها ، فإن الحالة التي تتولد بذلك تكون من حيث زرايتها ودناءتها ونتائجها المسمومة أفدح بكثير من المضرة التي يمكن ظهورها بتكرار الحمل وتعدد الاطفال » .

٢ ـ في الحياة المدنية والاجتماعية :

قـد أشرنا في ماسبق إشارة ضمنية إلى مايحدث لمنع الحمل من المؤثرات السيئة في حياة الإنسان العائلية . وأثره الاول والفوري الذي يحدث في علاقة الزوجين هو أنه حينما لا يشبع مافيهما من دواعي الفطرة على صورة كاملة ، فإن شيئاً كالبرودة يظهر في علاقتهما على طريق غير مشعور به ، وهو الذي يتحول إلى قلة المودة والرحمة في بدء الامر ثم إلى الشذوذ والتذمر والتوتر في آخره ، وبالأخص إن الاضطراب العصبي والانزعاج الفكري الذي ينشأ في المرأة بالمداومة على استخدام طرق منع الحمل ، يهدم ـ شيئاً فشيئاً ـ كل ما في حياتها العائليـــــة من البهجة والسرور والطمأنينة القلبية .

ولكن علاوة على كل هذه المضار، هناك مضرة فادحة أخرى لمنع الحمل منشؤها الأسباب المعنوية أكثر من الأسباب المادية. ليست العلاقة بين الزوجين من الوجهة الجسمانية إلا علاقة بهيمية بحتة، وكل ما يعطيها القداسة ويرفعها إلى درجة علاقة إنسانية كريمة ويحيلها إلى رابطة عميقة قائمة على أساس من المودة والرحمة، إنما هو اشتراك الزوجين وتعاونهما على تربية الاولاد ورعايتهم. أما منع الحمل فيحول دون أن تخرج هـذه الرابطة الروحية إلى حيز الوجود، مما يكون من نتيجته المحتومة أن لا تنشأ بين الزوجين علاقة محكمة، ولا تجتاز علاقتهما الزوجية درجة العلاقة البهيمية. ومن طبيعة هذه البهيمية أن كل واحد من الزوجين بعد ما يستمتـــع بالآخر لمـــدة من الزمان، يشعر بنوع البرود والتبرم نحوه. وفي هذه البهيمية لا يكون كل رجل لكل إمرأة، ولا كل إمرأة لكل رجل إلا بمنزلة سواء، ولا يبقى ثمة سبب ليعيشا معاً متقيدين بقيود الحياة الزوجية حتى مدى حياتهما. الحقيقة أن ليس هناك شيء غير الأولاد يحمل الزوجين بل يكرههما إكراهاً على أن يعيشا معاً متقيدين بقيود الحياة الزوجية وتبعاتها حتى مدى حياتهما، ولذا فاذا لم يكن لديهما أولاد، فمن العسير جداً أن يعيشا معاً مرتبطين بأي رابطة أخرى. ومن أجل هـذا فإن العلاقات الزوجية بين الرجال والنساء في أوربا وأمريكا قد غدت أوهن من بيت العنكبوت وهي لا تزال تنحدر إلى مزيد من الوهن والتفكك مع مرور الأيام، وقـــد كثرت ولاتزال تكثر بينهم حوادث الطلاق والافتراق بسرعة مدهشة، كأن القوم ما بقيت في نظرهم أية قداسة للحياة الزوجية والنظام العائلي.

٣ ـ في الأخلاق :

أما المؤثرات السيئة التي يحدثها منع الحمل في الاخلاق والطباع فتأتي على عدة وجوه :

١ ـ إن كل واحد من الرجل والمرأة كأنه ينال بطريقة منع الحمل إذناً مشاعاً في الزنا والعهر، ولا يبقى في نفسه شعور بالخوف من افتضاح السيرة والوقوع في الذلة والعار والإثم بولادة ولد الزنا ، وهذا ما يشجع كلاً منهما على إقامة العلاقات الجنسية بالطرق المحرمة .

٢ ـ إن عبودية اللذة والاسترسال وراء تحقيق أهواء النفس يتمديان به كل حد من الحدود الخلقية ، وبذلك يتولد ثم ينتشر ويفوح في المجتمع انحطاط خلقي عام كأي مرض وبائي .

٣ ـ إن الزوجين المحرومين من نعمة الأولاد لا ينشأ فيهما كثير من الخصائص الخلقية والطبائع الشريفة التي إنما تنشأ بتنشئة الأولاد وتربيتهم، لأن الابوين ماهما اللذين يربيان الأولاد تربية خلقية ، وإنما الأولاد هم أيضاً يربون أبويهم على كثير من الصفات الخلقية الكريمة . فبتنشئة الاولاد والسهر على تربيتهم تتولد عواطف الحب والإيثار والتضحية في قلوب الابوين ، وبها يتدربان على التفكير في المستقبل وعلى الصبر والتجلد واحتمال الشدائد ومصارعة الأهوال وضبط النفس ، وبها يجدان أنفسهما مضطرين إلى أن يعيشا عيشة ساذجة هادئة ولا يسترسلا كالعميان وراء جمع أسباب البذخ والترف لمجرد ذاتها ، ولكن تحديد النسل يغلق على الانسان باب كل هذه الصفات والطباع الخلقية الكريمة . والله سبحانه وتعالى قد منح

الإنسان جزءاً من صفة التخليق والربوبية عن طريق التوليد والتناسل ، فهو ـ لذلك ـ يتيح للانسان فرصة ثمينة للتخلق بأخلاق الله، ولكن الإنسان بتحديده نسله يضيع على نفسه هذه الفرصة ويأبى الا الابتعاد عن رحمة الله.

٤ ـ إن تحديد النسل يحول دون أن تكتمل تربية الاولاد على الفضائل ومكارم الأخلاق، فالطفل الذي لا تتاح له فرصة التعاشر والتلاعب والتعامل مع اخوته الكبار والصغار لا يتخلق بكثير من الأوصاف الإنسانية الكريمة . وليس الأبوان هما اللذان يربيان أولادهما بل إن الاولاد أنفسهم يربي بعضهم بعضاً . فهم عندما يتعايشون بينهم ويتعاشرون، تتولد فيهم المواساة والمحبة والايثار والتعاون والترافق وما اليها من الصفات الخلقية والطباع الانسانية العليا ، وهم عندما ينتقد بعضهم بعضاً يزيلون عن أنفسهم كثيراً مما قـــد يكون بهم من النقائص والمعايب الخلقية . فالذين يحددون ذريتهم بولد واحد أو إنما ينجبون ولدين بحيث يكون الفرق كبيراً بين سنيهما ، يضيعون على ذريتهم في حقيقة الأمر فرصة ثمينة للتربية الخلقية (١) .

٤ ـ في النسل والحياة القومية :

وكل هـذه المضار التي عددناها حتى الآن ، ما هي الا مضار تلحق

---

(١) لا هذا فحسب ، بل الذي يراه طائفة من علماء النفس والتربية أن بـذلك ينفصل ارتقاء الطفل ونموه العقلي والنفسي ، وانـه اذا كان الفرق كبيراً بـين سن طفلين أخوين ، فكثيراً ما يتعرض الطفل الاكبر للاصابة بالانهيار العصبي والاضطراب العقلي ، وذلك عندما لا يجد هذا الطفل الاكبر في بيته طفلاً يقاربه في السن . راجع كتاب «حماية الامومة» (Maternal Over Protection) لمؤلفه الاستاذ دافد . م . ليفي (David. M. Levy) .

بالافراد في حياتهم الفردية ، وتعال انريك الآن ما هي المضار التي تلحق بالاجيال والامم في حياتها القومية .

١ ـ خط الرجال : إن النظام العظيم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لخلق الإنسان ، لا نصيب فيه للانسان نفسه إلا أن يتصل بالمرأة ويوصل نطفته إلى داخل جسدها . وما هناك شيء بعد هذا يقدر عليه الانسان أو يملك الخيرة من أمره ، بل هو بتمامه لا يتوقف إلا على مشيئة الله وحكمته وتقديره . وفي كل مرة يتصل فيها الرجل بالمرأة ، يدخل في جسدها ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون حيوان منوي ، فتجري هذه الحيوانات لتصل إلى مبيضة (Egg Cell) المرأة ، والذي يصل منها إلى هذه المبيضة قبل غيره هو وحده الذي يفوز بقصب السبق وهو وحده الذي يشترك في إسكان الارض ، وغيره من تلك الملايين العديدة يموت .

ولكل حيوان من هذه الحيوانات مزايا وراثية وشخصية مستقلة ، ففيها الأغبياء والحمقاء وفيها الحكماء والعقلاء وفيها الاوفياء والخونة . وفيها أرسطو وابن سينا وفيها هولاكو ونابليون وفيها الجاحظ والمتنبي ، فليس في قدرة الإنسان ولا مشيئته ولا اختياره أن يجعل حيواناً ذا مزية خاصة من هذه الحيوانات العديدة هو الذي يصل إلى بويضة ذات مزية خاصة من بويضات المرأة العديدة وأن يخلق ــ هكذا ــ إنساناً من نوع خاص يحبه . ان مشيئة الله واختياره له السلطان الكامل والقول الفيصل في هذا المقام وهو الذي يقضي : أيّ نوع من أنواع البشر يرسله إلى أية أمة وفي أي زمان ؟ والانسان وهو جاهل حتى بنتائج عمله كما علمت ،

إذا حدثته نفسه بالتدخل في هذا النظام، الذي ماخلقه الله سبحانه وتعالى الا بمحض مشيئته ، فلا يكون مثله إلا كمثل رجل يدير عصاه في الظلام ولا يدري هل يقتل بها حية مؤذية أو أحداً من بني نوعه أو يكسر بها شيئاً ثميناً ، فكل شيء ممكن . وكذلك إن الإنسان عندما يحاول الحد من نسله ، لا يدري ما إن كان بفعلته يسد الطريق إلى عالم الوجود على قائد شجاع أو حكيم مدبر ؟ وعسى أن يعاقبه الله على هذه الحرية بأن لايخلق في نسله الا الاغبياء والحمقاء والخونة ، وبالاخص إن أمة إذا انتشر فيها هذا التدخل في مشيئة الخالق عز وجل ، فانها لاجرم تعرض نفسها لخطر قحط الرجال .

وأيضاً فما تدل عليه التجارب والمشاهدات العملية أن الاسر الكبيرة أكثر نجاحاً في الدنيا من الأسر الصغيرة . يقول الاستاذ كولين كلارك :

إننا لاننكر ان مشكلة التعليم أكثر إرهاقاً وتكليفاً بالنسبة للاسر الكبيرة ، ولكن من الخطأ القول بأن الزوجين عندما يضيفان إلى أولادهما طفلاً جديداً ، يضران بمصلحتهم او يقللان من فرص الرقي في وجوههم. ولعل الآباء والامهات في زمننا قد بدأوا يشعرون بأنفسهم بصدق الحقيقية التي توصل اليها الاستاذ بريسارد بعد ان عمل لها عدة تحقيقات عميقة . فقد عكف لمدة غير يسيرة على دراسة الاسباب في نمو وارتقاء الاسر الكبيرة لرجال التجارة وغيرها من الحرف الراقية الاخرى : ماهي الاعمال التي قامت بها هذه الاسر لترقية حياتها الاقتصادية ، ثم

وازن بينها وبين حياة ووسائل الافراد المنتمين الى الأسر الصغيرة ، فتوصل بكل ذلك الى النتيجة القائلة بأن أفراد الأسر الكبيرة وإن كانت مشكلة قلة المال تواجههم في بدء أمرهم ، ولكن هم الذين يحرزون نجاحاً باهراً وتوفيقاً أوسع في ميادين الحياة في آخر الأمر ، بالقياس الى أفراد الأسر الصغيرة .

٥ – اضاعة المصالح القومية في سبيل المصالح الشخصية :

كم من الاطفال يجب علي أن أنجبهم ؟ بل هل علي أن أنجب الأطفال أم أكف عن انجابهم بتاتاً ؟ هذا سؤال لا يرد عليه كل شخص في زمن حركة تحديـــد النسل الا واضعاً نصب عينيه ظروفه وأهواءه وحاجاته الذاتية . وهو عندما يرد عليه في ذات نفسه لا يلتفت الى حاجة وطنه ولا الى مصلحة شعبه ولا يبالي بأقل عدد من الأطفال يحتاجان اليه للمحافظة على كيانهما. الحقيقة ان الافراد لا يستطيعون ان يقدروا هذا العدد تقديراً صحيحاً ولا أن يؤثروا الحاجات والمصالح القومية على حاجاتهم ومصالحهم الشخصية ، مما ينتج على ان ولادة الجيل الجديد لا تكون موقوفة بقضها وقضيضها إلا على مشيئة الأفراد الموجودين وأثرتهم وحبهم لذواتهم ، وبذلك تنخفض نسبة المواليد ولا تزال تنخفض يوماً فيوماً دون ان يستطيع الشعب بمجموعه ان يضع لها حداً في أية مرحلة من مراحل حياته. وليس في ذلك ما يدعو الى العجب والحيرة ، لأن الأفراد اذا كانت الأثرة هي المستولية عليهم ، كانت ظروفهم التي تدعوهم الى تحديد النسل لا تزال تتحول من سيئة الى أسوأ ، فإنهم بدون ماريب لا يتحرجون أبداً من التضحية بحياة شعبهم وسلامة وطنهم في سبيل ما يحقق أغراضهم ومصالحهم

الشخصية ، إلى أن يأتي على شعبهم ووطنهم يوم يدخلان فيه عالم الفناء والانقراض .

٦ ـ الانتحار القومي :

إن كل أمة إذا أخذ أفرادها يتناقصون بحركة تحديد النسل ، لا تكون في كل حين من أحيانها إلا عرضة لأسباب الفناء والهلاك ، فمثلاً إذا انتشر فيها وباء أو نشبت بينها وبين أمة أخرى حرب فلا بد ان يصيبها قحط الرجال فجأة ولا تستطيع بأية حيلة أن تأتي بأفراد جدد على قدر عدد القتلى او الموتى ليحلوا محلهم ويؤدوا وظائفهم . ان الاسلحة الذرية في هذا الزمان قد زادت من فداحة هذا الخطر وهوله بصفة خاصة ، فالقنبلة الذرية التي اسقطت في الحرب العالمية الثانية على مدينة هيروشيما باليابان كانت ذات طاقة عشرين الف ت . ن . ت. وبها قتل ٧٨١٥٠ شخصاً وجرح ٣٧٤٢٥ شخصا وتشرد ١٣٠٨٣ شخصا . واما القنابل التي قد صُنعت في ايامنا الحاضرة ، فطاقة بعضها اكبر من طاقة القنبلة الملقاة على مدينة هيروشيما بخمسة آلاف مرة . فقل لي بالله ان حرباً اذا نشبت ـ لا سمح الله ـ بمثل هذه القنابل في ناحية من نواحي المعمورة ، فهل من الممكن ان يقدّر كم من بني الانسان سيلقون فيها حتفهم وكيف يقل بها عدد السكان فجاءة ؟ وهذا عين ما قد أهلك اليونان قبل ألف سنة. لقد راج الاجهاض وقتل الاولاد بين اليونان وبها ظل أفرادهم يتناقصون يوماً فيوماً ، وفي تلك الايام عينها نشبت بينهم حروب أهلية لقي فيها أكثر شبابهم حتفهم . وهذه الخسارة المضاعفة كسرت من شوكة اليونان بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك وأخيراً ضربت عليهم الذلة والعبودية لغيرهم

في عقر دارهم . ونفس هذا الخطر يتقدم اليه اليوم أهل الغرب بخطى واسعة ، ولا يبعد أن يكون الله إنما أحاطهم بمثل هذه الظروف ليقتلوا أنفسهم بأنفسهم ويخربوا بيوتهم بأيديهم ، ولكن مالنا - وعندنا العقل والبصيرة - أن نجر أنفسنا الى الهلاك والفناء بتقليد هؤلاء الضالين المضلين واتباع خطواتهم ؟

الخسائر الاقتصادية :

مما قد فندته التجارب والتحقيقات العلمية الحديثة ، الدعوى بأن تحديد النسل نافع من الوجهة الاقتصادية . فالفكرة التي قد رسخ ولا يزال الاعتقاد بها بسرعة فائقة بين أكثر علماء الاقتصاد اليوم تناقض هذه الدعوى وتقول بأن قلة السكان من أقوى وأهم أسباب الكساد الاقتصادي (Economic Depression) لأنه بانخفاض نسبة المواليد يقل عدد السكان المستهلكين (Consuming Population) عن عدد السكان المنتجين (Producing Population) ، مما تفشو به البطالة - كنتيجة منطقية - بين السكان المنتجين . وذلك أن السكان المنتجين لا يكونون مشتملين إلا على الشبان ، بينما يكون السكان المستهلكون مشتملين على الاطفال والشيوخ والعجزة (علاوة على الشبان) ممن لا نصيب لهم في الانتاج البتة . وهؤلاء إذا نقص عددهم نقص عدد المستهلكين بوجه عام ولا بد إذن أن يقل الطلب للمنتوجات وأن تقل فرص العمل في وجه المنتجين على قدر قلته . فنظراً لكل ذلك مازالت طائفة كبيرة من علماء الاقتصاد في ألمانيا وإيطاليا تؤكد الحاجة إلى توفير السكان بصفة خاصة .

واليوم ـ كذلك ـ توجد هناك طبقة من علماء الاقتصاد في أمريكا وبريطانيا تقدم نفس هذه الفكرة، وفي طليعة من يستحقون الذكر من أفرادها هم اللورد كينز (Lord Keynes) والاستاذ هانسن (Alvin Hansan H.) والاستاذ كولين كلارك والاستاذ ج د .ح. كول .(G. D. H. Cole)

يبين الاستاذ جوزف اسبنجلور (Joseph I. Spengler) الرأي الممثل لفكرة مدرسة كينز ـ هانسون بكلماته الآتية :

« ... وهذا إن كان يدل على شيء فانما يدل على أن الزيادة السريعة (Upsurge) في عدد السكان تكفل الزيادة السريعة في النشاط الاقتصادي ولا سيما إذا كانت القوى المنبسطة (Expensive Forces) أكثر نشاطاً من القوى المنكمشة (Contractive Forces) ومثل هذا سيحدث أيضاً في الحالة المضادة . والذي يبدو برأي العين أن الرأي الذي قدمه كينز وهانسون والذي يقول أن ليست الزيادة السريعة في البطالة إلا نتيجة للقلة المطردة في عدد السكان ، قد لاقى قبولاً عاماً ، وذلك أن القلة المخروطية الشكل ▽ في حجم عدد السكان تسبب من جانب القلة في حاجتنا إلى استثمار راس المال (Investment) لقضاء حاجات السكان المتزايدين ، ومن جانب آخر تحدث أثراً غير محمود في عدة مجالاتنا الاستثمارية الاخرى . فالحق أنه على قدر ما تهبط نسبة زيادة السكان تهبط نسبة استثمار رأس المال المتعلق

بالتوظيف الكامل (Full Employment) [1] ».

ويقول كولين كلارك :

« ولعل أكثر صناعاتنا في المجتمع الجديد سوف لا تستفيد إلا بزيادة السكان ، لأن الخطة التي تجري عليها معظم دوائرنا الاقتصادية اليوم هي أن السكان إذا تزايدوا واتسع حجم السوق ، فإن التنظيم - أي تنظيم السكان - سوف لا يزداد في اقتصاديته وبذلك سوف يزداد الانتاج الفردي ولا ينقص . ولو لم تكن أمريكا الشمالية وأوربا الغربية مكتظين بوفرة السكان ، لضاق المجال في وجه جزء كبير من صناعاتنا الجديدة وازدادت تكاليفنا للانتاج ازدياداً كبيراً ، بل كان خروج صناعاتنا هذه إلى عالم الوجود مما فيه النظر لو لم تكن عندنا زيادة السكان [2] .

فهذا البيان التفصيلي لمضار تحديد النسل ، الذي لا يقوم إلا على الارقام والاحصاءات الواضحة ، تفسير جزئي لقوله تعالى : (قَدْ خَسِرَ الذينَ قَتَلوا أوْلادَهُم سَفَهاً بغَيرِ عِلمٍ وحَرَّموا مارَزَقَهمُ اللهُ افتِراءً على الله). كما أن فيه ما يساعد على فهم قوله تعالى: (وإذا تَوَلّى سَعَى في الأرْضِ ليفْسِدَ فيها ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنّسلَ). ومن السهل عليك ، إذا جعلت

---

(١) كتابه « نظرية السكان» (Population Theory) المطبوع بإلينويس (Illinois) سنة ١٩٥٢ ، ص ١١٦ .

(٢) في مقاله « زيادة السكان ومستوى المعيشة » ـ (Population Growth and Living Standereds) ـ في مجلة « عرض العمالة الدولية » ـ (International Labour Review) ـ عددها الصادر في اغسطس ١٩٥٣ ص ١٠١ - ١٠٢ .

نصب عينيك ماذكرنا من المباحث العلمية في هذا الفصل ، أن تعرف لماذا أن الله سبحانه وتعالى قد عبّر عن جريمة إهلاك الحرث والنسل بكلمة « الفساد في الأرض » في هذه الآية ؟ كما أن هذه المباحث تساعد على فهم قوله تعالى: (ولا تَقْتُلوا أوْلادَكم خَشْيةَ إمْلاقٍ ، نحنُ نرْزُقُهم وإياكُمْ ، إنّ قتلَهم كان خِطْئاً كبيراً) . فما تدل عليه هذه الآية أن محاولة الحد من عدد الاولاد خشية الفقر والأزمة المالية ماهي إلا حماقة محضة .

هذا ، ونريد أن نأخذ بالبحث ، في الفصل الآتي ، الدلائل التي يعرضها مؤيدو حركة تحديد النسل دفاعاً عن فكرتهم الزائفة وموقفهم الباطل،وبهذا الصدد سوف نشرح ـ ضمناً ـ الأحاديث النبوية التي يستدل بها هؤلاء القوم على تحديد النسل .

إن الدلائل التي تعرض عامة الدفاع عن إباحة منع الحمل ، لا تقوم أكثرها إلا على أساس الظروف والملابسات التي خلقتها الحضارة الغربية، وإنما الوجهة التي ينظر بها مؤيدو حركة تحديد النسل هي أن المناهج الراهنة للمدنية والاجتماع والمبادىء السائدة للحضارة والاقتصاد كلها مما لا يقبل ـ ولا يمكن أن يقبل ـ شيئاً من التغيير ،ولكن مادام من الواجب ـ مع هذا ـ أن تبذل الجهود لعلاج المشاكل الناشئة من هذه المناهج والمبادىء الخاطئة ، فأسهل طريق لعلاجها ان تنظم الولادة ويوضع الحد لزيادة النسل . أما نحن فنقول لهؤلاء القوم ان عليكم أن تسلكوا سبيل

الإسلام وتتبنوا مايعرض عليكم من مبادىء للمدنية والحضارة وقوانين للاجتماع والاقتصاد ، فانكم بذلك لابد أن تحولوا دون نشوء الظروف والملابسات التي -لعلاج المشاكل الناشئة منها- تحاربون اليوم قوانين الفطرة .

ونحن مادمنا قد أشبعنا هذه المسألة بحثاً في الصفحات السالفة ، فلا نتعرض في الصفات الآتية الا للدلائل التي قد عرضها مؤيدو حركة تحديد النسل في كتبهم وخطبهم نظراً للظروف الانسانية العامة لا للظروف الراهنة في زمن مخصوص أو بلد بعينه .



دلائل المؤيدين لحركة تحديد النسل
في ميزان النقد

خطر قلة وسائل المعاش :

إن أول وأهم دليل يقدمه المؤيدون لحركة تحديد النسل والذي قد خدع الناس أكثر من أي دليل آخر ، هو : « أن المساحة الصالحة للسكنى على وجه الأرض محدودة ، كما أن وسائل الإنسان لكسب معاشه محدودة ، ولكن أهلية النسل الإنساني للنمو والزيادة غير محدودة. إن أكبر عدد من أفراد البشر يمكن أن يتسع وجهُ الارض لمعيشته بالمستوى المرتفع العادي هو خمسون بليون نسمة ، وإلى الآن قد بلغ عدد سكان الارض مايقرب من ثلاثين بليون نسمة ، ومعنى هذا أن الظروف إذا بقيت تجري في مجراها ولم يعرها تغير غير عادي ، فإن هذا العدد لسكان الارض سوف يتضاعف مرتين قبل أن تمضي عليه ثلاثون سنة ، وفي ذلك ما ينذر بأن الأرض سوف تكتظ بالسكان اكتظاظاً كاملاً بعد خمسين سنة، وإن النسل الانساني سوف ينحط مستواه المعيشة انحطاطاً مطرداً على قدر مايتزايد أفراده، إلى أن يتعذر عليه بآخرة أن يحيا حياة هادئة مطمئنة . فاللازم إذن لانقاذ البشرية من مواجهة هذا الخطر الباغت أن يوضع من التدابير الفعالة والقيود المؤثرة مايقوم في وجه تزايد أفرادها».

يقولون هذا ، وما هو في حقيقة أمره الا انتقاد لذات الخالق سبحانه وتعالى واعتراض على حكمته البالغة ونظامه المحكم في السماوات والارض . يظنون بالله أنه لا يعلم كثيراً مما يعلمونه أو يتوصلون اليه بقواعدهم الحسابية لأنه مادام لايعلم ما على وجه أرضه من المساحة الصالحة للسكنى، لايعلم العدد الذى يجب أن يكون لعباده الذين يخلقهم لسكناها :(يظنُّون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنّ الجاهليّة) .

لا يعرف هؤلاء المتعاقلون أن الله عز وجل ماخلق شيئاً في السماوات والارض الا على كمية محدودة :(إنا كلّ شيءٍ خلقْناهُ بِقَدَرٍ) وأنه لايصدر شيئاً من خزائنه الا بقدر معلوم:(وإنْ منْ شيءٍ إلا عِندَنا خزائنُهُ وما نُنزلُه إلا بقدَرٍ معلوم) . فمهما يكن من ظن هؤلاء القوم بالله وبأنفسهم ، فان من الحقيقة التي لاتقبل الجدل أن الذي خلق هـذا العالم وأبـــدع نظامه المحـكم ليس بجاهل ولا بطالب مبتدىء بفن الخلق والتنشئة : (وما كُنّا عن الخَلْقِ غافلين) ، وأنهم لو نظروا في آياته وأسرار حكمته في الآفاق وفي أنفسهم بعين البصيرة والعقل ، لتبين لهم انه اكمل منهم في تقديراته وحسابه . فقد خلق على هـــذه المساحة المحدودة من سطح أرضه أنواعاً لا عداد لها من خلائقه، وأودع كل واحد منها قدرة عاتية على التوالد والتناسل بحيث لو أرخي العنان في وجهه، بل في وجه نسل زوجين منه فقط ، لينموَ على هواه ويزيد من أفراده بكل قوته ونشاطه، لاكتظ به - وحده - وجه الارض من أقصاه الى أقصاه ولم يبق عليه شبر ما لنسل أي نوع آخر . فعلى سبيل المثال هناك نوع من النباتات يسمى (Sisymbrium Sophia) يوجد في كل شجرة من

أشجاره نحو ٧٥٠ ألف بذرة ، فلو ألقيت بذور شجرة واحـــدة من أشجاره - فقط - على وجه الأرض ثم تركت وشأنها تنبت على هواها لمدة ثلاثة أعوام ، لما بقي على وجه الارض شبر ما لأي نوع آخر من أنواع النباتات ولا الحيوانات، كما ان هناك نوعا من السمك يقال له (Star Fish) يبيض زهاء ٢٠٠ مليون بويضة في مرة واحدة . فلو أتيحت لفرد واحد من أفراده فرصة أن يزيد من نسله على هواه لامتلأت بذريته بحار الدنيا امتلاءاً كاملا ولم يبق فيها مكان لقطرة واحدة من الماء في مدة غير طويلة . لكن وما لنا نـذهب بعيداً ولا ننظر في قوة الانسان نفسه للنسل ؟

ان الماء الذي يفرزه كل رجل في كل اتصال من اتصالاته الجنسية، يمكن ان تحمل به مابين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون امرأة في آن واحد ، فلو ان القدرة التناسلية لرجل واحـد فقط وجدت في وجهها مجالا كاملا للاتساع والنمو ، لاكتظت الارض اكتظاظا كليا بأفراد نسله وحده في سنوات قلائل . ولكن من ذا الذي قد أقام الحاجز أمام هـذه القوة التناسلية العاتية منذ مئات الآلاف من السنين بحيث لم يدع نوعاً من أنواع خلائقه يتعدى الحدود المعينة لزيادة نسله وتـكاثر أفراده ؟ هل ترون كل ذلك لا يتم الا بتدابيركم العلمية وتجاربـكم الصناعية أم بحكمة بالغة من الله العليم الخبير ؟ بل الذي تشهد به تجاربـكم العلمية نفسها ان هناك قوة غير محدودة للنمو والازدهار في المادة ذات الحياة بحيث إن جسما واحداً من الجسيمات النامية ذات الخلية الواحدة (Uni - Cellular Organism) فيه من قوة النمو والتضخم مالو بقي ينال غذاءه بتسلسل كامل وأتيحت

له فرصة التفتت تلو التفتت ، لاستطاع في مدة خمسة أعوام فقط أن يولد من المادة ذات الحياة ما يكون حجمه أكبرُ من حجم الكرة الأرضية بعشرة آلاف مرة . ولكن من ذا الذي قد أقام سيطرته الجبارة على هـــذه الخزانة من قوة الحياة ؟ ومن ذا الذي يخرج من هذه الخزانة مخلوقات لا عداد لأنواعها ، وعلى قدر معلوم لا إفراط فيه ولا تفريط ؟

والانسان لو تدبر في هذه الآيات الالـهية، لما تجرأ ابدا على التدخل في نظام الخلق والحياة والموت ، لأن الحقيقة ان الوهم بالتدخل في هذا النظام لا ينشأ الا في أذهان الذين لا يتدبرون في آيات الله المبثوثة في الآفاق وفي الانفس . فهم حتى الآن ماتوصلوا الى ما لسعي الانسان وأعماله من الحدود ، ولم يعرفوا الحد الذي تنتهي عنده جهود الانسان وتجاربه وتبدأ بعده السلطة الالهية الخالصة التي لا يقدر الانسان على فهمها فضلا عن ان يتدخل في شأنها . ولذا فان الانسان عندما يحاول ان يتعدى الحدود المعينة لسعيه وعلمه ويتدخل في حدود النظام الالهي، فانه لا يحدث خللا في النظام الالهي ولكن يخلق في داخل نفسه مالا يأتي تحت الحصر من العقد النفسية والمشاكل الفكرية المرهقة . يقول على أساس تقديراته الهندسية : ان سكان البلد الفلاني لما قد ازدادوا بعشرة ملايين نسمة ـ مثلا ـ في مدة عشر سنوات ماضية ، فسوف يزدادون بخمسة عشر مليون نسمة أخرى في مدة عشر سنوات قادمة وهكذا إلى أن يتضاعف عددهم أربع مرات ـ مثلا ـ في مـدة مائة سنة قادمـة . ثم يقول في نفسه : من أين يأكل ويشرب مثل هذا العدد الضخم من السكان ؟ ومن أين يجد المكان

لسكناه مادامت وسائل الارض ومساحتها للعمران محدودة ؟ يفكر في هذه المشكلة ويطيل النظر في عواقبها الخيفة المتوقعة ، ثم يقوم من مقامه متبرماً متململا ليكتب المقالات ويلقي المحاضرات ويؤلف اللجان ويحاول أن يستلفت نظر العقلاء من قومه إلى إيجاد الحلول الحاسمة لهذه المشكلة الشائكة ، ولكنه في أثناء كل ذلك لايفكر أبداً : أن الله الذي خلق الإنسان ومازال منذ مئات الآلاف من السنين يسكن وجه الأرض بذراريه، هو نفسه لا بد أن يدبر هذه المشكلة ويوجد لها حلولا موفقة في المستقبل، وهل إذا أراد أن يهلك خلائقه ويكتب النهاية لبقائها على وجه الكرة الأرضية ، فهل يقوم في وجهه شيء ليردعه عن تحقيق إرادته ؟ الحقيقة أن ليس خلق السكان في العالم أو في بلد من بلاده ثم الزيادة أو النقصان في عددهم وتهيئة الاسباب لبقائهم الا مما يتعلق بحكمة الله ونظامه وحده : (وَمَا مِنْ دابَّةٍ في الأرضِ إلا على الله رِزْقُهَا ويَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها ومستودعها ، كُلٌّ في كِتابٍ مُبين) .

وهذا النظام الالهي للخلق وتهيئة أسباب الرزق يدبَّر وراء متناول عقل الإنسان ونظره . فالسرعة الهائلة التي ازداد بها سكان انكلترا منذ أواخر القرن الثامن إلى أواسط القرن التاسع عشر ، كانت قد أوقعت العقلاء من أهل أوربا في عالم من الحيرة والدهشة حتى ساورتهم الهموم المتتابعة : أي أرض يمكن أن تتسع لهذا العدد الضخم من السكان ؟ ومن أين يستطيعون أن يكسبوا رزقهم ؟ ولكن الدنيا ما لبثت إلا يسيراً حتى رأت بأم عينها ان السرعة التي ازدادت بها وسائل انكلترا المرزق والمعاش

والسكنى كانت أكبر بعدة أمثال من السرعة التي ازداد بها عدد سكانها وأن الشعب البريطاني مازالت تنفتح على وجهه مناطق واسعة للسكنى والمعاش في مختلف أرجاء العالم .

وسائل الارض الاقتصادية وزيادة السكان :

لقد كان السير وليم كروكس (Sir William Crooks) رئيس الجمعيـــة البريطانية (British Association) أنذر بالويل سنـــة ١٨٩٨ وقال متحدياً أن انكلترا وسائر البلاد المتحضرة في الدنيا مواجهة لخطر الجدب وقلة القمح، وان وسائل الدنيا لن تتمشى مع حاجات سكانها أكثر من ثلاثين سنة، ولكن الذين رزقوا البقاء إلى الثلاثين سنة بعـد ذلك الوقت رأوا في ما رأوا أن الدنيا ما نزلت بها نازلة كالتي كان قـد أنذرها بها السير وليم كروكس ، بل قـد زادت محاصيل القمح خلال هذه السنين زيادة هددت السوق بالكساد ، حتى أن الارجنتين وأمريكا احرقتا لاجلها كميات وافرة من قمحها .

إن الإنسان ـ لقصور نظره وضيق أفقه الفكري ـ يدق جرس الخطر مرة بعد مرة ، ولكن التاريخ يأبى في كل مرة إلا أن يثبت ضآلة علمه وفساد تنبؤه بمستقبله ويفتح عينيه على صدق الحقيقة القائلة بأن لا اعداد لإمكانيات النمو والازدهار التي قد أودعتها الفطرة باطن هـذه الكرة الارضية . وهلم لنستعرض في ما يلي ـ إلى حد وسائلنا المعلومة ـ مبلغ الصحة في الصيحات الطويلة العريضة التي تُعمَل اليوم لقلة وسائل المعاش في بلاد الدنيا عامة وفي بلاد الشرق خاصة .

١ ـ لنأخذ بالبحث أولا المساحة الصالحة للسكنى على وجه الكرة الارضية ... إن هذه الكرة الارضية تبلغ مسا حتها ٥٠ مليوناً و٧١٦٨ ألف ميل مربع ، ويبلغ عددسكانها ـ على حسب إحصائية سنة ١٩٥٩ ـ ٢٨٥٠ ملايين نسمة ، ومعنى هذا أن كل ميل مربع منها لا يسكنه حالياً إلا ٥٤ شخصاً بالمعدل ، وأن كل شخص يخصه نحو ١٢،٥ هكتار على حسب تقدير الاستاذ دودلي استامب (Stamp , Dudley) . ـ أي مساحة تساوي ثمانية ميادين لكرة القدم إذا جعلنا كل ميدان منها هكتاراً ونصف هكتار في طوله وهكتاراً في عرضه) .

وأمّا كم من الاشخاص تستطيع الارض أن تهيء المكان لسكنام ؟ فلنا أن نقدّر ذلك بأن ألف شخص في هولاندا و٨٥٣ شخصاً في انكلترا و ٢٢ ألف شخص في نيويورك يسكنون الآن في ميل مربع بكل سهولة، وأن هناك مساحات كبيرة من الارض لا يسكنها ولا يزرعها أحد في أكثر بقاع العالم . فما نسبة الارض المستغلة في الصين إلا ١٠٪ فقط ، كما أن ٦٢٪ من الارض الصالحة للسكنى والزراعة ـ اي نحو ١١٥٠ هكتاراً في غربي أفريقيا لا يسكنها ولا يزرعها أحد، كما أن البرازيل لا يُزرع من أرضها البالغة مساحتها ٢٠٠٠ مليون هكتاراً إلا ٢،٢٥٪ ، كما أن كندا لا تزرع من أرضها البالغة مساحتها ٢٣١٠ مليون هكتار إلا ٨٪ ، فما القول في مثل هذه الظروف بأن الارض قد ضاقت على سكانها ، إلا استهزاء بالحقيقة ومكابرة في وجهها .

ثم إننا إذا درسنا مع ذلك كثافة السكان (Density) في مختلف

أقطار الدنيا، علمنا أن فيها ميداناً واسعاً للرقي والتقدم لايزال ضحية الاهمال والتفاءل. وفي مايلي نذكر كثافة السكان في عدد من أقطار الدنيا بكل كيلو متر مربع. هولاندا ٣٤٥، بلجيكا ٢٩٧، انكلترا ٢١٣، ألمانيا ٢١٠، باكستان ٩١، مصر وسوريا ٢٣، الولايات المتحدة الامريكية ١٩، إيران ١٢، جنوب افريقيا ١٢، نيوزي لاند ٨، كندا ٢. وأما إذا ذكرنا هذه الكثافة حسب القارات بدلا من الاقطار، فهي (بكل كيلو متر مربع):

أوربا ٨٥، آسيا ٨٩، أمريكا ٩، أفريقيا ٨، استراليا ٢، أي بمعدل ٢١ شخصاً لكل كيلو متر مربع في مجموع الكرة الارضية.

وذلك ماله دلالة على أن هناك إمكانيات واسعة للتقدم وزيادة عدد السكان في أكثر بقاع العالم، بل إن التقدم الصناعي متوقف في أفريقيا واستراليا لقلة عدد السكان.

وعلاوة على هذه الاراضي هناك مساحات شاسعة من الصحاري والقفار والمستنقعات يمكن استصلاحها للزراعة باستخدام القوى العلمية والآلات الجديدة. فالاشخاص على قدر عدد السكان في أوربا كلها يمكن أن يسعهم حوض نهر أميزون (Amazon Basin) وحده. وفي هذا الشأن نجد أن كتاب «طارئة العالم الجديد» (New World's Emergency) للاستاذ باركر هانسون (Parker Hanson) زاخر بالمعلومات الوافية كأنه يفتح لقارئه المستبصر باب عالم جديد، كما أن كتاب «الإنسان ضد الصحراء» (The Man against the Desert) للاستاذ ريتشير كالدر

(Ritcher Calder) يطلعنا على مزيد من الامكانيات الجديدة في هـذا الشأن . ومما قد تناوله بالبحث : كيف يستطيع الانسان أن يتغلب على الصحراء ويجعلها خاضعة لارادته [1] .

الحقيقة ان ليس« ضيق الارض على سكانها » بمشكلة واقعية ولا من المشاكل المتوقع وقوعها ، وإنما تكاسل الإنسان وتخاذله وخور عزيمته هو الذي يدعوه إلى أن يقتل أولاده ويحد من نسله بدلاً من أن يبذل جهوده ويكد نفسه لاكتشاف الامكانات الجديدة لنموه وتقدمه .

٢ - والمشكلة الثانية هي مشكلة انتاج المواد الغذائية : ان ١٠٪ فقط من مجموع مساحة الكرة الارضية هو المزروع في الزمن الحاضر ، فاذا حذفنا من مجموع الـ ٩٠٪ الباقي مساحة الغابات والمرعى وما اليها ، فان ٧٠٪ على الاقل من مجموع مساحة الكرة الارضية لايزال غير مزروع؛ بل إن نفس المساحة المزروعة - ١٠٪ من مجموع المساحة الارضية - ليست مساحة الزراعة الكثيفة منها الا زهيدة جداً . وأما كيف وعلى أي قدر عظيم يمكن توسيع المساحة المزروعة ، فلك أن تعرف ذلك بالجدول الآتي :

---

(١) يكتب الاستاذ ايدون ملر (Muller) في عدد شهر أغسطس (آب) ١٩٥٧ لمجلة مختار القراء (Readers' Digest) الامريكية قائلاً : « إن اكثر من ربع المساحة اليابسة على وجه الارض صحراء في الزمن الجاري ، فنحن إذا عملنا على إخراج ذخائر المياه الدفينة في باطن الارض باستخدام الطاقة الذرية ومع ذلك اكتشفنا طريقاً رخيصاً لتحويل مياه البحر المالحة إلى المياه الحلوة ، استطعنا أن نحول الصحاري كلها إلى جنات نضرات تجري من تحتها الانهار» .

المساحة المزروعة والمساحة الصالحة للزراعة (بمليون كيلو متر مربع)

المنطقة	مجموع المساحة	الاراضي المزروعة في الوقت الحاضر		مزيد الاراضي الصالحة للزراعة						مجموع الاراضي الصالحة للزراعة	
				بالوسائل الحاضرة		برؤوس الاموال الجديدة		بالوسائل الجديدة التي يمكن اكتشافها			
		مساحتها	نسبتها من مجموع المساحة	مساحتها	نسبتها من مجموع المساحة	مساحتها الارضية	نسبتها من مجموع المساحة	مساحتها الارضية	نسبتها من مجموع المساحة الارضية	مساحتها	نسبتها من مجموع المساحة الارضية
اوربا (ماعدا روسيا)	٤٫٩	١٫٥	٣١٪	٠٫٥	١٠٪	٠٫٩	١٨٪	١٫٥	٣١٪	٤٫٤	٩٠٪
روسيا	٢٢٫٤	٢٫٢	١٠٪	١٫٨	٨٪	٤٫١	١٨٪	٦٫٩	٣١٪	١٥٫٠	٦٧٪
آسيا (ماعدا روسيا)	٢٧٫٠	٤٫١	١٥٪	٢٫٩	١١٪	٦٫١	٢٣٪	٧٫١	٢٦٪	٢٠٫٢	٧٥٪
افريقيا	٣٠٫٢	٢٫٤	٨٪	٢٫٦	٩٪	٧٫٤	٢٤٪	٩٫٥	٣١٪	٢١٫٩	٧٢٪
الولايات المتحدة وكندا	١٨٫٥	٢٫٣	١٢٪	٢٫٢	١١٪	٢٫٩	١٥٪	٤٫٤	٢٣٪	١١٫٨	٦١٪
امريكا الجنوبية والوسطى	٢٠٫٤	١٫٠	٥٪	٣٫٠	١٥٪	٥٫١	٢٥٪	٦٫٠	٢٩٪	١٥٫١	٧٣٪
اوشيانا	٨٫٦	٠٫٣	٣٪	٠٫٥	٦٪	١٫٧	٢٠٪	٣٫٠	٣٥٪	٥٫٥	٦٤٪
الدنيا كلها	١٣٥٫٠	١٣٫٢	١٠٪	١٣٫٥	١٠٪	٢٨٫٢	٢١٪	٣٨٫٤	٢٨٪	٩٣٫٩	٧٠٪

فما تدل عليه الأرقام المذكورة في هذا الجدول :

— أن ١٠٪ فقط من مجموع المساحة الارضية هو المزروع ، مع ان ٧٠٪ منها صالح للزراعة ، اي من الممكن أن يزرع ٦٠٪ منها بعد.

— وأن مساحة الأراضي المزروعة في الوقت الحاضر هي ١٣،٢ مليون كيلو متر مربع ، ومن الممكن ان تزرع مساحة ١٣،٥ مليون كيلو متر مربع أخرى بوسائل الزراعة الحالية ، كما انه من الممكن ان تزرع مساحة ٢٧،٢ مليون كيلو متر مربع أخرى ـ أي بنسبة ٢١٪ من مجموع المساحة الارضية ـ باستثمار رؤوس الاموال الجديدة وبالآلات التي قد اخترعت حديثاً وهي تحت الاستعمال اليوم في البلاد الغربية ، كما انه من الممكن ، فوق هذا وذاك ، أن تزرع مساحة ٣٨،٤ ـ أي بنسبة ٢٨٪ من مجموع المساحة الارضية ـ باختراع طرق جديدة للزراعـــة .

— وأنه من الممكن ان يقدّر بكل ذلك كيف لا تزال في العالم إمكانيات جديدة لترقية الزراعة وزيادة الانتاج الزراعي .

٣ — ومـــا يجب ان لا يعزب عن الاذهان بصدد تنمية الانتاج الزراعي ، ان ليست كل مناطق الدنيـا بمتساوية في خصوبتها ، فتستطيع المناطق ذات الانتاج الزراعي المتخلف ان تزيد من إنتاجها باستخدام الآلات الراقية الجديدة والاسمدة الجيدة . ان متوسط الانتاج الزراعي في كل هكتار في اليابان ثلاثة أمثال متوسط الانتاج الزراعي في باكستان وهو في هولاندا اربعة أمثاله ، وان الفلاحين في البلاد المتقدمة يزرعون

محصولين بل ثلاثة محاصيل في أرض بعينها ، كما انه من الممكن زيادة الانتاج الزراعي باتباع وسائل جديدة أخرى. ولك ان تعرف من الجدول الآتي الفرق بين مختلف مناطق الدنيا باعتبار الانتاج الزراعي في كل هكتار :

المنطقة	محصول القمح في كل هكتار بالطن	
	١٩٣٤ - ١٩٣٨	١٩٥٦
دانمارك	١،٢٣	١،٦٣
هولاندا	١،٢٣	١،٤٥
انكلترا	٠،٩٤	١،٢٦
مصر	٠،٨١	٠،٩٥
اليابان	٠،٧٦	٠،٨٥
باكستان	٠،٣٤	٠،٣٠
الهند	٠،٢٤	٠،٢٩

فمما يدل عليه هذا الجدول ان البلاد الشرقية تستطيع ان تزيد من إنتاجها الزراعي في كل هكتار ثلاثة او أربعة أمثال بالنسبة لوضعها الحالي، اذ ان البلاد الغربية قد زادت من انتاجها الزراعي زيادة عظيمة خلال الثلاثين سنة الماضية ، حتى ان نسبة هذه الزيادة هي ٣٠٪ في انكلترا .

٤ ــ ان انتاج المواد الغذائية إذا درسناه خلال الربع الاخير من قرننا الجاري ، علمنا ان زيادته أعظم بنسبة ملموسة من زيادة عدد السكان، فالزيادة في إنتاج المواد الغذائية وفي عدد السكان خلال الربع الاخير من

قرننا الجاري هي كما نذكرها في الجدول الآتي وفقاً لتقدير الاستاذ دودلي استامب :

	١٩٣٤ - ١٩٣٨	١٩٣٨ - ١٩٥٢	١٩٥٧ - ١٩٥٨
المواد الغذائية	٨٥	١٠٠	١١٧
عدد السكان	٩٠ (١٩٣٥)	١٠٠ (١٩٥١)	١١٢،٢ (١٩٥٧)

أي أن الزيادة في إنتاج المواد الغذائية ظلت أكثر من الزيادة في عدد السكان . ويقول دودلي : « انا اذا اعتمدنا على جدول مجموع إنتاج المواد الغذائية ، علمنا أن الزيادة في إنتاج المواد الغذائية أكبر من الزيادة في عدد السكان في الدنيا » .

وهذا ما يشهد بصحته أيضاً التقرير الأخير لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة . لقد كان جدول مجموع إنتاج المواد الغذائية «٩٤» سنة ١٩٥٢/٥٣ ، ثم ارتفع حتى وصل الى «١١٣» سنة ١٩٥٨ . وإذا أخذنا في الاعتبار زيادة عدد السكان فان جدول الانتاج الفردي يكون كما يلي :

الانتاج الفردي	سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣	سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩
المواد الغذائية	٩٧	١٠٦
مجموع الانتاج الزراعي	٩٧	١٠٥

وكذلك اذا درسنا زيادة الانتاج الزراعي في مختلف بلاد الدنيا على حدة ، فان سرعتها كما يلي :

المنطقة	١٩٥٢ - ١٩٥٣	١٩٥٨/١٩٥٩
آستريا	٩١	١٢١
اليونان	٨١	١٢٠
انكلترا	٩٥	١٠٥
امريكا	٩٨	١١٢
البرازيل	٨٩	١١٩
مكسيكو	٨٧	١٢٣
الهند	٩٠	١٠٥
اليابان	٩٧	١١٩
تونس	٩٥	١٣٧
مصر وسوريا	٨٦	١١١
استراليا	٩٨	١٣٠

فالزيادة في إنتاج المواد الغذائية ظلت أكثر من الزيادة في عدد السكان في كل هذه البلاد ، وهذا مايسير اليه الميلان العالمي بصورة عامة.

٥ — والذي يقدره المنصفون من علماء الاقتصاد نظراً لكل هذه الحقائق أن مشكلة قلة الإنتاج الغذائي والأزمة الاقتصادية لا إمكان لنشوئها في المستقبل القريب ولا في المستقبل البعيد . يقول الاستاذ ج. د . برنول :

« نقول على وجه التقدير ان سكان الدنيا سيتضاعف عددهم مرتين او

ثلاث مرات بعد قرن واحد ، أي سيصبح بين ٦٠٠٠ و ١٢٠٠٠ مليونا الى أواسط القرن الحادي والعشرين . وأيضاً فما نقدره في الوقت نفسه انه من الممكن إنتاج المواد الغذائية الكافية لقضاء حاجات هـذا المدد الضخم لسكان الدنيا بدون ضغط غير عادي على الوسائل الزراعية الحالية أي بمجرد أن يُتَّخَذ في جميع بلاد العالم الوسائل الزراعية المتلائمة مع ظروفها ، والتي لا يكون مستواها من الوجهة الفنية أقل من مستوى الوسائل الزراعية المستخدمة اليوم في البلاد نصف الصناعية ، أو بكلمات أخرى ليس هناك أي أساس لنشوء مشكلة قلة المواد الغذائية في العالم في مائة السنة القادمة ، وأما إذا حدثت مجدبة فإنها لا تحدث الا لحماقة الانسان أو أثرته ولا غير » .

وفي ما يلي نذكر النتيجة التي قد توصل اليها تقرير منظمة الأغذية والزراعة التابعة الامم المتحدة (Food and Agriculture Orgonization) بعد أن استعرض حالات الدنيا وظروفها الاجتماعية والاقتصادية منذ ١٩٤٥ الى ١٩٥٥ :

« فكل هذه الحالات والاحصاءات تزودنا بأساس قوي الاعتقاد بأنه ستحدث في الثلثين الباقيين من مناطق الدنيا خلال مائة السنة القادمة نفس النهضة الزراعية التي لم تحدث حتى الآن الا في ثلث مناطقها » .

ويقول الدكتور لاميرتاين (Dr. Lamartine) - واضع هذا التقرير - عن الزيادة في إنتاج المواد الغذائية :

« وإنه لما يبدو قاطعاً أن المؤثرات الشاملة لهذا البرنامج ستكون

بالنهاية أعظم حتى من تلك التقديرات التي قد أقامها حتى الآن غلاة المتفائلين بتقدم الدنيا في إنتاجها الزراعي ».

ومما قد جاء في تقرير آخر لمنظمة الأغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة :

« كل ما يوجد اليوم من الارتباك الفكري (Confusion) عن عدد السكان والغذاء والزراعة والصناعة ، إنما سببه الوحيد أن معلوماتنا عن وسائلنا الحالية والآتية ضئيلة جداً ، حتى يُخيّل إلينا حيناً أن قد حُسبت خصوبة الأرض وأهليتها للانتاج شيئاً مستنفداً (Exhaustible) كمنجم من مناجم الفحم عندما يكون على وشك الاستنفاد . نعم ، إن القضاء على هذه الخصوبة ممكن بقلة بعد النظر واستخدام الطرق الخاطئة الضارة بالزراعة ، ولكن من الممكن في الوقت نفسه استعادتها بل تنميتها . إن أفكار اليأس والقنوط والشؤم منتشرة فينا اليوم بصورة مفزعة، ولبابها أن الأراضي الصالحة للزراعة بلغت نهايتها ، إلا أن علماء الاقتصاد والخبراء الجدد بالشؤون الزراعية لا يوافقوننا على مثل هذه الأفكار القائمة على اليأس والقنوط والشؤم ».

بل إن الذي يدعيه الاقتصادي الشهير الدكتور كولين كلارك (Colin Clark) بناءً على معلومات وحقائق لا تقبل المكابرة :

« إن الإنسان لو استغل أرضه بالمهارة التي يستغلها الفلاح الهولاندي لأصبح إنتاجه الزراعي من المساحة المزروعة حالياً كافياً لـ ٢٨٠٠٠ مليون نسمة ، أي لعشرة أضعاف العدد الحالي لسكان العالم ، بحيث يعيشون جميعاً على مستوى يوازي المستوى المرتفع في غرب اوربا ».

وسائل باكستان الاقتصادية وعدد سكانها :

مما يجوز لنا أن نقوله بكل طمأنينة وجزم بالنسبة لباكستان على الأقل أن ليست أزمتها الاقتصادية إلا وليدة أعمالنا الخاطئة القائمـة على قصر النظر وأن ليست كثرة السكان وتضخمهم المتزايد فيها إلا من آثار رحمة الله حتى من الوجهة الاقتصادية البحتة . وفي هذا الصدد أريد أن أستلفت نظر المسؤولين فيها إلى الأمور المهمة الآتية :

(ا) من الواجب أن نميز بين الاقتصاديات المتقدمة(Delevopeed Económics) والتي منها في مرحلة التقدم(Developing Economics) لأننا نعلم من دراسة تاريخ العالم منذ قرنين ماضيين أن السكان في جميع بلاده الصناعية تزايدوا على صورة غير عادية أثناء مرحلتها الإنشائية، وأن تزايدهم هـــــذا كان عوناً كبيراً لبلادهم على دعم قوتها الاقتصـادية والسياسية ، وأن الثبات والتدهور ما أصابا عددَهم إلا بعد انقضـــــاء مرحلة الإنشاء والتعمير لا قبله . يقول الاستـاذ ف. ك. اورجانسكي (F . K. Organski) في إحدى مقالاته الحديثة.

« إن التضخم العظيم -- مطلق العنان – لعدد السكان كان له التأثير القوي والقول الفيصل في الارتفاع بأوربا وجعلها قوة من الدرجة الاولى في العالم . إنه لم يكن إلا من نتائج انفجار عدد السكان (Population Explosion) في أوربا أن تهيأت لها الأيدي لتسيير حياتها الاقتصادية الصناعية من جانب ، ومن جانب آخر ظل يتهيأ لها المهاجرون والجنود والعمال للانتشار في العالم وتسيير مختلف دولها المنتشرة في أصقاعه البعيدة

المترامية الأطراف حيث كان قد دخل في حوزتها السياسية نصف مساحة الكرة الارضية وثلث عدد سكانها ».

ويعرب كولين كلارك عن رأيه في هذا الشأن بكلماته الآتية:

« ولعل معظم الصناعات في المجتمع الجديد إنما تستفيد من تضخم السكان المتزايد ».

ويبين الاستاذ تامسن الحقيقة التاريخية الآتية:

« إن أول تأثير ظهر لزيادة قدرة الإنسان على الانتاج، أن كثر في العالم عدد السكان المنتمين بأصلهم إلى الغرب بأقصى سرعة، وأنهم مازالوا يتزايدون بدون انقطاع (Un - Interupted) قرابة قرن واحد ».

فالذي يحتمه علينا كل هذا أن لا نتفكر في مشاكل الاقتصاد المجتاز لمرحلة التقدم على ضوء مشاكل الاقتصاد المتقدم، إذ لا بد للاقتصاد ما دام في مرحلة التقدم أن يكون ازدياد السكان فيه بسرعة غير عادية، ومن الممكن أن تكون سرعة زيادة الانتاج فيه عدة أمثال سرعة زيادة السكان، وهذا ما تشهد به تجارب الدنيا.

إن التضخم المتزايد لعدد السكان ليست منافعه للاقتصاد المتقدم مما يستهان بشأنه، ولكن منافعه للاقتصاد الذي لا يزال في مرحلة التقدم لا تقف عند حد معلوم، فلا يقول بأن تضخم السكان عبء اقتصادي (Economic Bunden) إلا من تعامى الحقائق ولم يرد بخلق الله إلا الشر والعداء.

(ب) إن لزيادة أفراد الاسرة أهمية كبرى بالنسبة للمزارعين

والمشتغلين بالزراعة . فالذين ليس عندهم إلا العلم الكتابي وهم لأجل هذا يقلقون بشموذة الارقام السطحية ، من المسير عليهم - ولاشك - أن يدركوا هذه الحقيقة . ولكن الذين يدرسون الظروف والاوضاع على حقيقتها ، لا يخفى عليهم أن الزيادة في أفراد أسرة مشتغلة بالزراعة نعمة كبرى من الوجهة الاقتصادية ، وأنه لا بلاء أعظم بالنسبة لهذه الاسرة من أن يكون أفرادها في قلة فيضطروا إلى استئجار غيرهم لمعاونتهم في أعمال الري والزراعة والحصاد وما إليها . وقد بدأ يشعر بهذه الحقيقة على أتم وجه علماء الاقتصاد في البلاد الغربية أنفسهم. يقول الاستاذ بيرجل (Egon Ernest Bergel) مثلا :

« إن الذرية أصل من الاصول الاقتصادية (Economic Assets) بالنسبة للفلاح ، ومسؤولية من المسؤوليات الاقتصادية (Liabilies) بالنسبة لسكان بلدته ، وإن الفلاح على قدر مايكون عليه من الفقر وضيق ذات اليد ، يكون على قلة الاحتمال لظاهرة كونه بدون ذرية . وانه لاصعوبة أبداً في بيئة ريفية في تهيئة المكان والغذاء واللباس لطفل جديد ولا في تنشئته وتربيته ، لأن المزرعة لهي المكان الذي تستطيع فيه المرأة ان تؤدي أعمالها بكل سهولة جنباً إلى جنب مع عنايتها بطفلها » .

وهذا الرأي عينه يبديه الأستاذ آرنولد جرين (Arnold Green) على أسلوب متغاير بكلماته الآتية ، يقول :

« لقد كانت الذرية في النظام الريفي القديم للأسرة تقوم بخدمة أبيها على ثلاث صور :

١ – ما كان الطفل يلبث إلا يسيراً حتى يشتغل في المزرعة ، فكان بذلك وسيلة اقتصادية (Economic Asset) لأبيه .

٢ – وكان يضمن له ضماناً اقتصادياً أيام هرمه .

٣ – وكان يهيء له طمأنينة قلبية وراحة نفسية بأنه سيحافظ على نسبه ومكانته الاجتماعية » .

إن باكستان التي لا يحترف ٧٥٪ من سكانها إلا بالزراعة ، من المحال عليها أن تحتمل إصابة جهودها الزراعية بقلة الأيدي العاملة ، فما قياس مشاكلها وحاجاتها على أوضاع البلاد الغربية ، المتقدمة في اقتصادياتها ، إلا ضرب من الحماقة وخرق الرأي .

(ج) إن عدد سكان باكستان بموجب الاحصائية الأخيرة هو ٩٣ مليوناً و ٨٠١ ألفاً و ٥٥٦ شخصاً ، وإن متوسط كثافتها ٢٥٦ شخصاً في كل ميل مربع . ولكن لما كان تضخم السكان في اقليمها الشرقي أعظم منه في اقليمها الغربي ، فالفرق كبير بين كثافة اقليميها ، فبينما يسكن ٩٩٢ شخصاً في كل ميل مربع في اقليمها الشرقي لا يسكن في كل ميل مربع في إقليمها الغربي إلا ١٣٨ شخصاً . فنحن إذا قارنا بين هذا الوضع وبين أوضاع البلاد الاخرى في العالم ، علمنا بكل وضوح ان عدد السكان في اقليم باكستان الغربي قليل نسبياً وان ليس هناك وضع غير عادي في باكستان بمجموعها لأن كل ميل مربع يسكن فيه ٨٥٣ شخصاً في انكلترا ، وقرابة ألف شخص في هولاندا ، وغير خاف ما هم عليه من المستوى المعيشي المرتفع ، ونحن اذا لم ناخذ في الاعتبار الا المساحة الصالحة للزراعة في اليابان – وهي ١٧٪ فقط من مجموع مساحتها – فهناك أكثر

من ثلاثة آلاف شخص يسكنون في كل ميل مربع في اليابان ، وفي ما يلي نذكر كثافة عدد من بلاد الدنيا بالسكان في كل ميل مربع بالنسبة لمساحتها الصالحة للزراعة فحسب :

امريكا ٢٩٣ ، سويد ٤٨٩ ، فرنسا ٥١١ ، الهند ٧٨٦ ، ايطاليا ٩٣٦ ، بلجيكا ٢١٥٥ ، هولاندا ٢٣٩٥ ، سويسرا ٢٤٠٦ ، اليابان ٣٥٧٥ .

فمن الممكن بذلك ان نقدر الامكانيات الواسعة التي لا تزال موجودة في بلادنا ـ باكستان ـ لتزايد سكانها . فما دام عدد السكان في كل ميل مربع في هولاندا أربعة أمثالنا ، وعددهم في اليابان خمسة أمثالنا ومع ذلك ليس عددهم فائضاً ولاهم يشكون من زيادة السكان ، فمن أين قد ضاقت علينا أرض بلادنا ؟ الحقيقة أن «مشكلة ضيق الارض» هذه إن كان لها وجود فإنما هو في أذهان المغرضين وقلوبهم ، وما هو البتة على أرض بلادنا .

(د) إن ٢٦٪ من مجموع مساحة باكستان هي المزروعة فقط ، وان ١٣٪ منها يمكن استغلالها للزراعة بمجرد استخدام الوسائل الزراعية الحالية ، وان ٢٤٪ منها ماتم تخطيطها (Survey) حتى الآن ولكن يقدر ان معظمها صالحة للزراعة او يمكن استصلاحها للزراعة ببذل جهود يسيرة . فالذي يدل عليه هذا الاستعراض أنه من الممكن ان يضاف الى المساحة المزروعة في باكستان مايقرب من ١٥٠٪ في مدة غير طويلة. أفهذا هو ضيق الارض ؟

(هـ) إذا أخذنا في الاعتبار معدل محصول الهكتار من القمح في بلادنا وفي بلاد العالم الاخرى ، علمنا اننا لانزال من الامم المتخلفة . فاذا أدخلنا التحسين على وسائلنا الحالية للزراعة فسوف ان يتضاعف إنتاجنا الزراعي عدة أمثال بالنسبة لمقداره في الايام الحاضرة . ان محصول الهكتار من القمح في بلادنا هو ٢٠٪ من محصول الهكتار من القمح في هولاندا ، و٢٥٪ من محصول الهكتار من القمح في ألمانيا وانكلترا ، و٣٣٪ من محصول الهكتار من القمح في اليابان ومصر[١] . فلماذا لا نستطيع نحن أن نرفع مستوى إنتاجنا الزراعي حتى يوازي مستوى البلاد الاخرى التي قد رفعته ولاتزال تتابع جهودها لرفعه ؟

وهناك طريق دولي لمعرفة الانتاج الزراعي في كل بلد من بلاد العالم يعرف بـ س. ن. ي. (S. N. U.) فالاستاذ دودلي استامب يقارن بين مختلف بلاد العالم بهذا الطريق ثم يقول :

---

(١) ان معدل محصول الهكتار من القمح والارز هو كما يلي في مختلف بلاد العالم (بالطن) :

القمح (١٩٥٦)		الارز (١٩٥٦)	
دانمارك	٣،٦٣	اسبانيا	٢،٣٥
هولاندا	٣،٤٥	ايطاليا	٣،٩٠
بلجيكا	٣،٢٨	استراليا	٢،١٤
انكلترا	٢،٢٦	مصر	٢،٢٠
مصر	٠،٩٥	اليابان	٢،٧٠
اليابان	٠،٨٥	باكستان	٠،٦١
باكستان	٠،٤٢		

(الكتاب المذكور للاستاذ دودلي استامب ص ٧١ ـ ٧٦)

« ومادام اليابانيون ينتجون في كل هكتار ما بين ٦و٧ س . ن . ي. وهي تساوي ٤٠٠٠ في كل ميل مربع فإننا نستطيع القول بانه من الممكن كفالة ٤٠٠٠ شخص بميل مربع من الارض المزروعة ».

(و) ثم هناك بعد ميدان الزراعة ميادين التجارة والصناعة ، التي نستطيع أن نبلغ بها أعلى قمة من الرفاه الاقتصادي ونجعل امكانياتنا للتقدم لا تعرف الحدود . ان الانسان اينسى أن كل من يأتي إلى الدنيا ، لسنا نحن الذين نرزقه وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي يرزقه ، وأنه لا ينال نصيبه من رزق الله المبثوث على وجه الارض إلا بكده وكفاحه ، ولعمر الحق اننا على قدر ما نتفكر في الوسائل والحقائق الاقتصادية ، نزداد شعوراً بأن لا مبرر أبداً لاتخاذنا خطة مودية بحياة بني الانسان . إن أتباع مالثوس إنما يعرضون الدنيا على وجهة واحدة من صورة الحقيقة ، ولا يقدمون إلى الدنيا باسم الحقائق الاقتصادية إلا دعاوى فارغة لا يزودها علم الاقتصاد نفسه بأساس من الصحة . ولذا فان الاستاذ كولين كلارك يرمي أتباع مالثوس بجهل علم الاقتصاد ويشير إلى هذه المكامن للضعف فيهم بكل جهارة . ومما قد كتب في هذا الشأن :

« يقول هؤلاء - ويعني أتباع مالثوس - ان وجهة نظرهم علمية خالصة ، فهي إذا كانت هكذا في واقع الأمر ، فمن الحقيقة في الوقت نفسه أن ليست على وجه الكرة الارضية طائفة أخرى من علماء العلوم التجريبية تساوي الطائفة المالثوسية في ضآلة معلوماتها عن الحقائق التي تأخذها بالبحث والمناقشة . إن الطائفة المالثوسية على جهل تام حتى

بالحقائق الاساسية البسيطة عن عدد السكان، والذين من أفرادها عندهم معلومات عن عدد السكان ، هم ضحايا الجهل بعلم الاقتصاد على وجه كلي تقريباً » .

إن شخصاً ما إذا كان لا يزال يتخبط خبط عشواء في قضية السكان وتزايدهم على رغم دراسة كل ما ذكرنا آنفاً من المعلومات الوافيــة والحقائق الثابتة ويقول « أين يسكن هؤلاء؟ ومن أين يكسبون معيشتهم» فانه بقوله هذا لا يدل إلا على بلادة ذهنه وارتباك فكرته ، لأن الانسان ليس من وظيفته أن يتفكر إلا في ضمن دائرة الأعمال الانسانية، وأنه متى حاول التدخل — جهلاً وغباوة — في دائرة النظام الإلهي ، فلا بد أن يخلق لنفسه ما يستصعب عليه حله من المشاكل المرهقة والمصاعب العاتية.

بدل الموت :

مما يعترف به دعاة تحديد النسل أن الفطرة بنفسها تتولى الاهتمام بتنظيم النسل ووضع الحد المناسب لتضخم أفراد كل نوع من أنواع الخلائق، وأن اهتمامها هذا شامل للنوع البشري أيضاً ، ولكنهم مع ذلك يقولون أن الفطرة إنما تتولى هذا النظام وتقوم بوظيفتها عن طريق الموت وفيه ما فيه من الآلام الروحية والجثمانية للانسان ، فما لنا إذن - يقولون - أن لا نحاول فرض الحظر على السكان وإقامة الحواجز في وجه تزايدهم بوساطة تدابيرنا الوقائية .

وهنـــا مرة أخرى يرتكب هؤلاء القوم جريمة التدخل في النظام الإلهي . فهل يحسبون أن بوسع تدابيرهم الوقائية أن تضع النهاية للحرب

والأوبئة والأمراض والفيضانات والزلازل وحوادث القطر والسيارات والطائرات والسفن ؟ أم قد عهدوا إلى الله — أو إلى الفطرة بزعمهم — أنه سيعزل ملك الموت عن منصبه وينهاه عن أداء وظيفته التي قد وكلت إليه متى شرعوا في تطبيق تدابيرهم المصطنعة لتنظيم النسل ، فإذا لم يكن الأمر كذلك ـ وما هو كذلك أبداً ـ فماذا سيكون من مصير الإنسانية؟ وأين تبلغ مصيبتها عندما تغدو عرضة لتدابير هؤلاء لتحديد النسل من جانب ولأعمال ملك الموت من جانب آخر ؟ إنكم من جانب تقللون أفرادكم بأيديكم ومن جانب آخر لا بد أن تكتسح الزلازل والفيضانات وحوادث الحريق والصدام آلافاً مؤلفة من بني البشر ، كما أن آلات الحكم العلمية الجديدة لا بد أن تقضي بالموت على ملايين منهم في الحروب، وفي الوقت نفسه لا يزال ملك الموت يتوفاهم فرداً فرداً . فهل تستطيعون أن تتبينوا بقواعدكم الحسابية : إلى متى ستطول الحياة بخزانة تكون مصروفاتها أكثر من إيراداتها بصفة متصلة[1] ؟

---

(١) كان عدد السكان في اوربا وحدها ـ ماعدا روسيا ـ قد نقص ٢٢ مليون و ٤٠٠ الف نسمة بسبب الحرب العالمية الأولى . وهذا العدد مشتمل على الموتى من الجنود ومن السكان المدنيين الزائدين عن النسبة العامة وعلى نقص ١٢ مليونا و ٦٠٠ الف نسمة كنقص في المواليد (Birth Deficit) . وفي روسيا نقصت عشرة ملايين مولود بسبب الحرب العالمية الاولى وبسبب الثورة الشيوعية . وفي المانيا مات في الحرب العالمية الاولى حوالي مليون و ٩٠٠ الف من سكانها ، ونقص فيها مليونان و ٥٠٠ الف مولود بسبب الافتراق بين الازواج والزوجات ، كما نقص فيها مليون و ٦٠٠ الف مولود بسبب هبوط نسبة المواليد أيام الحرب ، ويقدر من لقي حتفه من سكانها في الحرب العالمية الثانية بتسعة ملايين و ٥٠٠ الف نسمة ، ولهبوط نسبة المواليد نقص في فرنسا وحدها نحو مليون و ٢٠٠ الف مولود . وأما بلجيكا فكانت حالتها أسوأ حتى من حالة فرنسا وألمانيا . فبناء على ذلك يقال ان الحرب تنقص=

دعوا الجواب عن هذا السؤال ، ولكن قولوا : هل عندكم مقياس لوضع الحد المناسب لمدد السكان ؟ وإن كان - على فرض المحال - فهل أنتم قادرون على أن لا تنجبوا الأطفال إلا على قدر ما يقتضيه هذا المقياس ولا تحولوا إلا دون ولادة الأطفال الفائضين عن الحاجة ؟ كلا ! إن الجماهير إذا نشأت فيهم عقلية قائمة على الأثرة وحب الذات والانانية وكانوا مع ذلك على حرية تامة في أن يقضوا : « هل يحتاجون أو لا يحتاجون إلى الأطفال » بناء على ظروفهم ورغباتهم الشخصية ،وكانت طرق منع الحمل ووسائله العملية في متناول أيديهم بكل سهولة ، فانهم لا يقفون أبداً عند حد مناسب أو غيرمناسب في تقليل عددهم .لا حاجة إلى القياس والتقدير ، إذ أن التجربة بنفسها تشهد بأن أي بلد من بلاد

=من عدد السكان لا في ميدان الحرب فحسب ولكن في بيوت البلاد المحاربة أيضا ، ولا في الجيل المحارب فحسب ولكن في الاجيال المتعاقبة أيضا . (راجع : كتاب « المشاكل الاجتماعية » للاستاذ وليندوس ، ص ٦٧٧ - ٦٧٨) .

ولنا ان نقول مثل هذا بالنسبة لحوادث الجدب والقحط ايضا . إن ٥٠٠ الف شخص لقي حتفه لأجل القحط الذي حدث في الصين عام ١٩٢٠/٢١ ، وقد أحيط حوالي ستة ملايين شخص بالفيضانات وحوادث القحط حتى ابتلع عفريت الموت نحو مليون شخص منهم في وادي نهر زروكي في الفترة بين ١٩٤٠ - ١٩٤٣ ، وقد تعرض سكان اليونان كلهم لخطر الفناء والانقراض الكلي حتى مات عدد عظيم منهم على رغم مابذلت جمعية الصليب الاحمر من جهودها المتتالية لانقاذهم وذلك في الفترة بين ١٩٤٣ / ٤٦ ،كما أن سلسلة حوادث الموت لاتزال بسبب الاوبئة والامراض السارية ، فقد اجتاحت الانفلونزا نحو ٥٠٠ الف شخص في امريكا سنة ١٩١٨ ، ١٩١٩ ، ونحو ١٥ مليون شخص في الهند وسبع عدد السكان في تاهيتي (Tahiti) حتى لتكاد تكون حوادث الموت بسبب الامراض اكثر عدداً من حوادث الموت بسبب الحروب .

العالم ـ مهما كان بالغاً في الحضارة المدنية والثقافية ـ ما استطاع أن يضع حداً مناسباً مثل هذا لقلة عدد سكانه وينهى الجمهور عن اجتيازه . ثم هل تستطيعون بعد كل هذا وذاك أن تبينوا لنا طريقاً تتسلحون به للتدخل في النظام الإلهي ، ذلك النظام المحكم الذي بنفسه يتولى الاهتمام بوضع حد مناسب لعدد السكان في كل بقعة من بقاع العالم ثم يزيد فيهم أو ينقص منهم ما يشاء على ما يقتضيه تقديره المحكم القطعي ؟

حيلة اقتصادية :

والدليل الثالث الذي يقدمه مؤيدو حركة تحديد النسل : أن الآباء من ذوي الدخل المحدود ليس بوسعهم أن يكفلوا الوسائل الكافية لتنشئة أولادهم نشأة طيبة وتعليمهم تعليماً عالياً وتربيتهم تربية جيدة وجعلهم يبدأون حياتهم بدءاً رائعاً ، وأن الاطفال عندما يجاوز عددهم حدود استطاعة آبائهم أو يولد الاطفال المتعددون لدى الآباء الفقراء المعوزين ، فإن مستواهم للمعيشة لا يكون إلا منخفضاً جداً ولا يكون كل شيء من نشأتهم وتعليمهم وتربيتهم وغذائهم ولباسهم إلا رديئاً ناقصاً وهم لا يجدون أمامهم طريق الرقي والتقدم في الحياة إلا مسدوداً . لذا ـ يقول هؤلاء ـ فلأن يكون عدد الاطفال محدوداً بحدود استطاعة الآباء وتوقف سلسلة إنجابهم في مثل هذه الظروف الاقتصادية المتدهورة ، خير من أن تتكرر ولاداتهم ويزيدوا ـ هكذا ـ من وطأة الفقر والبؤس والبطالة على مجتمعهم ، إذ لا يمكن أن يكون هناك طريق أنجع من هذا لخدمة المصلحة الاجتماعية في مثل هذه الظروف .

إن هذا الدليل بما له وجاهته في ظاهر الأمر ،لذا فقد صادف هوى من نفوس كثير من الناس ، ولكن ليس ضعفه في حقيقـة الأمر بأقل من ضعف الدليلين السابقين . إن « كلمات التعليم العالي » و « التربيـة الجيدة » و « النشأة الطيبة » و « البدء الرائع للحياة » كلها من الكلمات المبهمة وما لواحدة منها مفهوم واضح معلوم يستـــوي فيه جميع أفراد المجتمع ، بل هو في ذهن كل رجل غيرُه في ذهن رجل آخر ، لأن المستوى الذي يقرره كل رجل لهذه الكلمات في نفسه لا يقوم على أساس تشخيصه الصحيح لظروفه ووسائله وإمكانياته وإنما يقوم على طمعه في أن يبلغ مستوى كمستوى من يراه أكثر منه سعـة ورفاهة ، فهو ما دام متمنياً للنشأة الطيبة والتعليم العالي والتربية الجيدة والبدء الرائع مع هذا المستوى الفاسد لهذه الكلمات في ذهنه، فلا بد أن يحكم بأن عليه أن يقتصر على طفل أو طفلين ، بل لا بد أن يحكم بعض الأحيان بأن عليه أن لا ينجب طفلاً أبداً . ذلك لأن الناس تكون دائرة أمانيهم دائماً أوسع من دائرة وسائلهم وأن الأمور التي يرجئونها إلى تحقق أمانيهم ، كثيراً ما لا تخرج إلى حيز الوجود أصلاً .

وما هذا الذي قلناه بنظرية مجردة أو فكرة فارغة ، بل هو حقيقة ثابتة واقعية ، إذ هناك مئات الآلاف من الأزواج والزوجات في أوربا لا يحبون أن ينجبوا طفلاً لمجرد أن المستوى الذي قد قرروه في أذهانهم لتعليم أولادهم وتربيتهم ونشأتهم هو من العلو حيث لا يستطيعون بلوغه.

وفوق هذا فإن هذا الدليل فاسد من حيث المبدأ أيضاً . انه لمما لا ينفع الامم بل يضر بها أن تكون معظم نشأة أجيالها على الدعة والسعة

والرفاهة، ولا تجابه في حياتها الكد والكفاح والفقر والفاقة والمصاعب والمتاعب، لأن هذا لا بد أن يغلق تلك المدرسة الكبرى، مدرسة الزمان، التي تعنى بتعليم الانسان وتثقيفه وتربيته على أحسن وجوه التعليم والتثقيف والتربية، والتي ما أقامها الله سبحانه وتعالى إلا ليختبر صبر الانسان واستقامته وهمته وقوته المعنوية، ولا يحكم بالنجاح في الحياة إلا على الذين يجتازون مرحلتها ظافرين مستبشرين: (ولنبلونّكم بشيء من الخوفِ والجوعِ ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثمراتِ وبشرِ الصابرين) وإن هذا لهو الأتون الذي يتميز فيه الخبيث من الطيب والزائف من الخالص، ولا تصب فيه المصائب والأهوال على الانسان إلا ليتدرب على الصمود في وجهها، ولا المحن والشدائد إلا ليصارعها ويبذل جهده للتغلب عليها، ولا الأزمات والضائقات المالية إلا ليتخلص مما فيه من مكامن الضعف وخور العزيمة ويبرز إلى ميدان الجهد والسعي والكفاح ما فيه من القوى والمواهب المستترة. فالذين لا يدخلون معركة الحياة إلا عن طريق التخرج في هذه المدرسة، هم الذين يقومون في الدنيا بجلائل الأعمال ويثبتون أسماءهم في جدول عباقرة العالم في الأدب والفن والعلم والحكم. فهل تريدون يا عقلاء القوم بدعوة الناس إلى تحديد النسل أن تغلقوا عليهم هذه المدرسة وتحيلوا الدنيا إلى موضع من مواضع اللهو والطرب حتى لا تنشأ فيها أجيالكم إلا على عبودية النفس ودناءة الهمة وسقوط المروءة والهيبة والجبن والخيانة في أداء الواجب؟ وهل تتمنون بالنسبة لأجيالكم أن لا تفتح عيونها إلا على الدعة والسعة ولذائذ العيش ومتع الحياة ولا تتلقى التعليم إلا في

المدارس الفخمة ولا تسكن إلا في البيوت الشامخة ولا تخطو خطوة في ميدان الحياة إلا بأن تكون لديها ثروة كافية لبدء الحياة على طريق لامع رائع، ومع ذلك ترجون أن يكون النجاح رفيقها والتوفيق حليفها وتتلألأ في سماء التقدم والازدهار أسماؤها ؟ كلا ! إنكم لن تخلقوا في الدنيا بمثل هذا التعليم والتربية إلا حيوانات من الدرجة الثالثة أو من الدرجة الثانية على الأكثر ولن تخلقوا فيها أناساً من الدرجة الاولى . وأما إذا أبيتم أن تصدقوني في ما أقول ، فارجعوا أبصاركم إلى تاريخ الدنيا وحياة من عاش فيها من العظماء والعباقرة في العلم والأدب والفن والحكم ، فلن تجدوا ٩٠٪ منهم إلا ممن ولدوا في مهاد العدم والعوز ونشأوا في حجور الالم والفاقة ولم يقضوا أيام شبابهم إلا بكبت الآمال وقتل الرغبات والشهوات ، حتى أُلقوا في خضم الحياة الزاخر بدون ما متاع . فالامواج هي التي علمتهم السباحة، والصدمات هي التي دربتهم على شق الطريق حتى أبوا إلا أن ينصبوا راية علوهم على ساحل النجاح والتوفيق .

دلائل أخرى :

وهناك بعد هذه الدلائل الثلاثة المهمة ، ثلاثة دلائل أخرى من الدرجة الثانوية ، وها نحن أولاء نذكرها ثم نرد عليها باختصار في ما يلي:

يقولون إنه من الممكن بتنظيم النسل أن ينجب الاولاد من النوع الاعلى ، ممن تكون صحتهم جيدة وقواهم متينة وتكون فيهم المواهب والاستعدادات للعمل موفورة .

ورداً على هذا نقول إن المفروض الذي تقوم عليه الفكرة القائلة

بأن ذرية الانسان ما دامت مقتصرة على طفـل أو طفلين ، تكون قوية ذات صحة جيدة وذكاء موفور ، وأنها إذا تعددت تكون كلها ضعيفـة مريضة بليدة ... إن هذا المفروض لا يستند إلى دليل عقلي ولا تؤيده نتائج الاختبارات والمشاهدات التي قد أجريت في هذا الشأن حتى الآن، فما هو إلا مجرد ظن يفنده ما لا عداد له من البراهين والشهـادات في عالم الواقع .

الحقيقة أنه من المحال أن تقرر قاعدة قطعية بشأن ولادة الانسان ، إذ ليس كل ذلك إلا بيد الله العليم الخبير ، فهو الذي يخلق عباده متى يشاء وكيف يشاء : (هُوَ الذي يصوِّرُكُمْ في الأرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ) ، ولا يدخل في وسع الانسان ودائرة اختياره أن ينجب ذرية سليمة قوية ذكية، ويجنب نفسه ذرية ضعيفة غبية .

ومن هذا القبيل الدليل القائل بأن تنظيم النسل ينقذ الانسان من إنجاب وتنشئة أطفال لاتحتاج إليهم الدنيا ولا يُجدُون عليها بشيء نافع أو يموتون قبل أن يدخلوا سن البلوغ .

ونقول : إن هذه الفكرة كانت صحيحة جديرة بالقبول لو كانت لدى الانسان وسيلة يعرف بها ماهي الطباع والصفات والمزايا التي يحملها كل مولود يخرج إلى نور الحياة ؟ وما مبلغه من الفطنة والذكاء أو البلادة والغباوة؟ وهل سيموت قبل أن يدخل سن البلوغ أو ستطول به الحياة إلى الشباب والكهولة والشيخوخة ؟ وهل سيكون بقاؤه راجحاً على الانسانية بالنفع

أم بالمضرة ؟ فما دام كل ذلك خافياً على نظر الانسان وعقله ، فمن الحماقة أن يقرّر في هذا الشأن رأياً بمجرد رجمه بالغيب .

وأيضاً مما يقوله بعض المؤيدين لحركة تحديد النسل أنه بتكرار الولادة وتعدد الأطفال تتدهور صحة المرأة ويقل جمال وجهها ورشاقة تكوينها ، ولكن الحقيقة — كما قد بينا في الصفحات الماضية — أن ليست الوسائل الصناعية لتحديد النسل هي الاخرى غير ضارة بصحة المرأة ، بل إنها لا تقل عن تكرار الولادة وتعدد الأطفال إحداثاً للتأثيرات السيئة في صحة المرأة وجمال وجهها ورشاقة تكوينها ، وإنه من المحال من الوجهة الطبية أن توضع قاعدة عامة يعرف بها بالنسبة للمرأة : كم من الاطفال تستطيع حملهم وإنجابهم ، إذ لا يتوقف كل ذلك إلا على الظروف الشخصية لكل امرأة على حدة . فإن كان من مشورة الطبيب في امرأة بعد اختباره حالتها الصحية أن آلام الحمل والوضع فيها خطر على حياتها ، فليس من الحرام — ولا شك — أن تتبع وسيلة من وسائل منع الحمل، بل لا بأس أن تسقط حملها إذا كان ضرورياً لإنقاذ حياتها ، ولكن لا يجوز أبداً أن يُتّخذ من « ضعف الصحة » حيلة إلى جعل تحديد النسل سنة عامة يعمل بها من يشاء من المسلمين متى رأى أن صحة امرأته ضعيفة وأنها لا تستطيع ان تكابد آلام الحمل والوضع .

المنافاة التامة لمبادىء الاسلام :

مما يتبين بكل وضوح بالقاء نظرة على ما ذكرنا آنفاً من دلائل

المؤيدين لحركة تحديد النسل أو تنظيمه أن ليست هذه الحركة إلا ثمرة من ثمار شجرة الإلحاد والدهرية ، وأن الذين تكون أذهانهم خالية من فكرة الإله ولا يتفكرون في نظام الكون ولا يتصرفون في مختلف شؤون الدنيا إلا على أن لا وجود للالـه وأنه إن وجد فإنما هو كائن معطل وأن الانسان بنفسه يصنع مقاديره ويدير جميع شؤونه .... هم الذين رفعوا لواء هذه الحركة وهم الذين تقع دلائلها من نفوسهم موقع القبول والإعجاب .

وغني عن البيان بعد ايضاح هذه الحقيقة انهذه الحركة متصادمة مع الاسلام في صميمه ، وان مبادئها ومبادئه على طرفي نقيض .

الاحتجاج الفاسد بالاحاديث النبوية :

والذين يدعون الى حركة تحديد النسل من المسلمين ، لايجدون في آيات القرآن كلمة واحدة يتأيدون بها ، فهم لأجل هذا انما يراجعون كتب الحديث ويستدلون على صحة فكرتهم بروايات جاء في بعضها الاذن بالعزل . ولكن هناك ثلاثة أمور أساسية لابد من رعايتها في استخراج مسألة فقهية من أحاديث الرسول ﷺ :

١ - الاستقصاء التام لكل ماروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في المسألة التي هي تحت البحث .

٢ - بذل الجهود الممكنة لمعرفة السياق والموقف الذي بيّن فيه الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً من أحاديثه .

٣ً — بذل الجهود الممكنة كذلك للاطلاع على الظروف والملابسات السائدة في بلاد العرب في زمن الرسول ﷺ .

فمع رعاية هذه الامور الاساسية الثلاثة نريد الآن ان نلقي نظرة على الروايات التي يستدل بها هؤلاء القوم للدفاع عن فكرتهم .

مما لا يخفى على أحد أن كان قتل الأولاد هو الطريق الجاري في بلاد العرب لتحديد النسل إلى زمن الرسول ﷺ . وذلك لسببين :

أولهما : تدهور الوضع الاقتصادي ، فكان الآباء لأجله يقتلون أولادهم خشية ان يشاركوهم في رزقهم .

وثانيهما : عاطفة الغيرة المجاوزة لحدودها العادلة ، فكانت تحرض الآباء على وأد بناتهم خاصة خشية عار المصاهرة . فلما جاء الاسلام ندد بهذه الجريمة ونهى العرب عن اقترافها وقلب عقليتهم في شأنها قلباً كلياً .

ثم اتجهت فكرة المسلمين الى العزل أي الإنزال بعيداً عن المرأة . ولكن من المعلوم ان العزل ما كان عاماً شائعاً بين المسلمين جميعاً ولا كانت قد قامت فيهم حركة لتحديد النسل ومنع الحمل ولا كان المقصود أن تتخذ من العزل سياسة قومية ولا كانت من الاسباب المحرضة عليه تلك الافكار والعواطف التي كانت تحرض الناس على اقتراف جريمتي قتل الاولاد ووأد البنات أيام الجاهلية، وانما كانت هناك ثلاثة أسباب هي التي حملت على العزل نفراً من المسلمين، ولنا ان نعرفها بتتبع الروايات الواردة في كتب الحديث في باب العزل :

١ً — خشية أن تحمل الأمة .

٢ – خشية أن تستحق الأمة إقامة دائمة إذا صارت أم ولد .
٣ – خشية أن يتمرض الرضيع لنوع من الضرر اذا حدث الحمل ايام الرضاعـــة .

فهذه هي الأسباب التي لأجلها أحس نفر من الصحابة – منهم عبد الله بن عباس وسعد بن أبي وقاص وأبو أيوب الأنصاري وزيد بن ثابت وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم – بحاجة الى العزل في ظروف مخصوصة وعملوه بحجة أنهم ما وجدوا في نصوص القرآن والسنة شيئاً ينهى عنه صراحة . يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول في رواية أخرى : كنا نعزل والقرآن ينزل . ويقول في رواية ثالثة : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ينزل (رواها البخاري ومسلم) . فواضح من هذه الروايات أن جابراً ومن كان على رأيه من الصحابة في إباحة العزل لما لم يجدوا في نصوص القرآن والسنة شيئاً ينهى عن العزل صراحة ، حسبوا ذلك دليلاً على إباحته . يقول جابر رضي الله عنه في رواية أخرى أخرجها عنه الامام مسلم في صحيحه : كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغه ذلك فلم ينهنا . فلا تصرح حتى هذه الرواية بما إن كان الرسول صلى الله عليه وسلم سئل عن حكم العزل أم لم يسأل ، وأنه اذا سئل فماذا كان جوابه ؟

وأما الروايات الاخرى فقد جاء في بعضها ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان سئل في هذه القضية ، فمن أبي سعيد الخدري انه قال : أصبنا

سبياً فكنا نعزل فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أو إنكم لتفعلون ؟ قالها ثلاثاً ، ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة إلا وهي كائنة . أخرجها البخاري ومسلم .

وقد جاءت هذه الرواية في الموطأ للامام مالك رضي الله عنه وفيها يقول ابو سعيد الخدري : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني المصطلق فأصبنا سبياً من سبي العرب ، فاشتهينا النساء واشتدت علينا العزبة وأحببنا الفداء ـ يعني أن لايولد لهم مولود ـ فأردنا ان نعزل فقلنا نعزل ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا قبل أن نسأله ، فسألناه عن ذلك ، فقال : « ماعليكم ان لاتفعلوا » ـ يعني أي شيء يحدث اذا لم تفعلوا ؟ ـ « ما من نسمة كائنة الى يوم القيامة إلا وهي كائنة » .

وفي رواية أخرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولم يفعل ذلك أحدكم ؟ » .

وفي رواية أخرى ان رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن لي جارية هي خادمنا وسانيتنا وأنا أطوف عليها وأنا أكره أن تحمل ، فقال : «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ماقدر لها» . رواه مسلم .

على أن هناك جماعة من الصحابة وغيرهم قد صح عنهم النهي عن العزل . يقول الامام الترمذي في سننه : وقد كره العزل قوم من أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، ويروي الامام مالك في الموطأ عن عبد الله ابن عمر ، انه كان لايعزل وكان يكره العزل .

فالذي نعلم من تتبع الأحاديث والروايات من كلا النوعين أن

الرسول ﷺ ما كان أذن في العزل بل كان يكرهه ويرى فيه فعلا عبثاً ، كما كان يكرهه جماعة من أصحاب العلم من أصحابه رضي الله عنهم ، ولكن لما لم تكن هناك حركة عامة لمنع الحمل وتحديد النسل قائمة بين المسلمين ولا كانت الجهود تبذل لجعل العزل خطة قومية وتعاملاً عاماً في المجتمع وإنما كان نفر من المسلمين يعملونه لحاجاتهم وضروراتهم بصفتهم الشخصية ، فما أعلن الرسول ﷺ حرمته ولا نهى عنه نهياً مؤكداً ، على أنه لو كانت في زمانه حركة عامة تدعو الناس إلى منع الحمل وتحديد النسل على نطاق قومي واسع ، لنهى عنه نهياً مؤكداً ، ولا شك .

ونحن إذا قسنا على العزل ما ظهر في زماننا من الطرق الأخرى لمنع الحمل وتحديد النسل ، جاز لنا القول بأن الشرع إذا لم يكن قد نهى عنها ، فإنما ذلك لأن الإنسان قد يحتاج إليها حاجة حقيقية في بعض ظروفه ، فمن باب الحيطة أن يسمح له باستخدامها ، وذلك مثل أن تتعرض المرأة لخطر الموت أو تخاف على نفسها أو على ولدها الرضيع ضرراً غير عادي إذا وقع الحمل . ففي هذه الظروف وأشباهها إذا استخدم الإنسان طريقاً من طرق منع الحمل بعد مشورة الطبيب فلا بأس بذلك في نظر الشرع كما قلنا آنفاً ، ولكن مما يصادم الشرع ويتنافى مع أحكامه أن يتخذ من العزل أو غيره من طرق منع الحمل خطة قومية وتعامل عام في المجتمع ، فما كل تلك الأفكار والنظريات التي تدعو الناس أو تميلهم إلى اتخاذ طرق منع الحمل بدون ما حاجة حقيقية إلا منافية لمبادىء الإسلام منافاة تامة .

★ ★ ★

الإسلام وتنظيم الأسرة

إن الموضوع المحدد لهذا المقال هو : « الاسلام وتنظيم الاسرة » . ولعله كان من الكافي ، في مايبدو ، لمعالجة هذا الموضوع أن أسرد أولاً من تعاليم الاسلام وأحكامه ما يتعلق برغبة الانسان في تحديد أفراد أسرته وما يتخذ لتحقيق هذه الرغبة من التدابير العملية فعلاً ، ثم أبين رأيي الشخصي بإباحة أوحرمة هذه الرغبة والتدابير العملية على ضوء تعاليم الاسلام وأحكامه . ولكن من رأيي في الوقت ذاته أن حصر الموضوع إلى مثل هذه الدائرة الضيقة لا يستطيع أن يوفي بحق البحث العلمي ولا يقدر القارىء أن يفهم عن طريقه رأي الاسلام ووجهة نظره في باب النسل الانساني وتحديده فهماً دقيقاً كاملاً . بل الذي لا بد منه قبل كل شيء آخر ، إذا أردنا معالجة هذا الموضوع ، هو أن نعرف : ما هي مشكلة « تنظيم الاسرة » في حد ذاتها ؟ وما هو منشؤها ؟ وما هي النواحي المتعلقة بها في حياة الإنسان ؟ وما هي الآثار التي تحدث في هذه النواحي المختلفة لخطواتها وتدابيرها العملية ؟ وهل هناك فرق ما بين رغبة الأفراد ومحاولاتهم للحد من أفراد أسرهم على انفرادهم ؟ وبين أن تقام لتحقيق هذا الغرض حركة اجتماعية كبيرة ؟ وإن كان ، فمن أي نوع هو ؟ وما هو الفرق الذي يجب أن يكون بين أحكامها على اعتباره ؟

من المحال بدون فهم هذه الامور البدائية فهماً دقيقاً كاملاً أن نتوصل إلى مغزى تعاليم دين الفطرة في مسألة تحديـد النسل ، أو تنظيم أفراد الاسرة كما يقال ، وندرك مراميها إدراكاً تاماً . فها أنا ذا أتناول بالبحث أولاً هذه الأمور البدائية .

١ - نوع المشكلة :

ليس « تنظيم النسل » أو « تنظيم أفراد الاسرة » في حد ذاته شيئاً جديداً ، وإنما هو اسم جديد لفكرة قديمة ، إذ أن الإنسان ما زال في كل دور من أدوار تاريخه يساوره القلق والخوف الشديد من ظـاهرة تضخم السكان وقلة موارد الانتاج، ويقول إن أفراد نسله إذا استمروا يتزايدون بصفة مطردة ولم يوضع لتزايدهم نوع من الحد ، فكيف تسعهم الأرض ومن أين يأكلون ويكسبون معاشهم بعد مدة كذا وكذا من السنين ؟ لقد كان الإنسان القديم إنما يعرب عن قلقه وخوفه في هـذا الشأن بأسلوب بسيط جداً ، ولكن بدأ الإنسان الجديد يقول على أساس ما اخترع من القواعد الحسابية والهندسية في هذا الزمان : إن زيادة السكان تتم بنسبة متوالية هندسية (Geometric Progression): ٢ ، ٤ ، ٨، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ٢٥٦ .. الخ) على حين لا تزيد، ولا يمكن أن تزيد ، وسائل رزقهم ، مهما اخترعوا لزيادتها من الطرق المؤثرة ، إلا بنسبة متوالية حسابية (Arithmetic Progression): ١ ، ٢ ، ٣، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ... إلخ ، فعلى هذا إذا ظل عـدد السكان يتضاعف بدون ما حاجز في وجهه ، فلا بد أن يصل إلى ضعفيه بعد كل

٢٥ سنة، وأن يصل من ١ إلى ٢٥٦ بعد كل قرنين، بينا لا تزيد وسائل رزقهم خلال هذه المدة إلا إلى ٩، وأن هذه النسبة بين عدد السكان وموارد الرزق ستكون ٤٠٩٦ مقابل ١٣ بعد ثلاثة قرون ولا تبقى هناك أية نسبة بين عدد السكان وموارد الرزق بعد ألفي سنة. فبالحساب على هذه القاعدة يقول الذين يتفكرون على مستوى منطقي عن منطقة خاصة من مناطق الأرض أن عدد السكان في الدنيا أو في المنطقة الفلانية إذا بقي في الزيادة على حاله، فمهما بذلنا من المحاولات العلمية الجديدة لتنمية موارد الرزق ووسائل المعيشة، فإنه من المحال أن تتوفر فيها الوسائل الكافية لقضاء الحياة فضلاً عن أن يحظى فيها النسل الإنساني بشيء من النهوض والتقدم، إلى أن يأتي وقت لا يبقى فيه على سطح الكرة الارضية موضع يضع فيه الانسان قدميه.

هذا هو نوع المشكلة، ولعلاج هذه المشكلة كان الإنسان في الزمن القديم يلتجيء إلى وسائل بدائية كقتل الأولاد والإجهاض ومنع الحمل. وأما في الزمن الجاري فهو وإن كان غير غافل عن الوسيلتين الاوليين ولا يتحرج من استخدامها، إلا أن الوسيلة الثالثة — منع الحمل — هي التي يلتجيء إليها ويعتمد عليها أكثر، بناء على ما قد أحرزت من الرقي والتقدم في ميدان الصناعة والعلم التجريبي، فهو لهذا الغرض يستخدم من الآلات والعقاقير والأدوية ما يستطيع به أن يوقف سلسلة إنتاج الذرية متى شاء ولأي مدة من الزمان أراد، مع المحافظة على قوته التناسلية، كما أنه يقدح زند فكره أحياناً ليستخدم من الوسائل الأخرى ما ينتج عقم

الرجل أو عقم المرأة أو عقمها جميعاً . فهذا ما يسميه « تنظيم النسل » (Birth Control) تارة ويسميه «تحديد النسل» (Birth Limitation) تارة أخرى أو « تنظيم الاسرة » (Family Planning) تارة ثالثة .

٢ - هل إن زيادة السكان خطر على موارد الرزق ؟

إن أول ما علينا أن نتناوله بالبحث في هذا الشأن هو : إلى أي حد يصح ذلك الخوف والقلق الذي قد نشأت على أساسه هذه المشكلة ؟

إننا عندما نمعن النظر في هذا السؤال فإن أول حقيقة تقفز إلينا في شأنه هي أن النسل الإنساني ما زاد في أية مرحلة من مراحل تاريخه بتلك النسبة المتوالية الهندسية التي يبدىء ويعيد في عرضها أتباع مالثوس وفرانسيس بلاس على أسلوب فني دقيق ، وأنه ما أتى على الانسانية حين من الدهر كانت فيه النسبة بين عدد السكان وموارد الرزق مثل التي يدّعونها ، وأن الأمر لو كان هكذا لكان النسل الإنساني قد انقرض عن وجه الأرض قبل اليوم بمدة غير قصيرة ولم نجد أنفسنا اليوم لمناقشة هذا الموضوع .

من الحقيقة المتداولة كذلك أن هذه الكرة الأرضية التي يسكن الانسان على سطحها ، كانت موجودة قبل أن يوجد الانسان بمدة لا يعلمها إلا الله ، وكانت توجد عليها ـ قبل وجوده ـ كل تلك الأسباب التي كان الانسان بحاجة إليها لحفظ حياته وتنمية حضارته ومدنيته ، والإنسان ما خلق فيها شيئاً بنفسه ، وكل ما فعل أن اكتشف ما كان مختفياً في بطنها أو مبثوثاً على وجهها ببذل جهده وذكائه ثم استخدمه في مختلف

أغراضه ، وما من ضرورة من ضرورات الانسان منذ فجر التاريخ إلى هذا القرن الجاري إلا وكانت وسائل قضائها موفورة فيها من ذي قبل ، ولعله مما لا يستطيع أحد أن يكابر فيه أن الضرورات التي ستعرض للانسان في غده القريب أو البعيد أيضاً ، توجد الوسائل الكافية لقضائها إما في أجواز الفضاء أو على سطح الأرض أو في بطنها أو في أعماق البحار ، وأن ليس الانسان هو الذي قد خلق هذه الوسائل وما له من دخل في تعيين مواضعها ومعرفة مقاديرها وساعات ظهورها . والانسان ـ سواء أكان معتقداً بالله أو بقوة عمياء يدعوها الفطرة ـ لا بد له من الاعتراف على كل حال بالحقيقة الثابتة القائلة بأن الذي قد خلقه وعليه تبعة إخراجه من عالم العدم إلى عالم الوجود، هو الذي قد قدر تقديراً محكماً ماسيحتاج إليه لحفظ حياته على وجه هذه الكرة الأرضية ثم أودعها كل وسيلة من الوسائل الكفيلة بقضاء كل ضرورة من ضروراته قبل أن يوجد عليها هو نفسه .

وما كل هذه الوسائل بالتي ظلت ماثلة أمام الانسان على الدوام ، بل الامر الواقع أن الانسان أول ماظهر في هذه الدنيا ما كان يجد فيها من وسائل المعيشة وموارد الرزق إلا المـــاء والتراب والحجارة والنباتات والحيوانات الوحشية ، ولكنه على قدر ما زاد من أفراد نسله وتابع من جهوده لحفظ حياته على سطح الارض ، مازالت تتكشف له فيها خزائن لا تعرف الحد والحصر من وسائل الحياة وموارد الرزق ، فقد اكتشف وسائل جديدة ، وجنباً إلى جنب مع ذلك اخترع طرقاً جديدة لاستخدام

الوسائل القديمة ، حتى إنه مامرت عليه مرحلة من مراحل تاريخه الطويل يكون قد ازداد فيها عدد سكان الارض بدون أن تتقدم فيها وسائل المعيشة وموارد الرزق. وكم من مرة قد أخذ الانسانَ الوهمُ بأن قد تكشف له ومثُل أمام ناظريه كل ما كان مختبئاً في بطن الأرض او مبثوثا على سطحها من خزائن الرزق ولم يعد بوسعه الآن ان يكتشف خزانة جديدة أخرى . ولكن القدرة الالهية أبت في كل مرة الا أن تفند وهمه وتضع تحت بصره وفي متناول يده خزائن غير محدودة للرزق جديدة من حيث لم يكن وجودها ليخطر على باله أو يتوصل اليه فكره .

لقد كان الانسان منذ آلاف مؤلفة من السنين قبل المسيح ينظر الى البخار يرتفع من القدر الموضوعة على موقده ، ولكن لم يخطر على قلبه الى سبعة عشر قرنا بعد المسيح أن هذا البخار سيفتح على وجهه في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ميادين واسعة جداً للرزق والمعاش . وقد كان يرى النفط ويعرف خاصيته للاحتراق ولكن لم يعرف حتى نهاية القرن التاسع عشر أن عيوناً لاعداد لها من البترول توشك ان تنفجر من بطن الارض ، وتوشك ان تبرز الى حيز الوجود ـ مع ذلك ـ صناعة السيارات والطائرات لتحدث انقلاباً هائلا في عالم الاقتصاد وموارد الرزق . وكان منذ زمن غير معلوم يجد شرار النار تتطاير بالاحتكاك ولكن ماظهر له سر الكهرباء الا بعد آلاف مؤلفة من السنين وفي مرحلة خاصة من مراحل تاريخه ، ليضع تحت تصرفه خزانة من الطاقة جديدة يستغلها اليوم في مجالات الاقتصاد والصناعة لأعمال لم يكن ليصل اليها خياله قبل قرن ونصف قرن منذ الآن . وهذه الذرة (Atom) التي كانت صلاحيتها

للتفتت موضوعاً من موضوعات البحث والمناقشة في مدارس الفلاسفة منذ مدة غير يسيرة قبل المسيح ، مَنْ كان يعرف عنها قبل القرن العشرين أنها ستتفتت في القرن العشرين لتخرج من خليتها خزانة عاتية من الطاقة لا تكون ازاءها كل وسائل الانسان المعلومة شيئاً يذكر .

هذه تغيرات هائلة ماظهرت في عالم الاقتصاد ووسائله الا في غضون قرنين ماضيين فقط ، وهي قد زوّدت الانسان لحفظ حياته في الدنيا بوسائل جديدة كثيرة وفي الوقت نفسه زادت من وسائله القديمة ما لم يكن ليمر بخلده في القرن الثامن عشر. فلو ان شخصاً قبل ظهورها قصر نظره على وسائل الاقتصاد الموجودة في زمانه ثم أجهد ذهنه ليقدر الى متى تستطيع هذه الوسائل ان تتمشى مع زيادة سكان العالم ، فهل كان من الممكن ان يُقدّر مبلغه من السخافة والسفاهة ؟

والذين يقيمون مثل هذه التقديرات ، لا يخطئون من حيث يرون العلم المحدود في زمانهم أساساً كافياً للتنبؤ بما سيكون في المستقبل ، بل ينسون كذلك ان ليست زيادة السكان في الدنيا اوفي منطقة خاصة من مناطقها عبارة عن زيادة الأفواه الآكلة ، بـــل هي عبارة عن زيادة الايدي العاملة ايضاً .

ان الانتاج له ثلاثة عوامل بموجب علم الاقتصاد وهي: الارض ورأس المال والانسان، والانسان هو أهم وأكبر هذه العوامل ، ولكن المتزمتين بزيادة السكان انما يرون فيه عاملا للاستهلاك (Consumption) ويصرفون نظرهم عن عمله من حيث هو عامل للانتاج (Production) وينسون، أو يتناسون ، أن كل ماقد أحرزه الانسان من النهوض والتقدم في الدنيا

انما احرزه مع زيادة السكان بل بسببها الى حد كبير ، وان زيادة السكان لاتهيء العوامل الجديدة فحسب ، بل تأتي بمزيد من دواعي العمل وحوافزه ، وان الانسان عندما تدعوه الحاجة ـ الحاجة اللازمة الملحة ـ إلى أن يهيء الغذاء والمسكن والملبس وما اليها من الضرورات الانسانية الاساسية لمزيد من أفراد نوعه مع طلوع كل يوم جديد ، يكون في ذلك العامل الحقيقي الذي يرغمه على ان يوسع من وسائله الحالية ويسعى سعيه للبحث عن الوسائل الجديدة ويجهد نفسه للاكتشاف والاختراع في كل شعبة من شعب الحياة . وهـــذا ماتُستَغَل لأجله الاراضي البكر وتُستَصلح الاراضي البور للزراعة وتُكشَف الاراضي المغطاة بالمستنقعات والاحراش بل والخاوية تحت أعماق البحار وتُختَرع الطرق الجديدة للري والزراعة وتُحفَر المناجم وتُستَنفد المساعي في أجواز الفضاء وأعماق البحار والمحيطات بحثاً عن موارد جديدة للرزق . ولولا هـذا الباعث ، لما كسب الانسان شيئاً غير الكسل والخمول والاقتناع بالحاضر الموجود . وهل هناك باعث غيره يحمل الانسان من جانب على أن يقوم بأكثر وأكبر مقدار من العمل يستطيعه ، ومن جانب آخر يأتي الى الميدان بعمال جدد مع كل يوم جديد ؟

إن أقرب تاريخ لزماننا كفيل بالرد على الذين يقولون ان وسائل الرزق الموجودة في الارض لاتقدر ان تتمشى مع زيادة السكان .

لقد كان عدد السكان في ألمانيا ٤٥ مليوناً سنة ١٨٨٠ وكانوا في تلك الايام يعانون معيشة ضنكا وضائقة مالية شديدة حتى كان آلاف منهم

يهاجرون الى الخارج بين كل عام وآخر ، ولكن لما بلغ عددهم ٦٨ مليوناً في ٣٤ سنة بعد ذلك، فبدل أن تصاب المانيا في وضعها الاقتصادي، تضاعفت وسائلها للمعيشة ومواردها للرزق عدة مئات من المرات على نسبة زيادة سكانها، حتى اضطرت الى طلب العمال من الخارج لتسيير حياتها الاقتصادية، فقد بلغ عدد العمال الاجانب في المانيا ٨٠٠ الف سنة ١٩٠٠ وحوالي مليون و ٣٠٠ الف سنة ١٩١٠ .

وأدعى من ذلك إلى العجب ذلك الوضع الاقتصادي الذي يُشاهد في ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الاخرى ؛ فقد استقبلت حوالي عشرة ملايين طفل منذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن ، فضلاً عن ١٢ مليوناً و ٥٠٠ ألف مهاجر ألماني الأصل من ألمانيا الشرقية وبولاندا وتشيكوسلوفاكية وغيرها من البقاع المحتلة بالشيوعيين ، وذلك علاوة على الزيادة الطبيعية لسكانها الاصليين ثم إن مساحتها لا تزيد على ٩٥ ألف ميل مربع وقد أربى عدد سكانها على ٥٢ مليوناً، وواحد من كل خمسة منهم مهاجر . كما أن ستة ملايين و ٥٠٠ ألف شخص منهم قد أحيلوا على المعاش لعجزهم عن العمل ، ولكن على رغم كل ذلك فان وضعها الاقتصادي في تقدم وازدهار متزايد وهي في ثروتها أغنى بكثير من ألمانيا المتحدة قبل الحرب وهي بدل أن تشكو من كثرة الأفواه الآكلة ، تعاني أزمة شديدة لقلة الأيدي العاملة إلى حد أنها بعد استغلال ما لديها من الايدي العاملة ، تحتاج إلى مزيد الأيدي من الخارج .

انظروا إلى هولاندا كذلك ...ما كان سكانها في القرن الثامن عشر

يجاوز مليوناً واحداً، ولكنه بدأ يتقدم بعد ذلك حتى جاوز عشرة ملايين سنة ١٩٥٠ أي في مدة قرن ونصف فقط، وهذا العدد الضخم من السكان لا يسكن إلا في رقعة ضيقة مساحتها ١٢ ألفاً و ٨٥٠ ميلاً مربعاً حيث لا يخص كلّ واحد منهم ولا هكتار واحد من الأرض الزراعية. ولكنهم لا يجدون كفايتهم من الحاجات الغذائية فحسب، بل يصدرون كميات فائضة من المواد الغذائية إلى الخارج، وقد حصلوا على مساحة أرضية قدرها ٢٠٠ ألف هكتار بدفع البحر وتجفيف المستنقعات، ولا يزالون يتابعون جهودهم للحصول على مزيد من المساحة الزراعية. حتى انه مابقيت هناك أية نسبة بين ثروتهم في هذه الايام وثروتهم قبل مئة وخمسين سنة أي عندما كان عددهم لا يجاوز مليوناً واحداً كما قلنا.

أما انكلترا وايرلاندا فما كان مجموع عدد سكانها سنة ١٧٨٩ أكثر من ١٢ مليوناً، ثم بلغ ٤٦ مليوناً سنة ١٩١٣. أما اليوم فان عدد سكان انكلترا وحدها، بعد أن انفصلت عنها ايرلاندا الجنوبية هو ٥٢ مليوناً و ٦٠٠ ألف، فهل لأحد أن يقول أن هذا التضاعف لعدد السكان - بنسبة ٥٠٠٪ - قد زاد سكان انكلترا فقراً، ونضب مواردهم للرزق؟

انظروا إلى سكان العالم على وجه العموم، فهم إذا كانوا قد بدؤوا يتزايدون بسرعة غير عادية منذ القرن الثامن عشر، فلا يغيبن عن البال ان موارد الرزق في الدنيا قد زادت خلال هذه المدة نفسها بعدة درجات، حتى كانت زيادتها بنسبة أكبر بكثير من زيادة السكان. أليس عند المتوسطين اليوم ما لم يكن ولا عند الملوك والاثرياء قبل مائتي سنة؟ وهل

من الممكن أن تقدر النسبة بين مستوى المعيشة العامـة اليوم وبينه قبل مائتي سنة ؟

العلاج الناجع لمشكلة السكان :

ولعله قد اتضح بهذه الأمثلة أن ليس تقليل السكان أو وضع الحد لزيادتهم ، علاجاً ناجعاً لمشكلة السكان ولا هو طريق حاسم للمحافظة على التوازن بين عدد السكان ووسائل المعيشة ، فإنه عسى أن يزيد هـذا التوازن اختلالا بدلاً من أن يحافظ عليه . وعلى العكس من هذا فان الطريق الصحيح لإقامة هذا التوازن والمحافظة عليه هو أن تبذل مزيد الجهود الفعالة الجديدة لزيادة وسائل المعيشة واكتشاف الموارد الجديدة للرزق ، وحيثما قد وضع هذا الطريق موضع التجربة ، فان التوازن بين عدد السكان ووسائل المعيشة ما بقي قائماً على حاله فحسب ، بل قـد تمت زيادة وسائل المعيشة بنسبة أكثر من زيادة السكان .

على أن كل ما ذكرت الآن ، إنما كان عن الاقتصاد ووسائله المتعددة التي قد أودعها خالق الانسان ـ أو الفطرة بلسان منكري الإله ـ في أرضه لمصلحته . وها أنا ذا أحب الآن أن أتناول بالبحث ـ على وجـه الايجاز ـ النسل الانساني وزيادته ، من حيث هو ، لنتبين : هل بوسعنا حقاً أن نقوم بتنظيمه تنظيماً صحيحاً ؟

من هو المنظم للنسل الانساني في واقع الأمر ؟

إني لا أرى أحداً يحسب أنه إنما جاء إلى هـــذه الدنيا بإرادته واختياره ، وذلك أن الأمر لا يقتصر على أن الانسان لا دخل لإرادته

واختياره في مجيئه إلى الدنيا بل ليس ولا لأبويه دخل في إخراجه إلى الدنيا إلا إسماً ، لأن الذي نعلم من الحقائق الثابتة بما أجري في هذا الشأن من التجارب العلمية أن الماء الذي يفرزه الرجل عند كل اتصال من اتصالاته الجنسية يحتوي على ما بين ٢٢٠ و ٣٠٠ مليون حيوان منوي (Spurmatozoa) بل على نحو ٥٠٠ مليون حيوان منوي كما يقول جماعة من الخبراء الفنيين . وكل واحد من هـذه الحيوانات العديدة فيه استعداد تام ليكون إنساناً بشرط أن تتاح له فرصة الدخول في مبيضة (Egg Cell or Ovum) الأنثى ، وهو مع هذا يحمل امتزاجـاً خاصاً مستقلاً بين الأوصاف الوراثية والأوصاف الشخصية بحيث من الممكن أن تتكون به شخصية مستقلة ، ومن جهة أخرى فإن مبيضتي (Ovarien) كل امرأة بالغة فيها نحو ٤٠٠ ألف بويضة غير ناضجة في كل حين من أحيانها ، ولكن لا تخرج من بين هذه البويضات العديدة بعـد النضج في كل طهر إلا بويضة واحدة في ساعة خاصة ـ قبل بدء الطمث بأربعة عشر يوماً في الغالب ـ وتبقى على استعداد تام لأربع وعشرين ساعة على الأكثر لتحدث الحمل إذا اندمجت مع حيوان من الحيوانات المنوية الخارجة من جسد الرجل . وإن معدل عـدد البويضات الناضجة التي تخرج من مبيضة المرأة منذ أن تكون سنها ١٢ سنة إلى أن تكون سنها ٤٨ سنة ، هو ٤٣٠ بويضة ، وكل بويضة من هذه البويضات ذات خصوصية ، وهي مع هـذا تحمل امتزاجاً خاصاً مستقلاً بـين الاوصاف الوراثية الآتية من السلسة الأمومية وبين الاوصاف الشخصية بحيث من

الممكن أن تتكون بها شخصية مستقلة . وعندما يحصل الاتصال بين الرجل والمرأة ، يخرج من جسد الرجل عشرات الملايين من الحيوانات المنوية وتجري بحثاً عن بويضة المرأة ، ولكن إما أن بويضة المرأة لا تكون هناك أو أن كل واحدة من حيوانات الرجل تفشل في الوصول اليها . والمرأة كذلك تفرز في ساعة خاصة من كل طهر من اطهارها بويضة ناضجة وهي بدورها تبقى في انتظار حيوان الرجل المنوي ٢٤ ساعة ، ولكن إما أن الاتصال لا يحصل بين الرجل والمرأة أثناء هذه المدة أو أن حيوان الرجل المنوي لا يصل إلى تلك البويضة إذا حصل الاتصال ، فهكذا تمر عشرات الاتصالات بين كثير من الرجال والنساء ، بل اتصالات طول الحياة الزوجية بين بعض الرجال والنساء بدون ما نتيجة . تضيع الملايين من حيوانات الرجل المنوية والمئات من بويضات المرأة بدون ما نتيجة وإنما تكون هناك ساعة خاصة يكتب فيها لحيوان من حيوانات الرجل الكثيرة أن يندمج مع بويضة من بويضات المرأة الكثيرة ونتيجة لذلك يحصل الحمل ليجيء فرد من أفراد البشرية إلى عالم الوجود .

هذا هو النظام الذي به تتم ولادة الانسان . ومن السهل إذا ألقيت نظرة خاطفة على تفاصيله أن تعرف إلى أي حد يوجد فيه المجال لتنظيمنا النسل الانساني ؟ ليس لأية أم ولا لأي أب ولا لأي طبيب ولا لأية حكومة أن تتدخل في هذا النظام وتحدث الحمل في اتصال خاص من الاتصالات العديدة بين زوج وزوجة ، إذ لا يستطيع أحد أن يعرف أي حيوان خاص من حيوانات الرجل المنوية البالغ عددها عشرات الملايين إذا اندمج مع

أية بويضة من بويضات المرأة البالغ عـددها المئات ، فأية من الصفات الخلقية والاستمدادات الجسدية والعقلية يكون عليها ذلك الانسان الذي قد قُدِّر تكوينه بهذا الحمل ؟ ليس بوسع أحد ان يعرف ذلك فضلا عن يؤكد بطريقة نوعاً خاصاً من أنواع الشخصيات الانسانية ، لأن كل ذلك لا يتم إلا بإذن الله ، بإذن ذلك العليم الخبير الذي هو فوق الإرادات الإنسانية وهو الذي قد أوجد هذا التنظيم للخلق والتكوين وهو الذي يجريه كما يشاء بدون ما مشارك ولا منازع وهو الذي يعين ساعة الحمل وهو الذي يختار بويضة خاصة من بويضات المرأة لتندمج مع حيوان خاص من حيوانات الرجل المنوية وهو الذي يحكم في ما سينتج من اندماجها، هل يكون ذكرا أو أنثى ، صحيحاً أو سقيما ، كاملا أو ناقصاً ، جميلا أو دميما ، ذكياً أو غبياً ، نشيطاً أو كسلانا ... ؟ وليست المهمة التي قـد نيطت بالانسان في كل هذا التنظيم الإلهي للنسل الانساني الا أن يتصل الرجل والمرأة استجابة لرغبتها الفطرية ويحركا آلة التناسل ، وما الأمر بعد كل ذلك إلا بيد الخالق جلت حكمته وتباركت أسماؤه .

إن هذا النظام الإلهي للخلق والتكوين هو الذي يقوم بالتنظيم الصحيح الحقيقي للنسل الانساني . تفكر قليلا في قوة الانسان للتوالد والتناسل . إنها بالغة في حيويتها حيث إن ماء رجل واحد، في إفاضة واحدة، يكفي لينتج عدة أضعاف عدد سكان باكستان جميعاً . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن سلطة عليا قد كبلت هذه القوة الانتاجية الهائلة في الرجل ووضعت لها حداً مناسباً، ولأجل ذلك فان عدد السكان في العالم ما استطاع

أن يبلغ إلا حوالي ٢٩٩٥ مليوناً خلال آلاف من السنين منذ بدء الخلق الانساني إلى عصرنا الحاضر .

قدر بنفسك لو أن ذرية رجل واحد وامرأة واحدة قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ، لو وجدت في وجهها مجالاً واسعاً للنمو والانتشار بسرعتها الطبيعية فظلت تصل إلى ضعفها في كل ٢٥ أو ٣٠ سنة ، هل كان يكفيها اليوم أقل من ٢٦ رقماً لكتابة عدد أفرادها ؟ فهل من تنظيم غير تنظيم الخالق قد أقام سيطرته على عدد أفراد النوع البشري ومنعه من الانتشار بهذه السرعة المدهشة؟ الحقيقة أن الخالق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان بتنظيمه المحكم وهو الذي يحكم: كم من الأفراد يخلقهم في أية ساعة وبأية نسبة (يَزيدُ في الخَلْقِ ما يَشاءُ) وهو الذي يحكم بالنسبة لكل شخص ، ذكراً كان أو أنثى ، على أية صورة وبأية قوى واستعدادات جثمانية وعقلية تكون ولادته ، وفي أية ظروف تكون نشأته وما هي فرص العمل التي تتاح له في أية مرحلة من حياته ؟ وهو الذي يحكم : من أي نوع يكون الافراد الذين يخلقهم في أمة خاصة من الامم وفي عصر خاص من العصور ؟ وهو الذي يحكم : أية أمة من الامم يفسح المجال في وجهها للتقدم والنهوض ومتى يوضع الحد لتقدمها ونهوضها أو يكتب عليها التخلف والتقهقر ؟ ليس بوسعنا أن نفهم هذا التنظيم الإلهي للنسل الإنساني أو نعطله ، ونحن إذا ما حاولنا التدخل لتغييره ، فلا يكون ذلك منا الا رجماً بالغيب أو بذلاً للجهود سدى ، لأننا لا نستطيع أن نشاهد الحكمة البالغة التي يسيّر بها معمل هذا الكون فضلاً عن أن ينفذ بصرنا إلى أسرارها وأعماقها

ونتمكن هكذا من أن نطلع على جملة حقائقها ونضع تنظيما محكماً شاملا لتزايد أو تناقص أفراد النوع البشري .

وربما يتهمني أحد في هذا المقام بالحماسة المتطرفة في الدفاع عن عقيدتي الدينية ويسائلني : ماذا علينا ، على كل حال ، إذا وضعنا بأنفسنا حداً مناسباً لتزايد السكان في دولتنا نظراً لظروفنا الاقتصادية والاجتماعية ولا سيما إذا كان الله قد زوّدنا بوسائل علمية فنية جديدة ؟ لهذا فإني أريد الآن أن أبين على وجه من التفصيل : ما هي النتائج التي عسى أن تظهر إذا ما حاولنا التدخل في النظام الإلـهي لخلق النسل الإنساني ونموه وتزايده ، وما هي النتائج التي قد ظهرت فعلا في البلاد التي قد أقدم فيها الإنسان على هذا التدخل ؟

لماذا الدعوة إلى تنظيم أفراد الأسرة دون الدعوة إلى تنظيم سكان الدولة ؟

إن أول ما يجب أن نكون على بينة منه في هذا الصدد هو أن الدلائل والبراهين التي يقدمها أنصار الدعوة إلى تنظيم أفراد الأسرة على أساس علم الاقتصاد ، لا تتطلب كلها في حقيقة الأمر تنظيم أفراد الأسرة (Family Planning) وإنما تتطلب تنظيم سكان الدولة (Population Planning) أو بعبارة أخرى أن الذي تقتضيه هذه الدلائل والبراهين هو أن نقدر من جانب بكل دقة ما في دولتنا من وسائل المعيشة وموارد الرزق ، ونرى من جانب آخر ماذا ينبغي أن يبلغه عدد سكانها وبأية نسبة يجب أن يحل فيها الأفراد الجدد مكان الافراد الراحلين؟

ولكن من المحال أن يتم تنظيمٌ مثل هذا ما دمنا لا نقضي قضاء مبرماً على كل ما في دولتنا من دوائر الزواج والأسرة ولا نحوّل جميع من فيها من الرجال والنساء إلي «عمال رسميين الدولة» ولا نوجه اهتمامنا إلى الجمع بين الجنسين من «هؤلاء العمال الدولة» ليؤدوا وظيفة الانتاج (Production) وفق تخطيط مرسوم لهذا الغرض خاصة، ثم لا نفصل بينهما إذا بلغ عدد الأحمال حداً معلوماً منشوداً. أو أن هناك وجهاً آخر لإقامة هـذا التنظيم هو أن نقيم حظراً كلياً على الاتصال الجنسي المباشر بين الرجال والنساء ونؤسس في الدولة «مصارف المني» كمصارف الدم يلقح فيها عدد محدود معلوم من النساء كالبقرات والجواميس. وإي والله ليس هناك وجه ثالث بعد هذين الوجهين لإقامة التوازن بين وسائل الدولة وبين عدد سكانها وفقاً لخطة محكمة مرسومة.

ولأن الانسان لا يزال حتى اليوم غير مستعد لمثل هذا الانحطاط الخلقي -ويا للاسف-، لهذا فان أنصار التخطيط والتنظيم مضطرون ليسلكوا طريق «تنظيم أفراد الأسرة» دون طريق «تنظيم سكان الدولة» أي أنه لا يزال الاطفال يولدون في المعامل الصغيرة المعروفة «بالبيوت» ولا يزال أب واحد وأم واحدة هما القائمين بتنشئتهم وتربيتهم، ولكن يُعمَل في الوقت ذاته على استرضاء هذه المعامل الصغيرة بأن تحد من إنتاجها من تلقاء نفسها.

وسائل تنظيم الاسرة :

انه لا يمكن بلوغ الهدف المذكور الا بطريقين وهما اللذان يسلكها دعاة تنظيم النسل اليوم :

١ — يناشدون الأفراد باسم مصلحتهم الشخصية ويحاولون ـ عن طريق الدعاية المتصلة ـ ان يخلقوا فيهم الشعور بان مستواهم للمعيشة لا بدأن ينخفض بتعدد الاطفال ، فعليهم أن يحدوا من الزيادة في إنتاج الأطفال ليحافظوا بذلك على رفاههم الذاتي ويحسنوا المستقبل في وجه أولادهم . إنهم لا يسلكون هذا الطريق ولا يقومون بهذه الدعاية إلا مضطرين لأن الافراد الأحرار قلما يستعدون لفرض الحظر على أنفسهم بأنفسهم باسم المصلحة الاجتماعية الخالصة ، فلا بد من مطالبتهم بقبول هذا الحظر على أنفسهم باسم مصلحتهم الشخصية .

٢ — ينشرون المعلومات عن وسائل منع الحمل على أوسع نطاق يستطيعونه ويبذلون الجهود المتتابعة ليجعلوا في متناول أيدي الجمهور — رجالا ونساء — تلك الآلات والعقاقير والادوية التي يستطيعون بها ان يستمتعوا باللذات الجنسية على أتم وجوهها على أن يحولوا — مع ذلك — دون وقوع الحمل .

نتائج تنظيم الاسرة :

اما النتائج التي لا بد أن يسفر عنها هذان الطريقان لتنظيم أفراد الاسرة ، فها أنا ذا أعرضها عليكم واحدة واحدة :

١ — قلة السكان : إن التنظيم مادام لا يتم إلا بهذين الطريقين ، لا يفي أبداً بالغاية التي لأجلها تؤكد الدعوة الى تنظيم عدد السكان ، بل الذي يستلزمه تنظيم عدد السكان في حقيقة الأمر أن نستعرض أولاً ما في بلادنا من وسائل للمعيشة ثم نقرر على ضوئها أنه يجب أن يكون عدد

السكان في بلادنا كذا وكذا وأن لا ينضم إليهم الافراد الجدد عن طريق الولادة إلا بنسبة كذا وكذا حتى يظل عدد السكان عندنا قائماً على مستوانا المطلوب المعلوم . ولكن مادام كل رجل متزوج وكل امرأة متزوجة على حرية تامة ليقررا في ذات أنفسهما : كم من الاطفال ينجبانهم أو لا ينجبانهم ، لا على اعتبار حاجات الدولة ، ولكن على اعتبار رفاهها الاقتصادي ومايريان فيه مصلحة لمستواهما المعيشي ، فليس ثمة مايكفل للدولة بأنهما لن ينجبا من الاطفال الا على قدر حاجاتها ، بل المتوقع في الغالب في مثل هذا الوضع ان الافراد على قدر مايولعون برفاهم الشخصي ويتسابقون وراء تحقيق المستوى الرفيع لمعيشتهم ، ويسترسلون في الحد من إنجاب الاطفال الى أن يأتي على الدولة يوم تتعرض فيه لخطر قلة السكان بدلاً من زيادتهم .

وما هذه النتيجة لحركة تنظيم أفراد الاسرة بمتوقعة فحسب ، بل هي مما قد ظهر فعلا في فرنسا ، إن أول دولة في الدنيا وضعت وسائل تحديد النسل موضع التجربة على نطاق واسع ، هي فرنسا . لقد كانت حركة تحديد النسل لاقت فيها الرواج العام منذ بداية القرن التاسع عشر ، ونتيجة لذلك بدأت نسبة المواليد تهبط عن نسبة الوفيات في أكثر أقاليمها قبل أن تمضي على بدء الحركة مدة قرن كامل ، ففي سبع سنوات من الفترة بين ١٨٩٠ و ١٩١١ كان مجموع عدد المواليد في فرنسا أقل من مجموع عدد الوفيات بـ ١٦٨ الف نسمة ، وكان عدد سكانها سنة ١٩٢١ أقل من عدد سكانها سنة ١٩١١ بمليونين ومائة الف نسمة ، ولم تكن من بين

مجموع أقاليمها ـ البالغ عددها ٩٠ إقليماً ـ إلا ١٢ إقليماً سنة ١٩٣٢ و ٦ أقاليم سنة ١٩٣٣ كانت نسبة المواليد فيها اكبر بقليل من نسبة الوفيات ، ولم تكن نسبة المواليد في سائر أقاليمها الا أبطـأ من نسبة الوفيات . وهذه الحماقة والخطة الخرقاءهي التي ذاقت فرنسا وبالها في كلتا الحربين العالميتين بصورة هزائم منكرة متوالية قصمتظهرها وقضتعلى عظمتها السياسية قضاء ملموساً .

فهنا يثور في وجهنا هذا السؤال : هل إن دولة لايبلغ عدد سكانها إلا حوالي ٩٠ مليوناً وهي مع ذلك محاطة من كل جوانبها بأربع دول قوية يبلغ مجموع عدد سكانها ١٢ بليونا و ٨٠ مليونا والتوتر قائم في علاقاتها السياسية مع الدول الأربع لأسباب لاحاجة الى بيانها ، هل لدولة مثل هذه ان تُعرّض نفسها بنفسها لمثل الخطر الذي تعرضت له فرنسا ومالبثت الا يسيراً حتى ذاقت وباله بحيث قد أصبح وجودهااليوم موضع عبرة لكل ذي عينين في الدنيا ؟

تدهور الأخلاق :

إن كل نداء للحد من زيادة إنتاج الأولاد إذا لم يوجه إلى الجمهور إلا باسم مصلحتهم الذاتية ، لا يمكن أن يقف تأثيره عند حد قلة إنتاج الأولاد وحسب. غيّروا مرة أسلوب الجمهور للفكر والنظر، ووجهوه إلى أن من واجب كل واحد منهم أن لا يصرف جل ما يكسبه إلا على رفاهه الذاتي بحجة أن الأشخاص الذين يستهلكون ولا يكسبون شيئاً إذا اشتركوا مع الكاسبين بصورة أسرة متحدة ، فإنه لا بد أن يكون

المستوى المعيشي لتلك الاسرة منخفضاً لامبرر لاحتماله ، وجنّهوا الجمهور إلى هذه الفكرة مرة ، تروا بأم أعينكم أن الأفراد لا يضيقون ذرعاً بأولادهم فحسب ، بل يضيقون كذلك بآبائهم وأمهاتهم العجائز، وباليتامى من إخوتهم وأخواتهم ، وبالمرضى المزمنين الذين لا يرجى شفاؤهم وبالمصابين بنوع من العاهة أو العجز عن العمل من أقاربهم ، وبالجملة فإنه سيكون قذىً في عينهم وغصة في حلقهم كل شخص يطالبهم بنصيبه من مكسبهم ولا يقوم باكتساب شيء بنفسه وبسبب انخفاض مستواهم للمعيشة. وبديهي أن الذي لا يرضى بأن يتحمل على عاتقه عبء ذريته من صلبه ويحاول وسمه ليسد عليهم الطريق للخروج الى نور الحياة ، أنّى له ان يرضي بتحمل عبء أولئك الذين هم موجودون من ذي قبل وليسوا أعز عليه من ذريته على كل حال ؟ فهكذا لا بد أن تفضي بنا هذه الحركة إلى الإفلاس الخلقي ، ولا بد أن تطبع كل فرد في مجتمعنا بطابع الأثرة وحب الذات ولا بد أن تنضب كل ما في قلبه من ينابيع الخير والإيثار والتضحية والمواساة والتعاون والتكافل.

وما هذه النتيجة كذلك قائمة على مجرد القياس والظن ، بل إن المجتمعات التي قد أخذت في الدنيا بهذا الاسلوب للفكر والنظر ، قد نشأت ولا تزال تنشأ فيها كل هذه المساوىء والرذائل الخلقية . وهل منا أحد لا يعرف أين قد بلغت القساوة والهمجية من عامة سكان الغرب في معاملة آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم الآخرين حينما تتقدم بهم السن ويعجزون عن الكسب أو تعود عليهم عادية الدهر بصورة المرض أو البطالة أو غيرها؟

كثرة الفواحش :

مما لا مجال فيه للريب أنه حينما يعمَل على نشر المعلومات عن منع الحمل ، ويعمَل كذلك على جعل آلاته وأدويته في متناول كل فرد في المجتمع ، بغية إنجاح حركة تحديد النسل فعلاً، لا يكون ثمة شيء يضمن بأن هذه المعلومات تقتصر على الرجال والنساء المنخرطين بالحياة الزوجية، ولا يستفيد من هذه الآلات والأدوية غيرهم، بل الأصح أنهم لا يستفيدون منها على قدر ما يستفيد منها الأحبة غير المتزوجين من الرجال والنساء بل الفتيان والفتيات ، وهناك لا بد أن تبلغ الفاحشة في المجتمع ذروتها . إن أي مجتمع إذا كان عنصر الدين والأخلاق في مناهجه للتعليم والتربية يصيبه الوهن تلو الوهن مع مرور الأيام ، وكانت فيه السينما والصور العارية والكتب الخليعة والأغاني الفاحشة تحرك الغرائز الجنسية لدى الشبان والشابات ، وكانت فيه حدود الحجاب الشرعي تنتهك علانية ، وكانت فيه فرص الاختلاط الحر تتوفر أمام الرجال والنساء ، وكانت فيه أسباب العري والتبرج وعرض الزينة والتهتك والجمال في تقدم ونمو مع مرور الأيام ، وكانت قد فرضت فيه قيود قانونية شديدة على تعدد الزوجات ، ولم يكن فيه أي قيد أو حظر قانوني على إقامة العلاقات الجنسية غير الشرعية ، وكان فيه زواج البنت ما لم تبلغ ١٦ سنة جريمة في نظر القانون ، فلن يكون فيه شيء يستطيع أن يمنع الناس عن ارتكاب الزنا غير « الخوف من حمل الحرام ». أزيحوا هذا الحاجز الوحيد مرة وطمئنوا النساء اللاتي في قلوبهن مرض بأنكم قد اخترعتم لهن من الآلات والأدوية

ما يستطعن به أن يسلّمن أنفسهن إلى أخدانهن بدون ما خوف من حمل الحرام وفضيحته ، تروا بأنفسكم أنه لا شيء يستطيع الوقوف في وجه سيل الزنا الجارف في مجتمعكم .

ما هذه النتيجة كذلك بنتيجة خيالية ، بل إن كل قطر من أقطار العالم كلما انتشرت فيه حركة تحديد النسل ، شاع فيه الزنا وتعددت فيه حوادثه بصورة هائلة لا نظير لها في التاريخ الإنساني .

الفرق بين المحاولة الفردية والحركة الاجتماعية لتحديد النسل:

إن هذه النتائج الثلاث التي بينتها آنفاً لتنظيم النسل أو التخطيط العائلي لا سبيل إلى النجاة منها إذا عُمل على نشر وسائل منع الحمل بصورة حركة شعبية عامة .

إن منع الحمل إذا أُبقي محدوداً بشؤون فردية مخصوصة قد يشعر فيها زوجان متزوجان بحاجة حقيقية إليه نظراً لأحوالهما الشخصية المخصوصة،وأفتى بجوازه لهما عالم تقي من علماء الدين لصحة حاجتهما ، ومع ذلك لم تُهيّأ لهما وسائل منع الحمل إلا عن طريق الطبيب ...إذا كان منع الحمل محاطاً بمثل هذه الشروط والقيود ، فلن يرجع على الحياة الاجتماعية بمثل تلك المضار الفادحة التي قد ذكرناها آنفاً .ولكن هذا المنع الفردي للحمل مختلف في نوعه عن حركة شعبية تقام بين الجمهور لدعوة كل فرد منهم إلى تحديد النسل ، فإن أحداً لا يستطيع أن يقوم في وجه النتائج الموبقة التي ذكرتها آنفاً عن الظهور في الصورة الأخيرة .

وجهة نظر الاسلام :

قد أصبح سهلاً عليّ الآن بعد هذا البحث أن أبين ما يهدينا اليه في هذه المشكلة ذلك الدين الفطري الذي ندين به . إن أنصار حركة تحديد النسل كثيراً ما يستدلون على إباحـــة العزل بروايات يجدونها في كتب الحديث ، ولكنهم يصرفون النظر عن حقيقة مهمة بشأن هذه المرويات، وهي أنه لم تكن هناك في بلاد العرب وفي زمن الرسول ﷺ حركة عامة قائمة لدعوة الناس إلى تحديد النسل، ولا جاء أحد إلى الرسول ليسأله عما إن كان يجوز له القيام بحركة مثل هذه ، وكل ما في الأمر أن نفراً من أصحاب الرسول ﷺ جاؤوا اليه على أحيان مختلفة يعرضون عليه ظروفهم الشخصية المخصوصة ويسألونه عما إن كان من المباح لهم كمسلمين في مثل هذه الظروف أن يعزلوا ؟ والرسول ﷺ في رده على سؤال بعض هؤلاء ، قد نهى عن العزل ، وفي رده على سؤال بعضهم عدّ العزل فعلا عبثاً لا طائل تحته ، على أنه قد سكت في رده على سؤال بعضهم أو قال ما يمكن الاستدلال به على إباحة العزل . ونحن إذا لم نأخـذ بالاعتبار إلا أقواله التي تـدل على إباحة العزل ، فإنما يمكن الاستدلال بها على إباحة العزل للأفراد بصفتهم الفردية وفي ظروفهم الشخصية المخصوصة ولا يمكن بحال أن يستدل بها على إباحة القيام بحركة شعبية عامة لمنع الحمل . وقد ذكرت لكم ، أيّ فرق عظيم يحصل بين محاولة الأفراد لمنع الحمل بصفتهم الفردية، وبين أن تقام لهـذا الغرض حركة شعبية عامـة ، فما الاستدلال بإباحة

أحدهما على إباحة الآخر بصرف النظر عن هذا الفرق العظيم بينهما ، إلا قياس مع الفارق .

أما الحركة الاجتماعية لتحديد النسل ، فهي من فكرتها الاساسية إلى منهاج عملها وإلى ثمراتها العملية ، متصادمة مع الاسلام في صميمه . وهل لها فكرة أساسية غير أن زيادة السكان تسبب قلة موارد الرزق وتصعّب الحياة على السكان القليلين ، عين الفكرة التي يخطئها الاسلام ويلقي في روع الانسان مرة بعد مرة بمختلف أساليبه البليغة أن ليس الرزق إلا من وظيفة الذي قد خلق الانسان وأنه ما خلق الإنسان بدون ما تدبير ولا تقدير ، ولا قد وكل وظيفة الرزق إلى غيره بعد أن خلق الإنسان بنفسه. وقد أبدأ القرآن وأعاد في بيان هذه الحقيقة في غير واحدة من آياته بحيث أني لو أردت أن أسرد هنا كل هذه الآيات ، لطال بنا الكلام ، لذا فاني لا أسرد عليكم هنا إلا بعض هذه الآيات وذلك على سبيل النموذج . يقول سبحانه وتعالى : (وكأيّنْ مِنْ دابّةٍ لا تحْمِلُ رِزْقَها ، اللهُ يَرْزُقُها وإياكم) « العنكبوت » ويقول : (ومامِنْ دابّةٍ في الأرْضِ إلا على الله رِزْقُها) « هود » ويقول: (إنّ اللهَ هُوَ الرزّاقُ ذو القوّةِ المتينُ) « الذاريات » . ويقول : (لهُ مقَاليـــدُ السموات والأرضِ يَبْسُطُ الرِزْقَ لمنْ يَشاءُ ويقدرُ) « الشورى » ويقول :(وجَعلنا لكم فيها معايِشَ ومَنْ لستُمْ لَهُ برازِقين . وإنْ مِنْ شيءٍ إلا عندنا خزائِنُهُ وما نُنَزّلُهُ إلا بقدَرٍ معْلوم) « الحجر » .

انما المهمة التي يجعلها الله سبحانه وتعالى من وظيفة الإنسان بعد بيانه له حقيقة الرزق في هذه الآيات وغيرها ، هي أن يبذل سعيه للبحث عن

رزقه من خزائنه المبثوثة على وجه الأرض وباطنها ، أو بعبارة أخرى ، إن الرزق من وظيفة الخالق وأن البحث عنه من وظيفة الانسان : (فابتغوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ واعبُدوهُ واشكروا له) . وعلى هـذا الاساس ينعي القرآن في غير موضع من آياتـه على الذين كانوا يقتلون أولادهم خشية الاملاق ـ أي الفقر ـ أيام الجاهلية (لا تقتُلوا أولادكم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزقُكمُ وإيام) (ولا تقتُلوا أولادَكمْ خَشْيَةَ إملاقٍ نحنُ نرزُقهُم وإياكم) وما الزجر لهم في هاتين الآيتين لجريمـة واحدة وإنما هو لجريمتين : الاولى أن كانوا يقتلون أولادهم ، والاخرى ان كانوا يرون في ولادة أولادهم سبباً لفقرهم وبؤسهم . ولذا فقد زجرهم على جريمتهم الاولى ونَدد بسوء اعتقادهم ببيانه لهم : لماذا ترون أنفسكم مسؤولين عن الرزق ، فانما نحن الذين نرزقكم وأولادكم.

واليوم إذا كان الناس لا يقتلون أولادهم لمنع الزيادة في أفراد النسل، ويستعملون طرقاً تحول دون وقوع الحمل ، فإنما ذلك اجتناباً منهم للجريمة الاولى مع بقاء الجريمة الاخرى قائمة على حالها إذا كان خطر ضيق الارض ونفاد موارد الرزق هو الباعث لهم على منع الزيادة في أفراد النسل .

هذا هو رأي الاسلام في تلك الوجهة للفكر والنظر ،والتي لأجلها ظلت فكرة تحديد النسل ترفع رأسها في الدنيا بالأمس، ولأجلها قد رفعت رأسها اليوم . وانظروا الآن نظرة في تلك النتائج التي لا بد من ظهورها إذا أعطيت هذه الفكرة صورة كصورة حركة اجتماعية وتفكروا : كيف للاسلام أن يصبر على نتيجة واحدة من هـذه النتائج ؟ هل الدين الذي

يرى في الزنا أشنع جريمة خلقية ، ويحكم على من يأتيها من أفراد المجتمع بأشد وأوجع ما يكون من ألوان العقاب ، هل ترجون منه أن يصبر على حركة لا بد أن تعرّض المجتمع كله لخطر انتشار هذه الجريمة ؟ وهل إن الدين الذي يجب أن يرى مكارم الاخلاق مثل صلة الرحم والايثار والمواساة والتعاون على البر والتقوى ، تترقى وتزدهر في المجتمع الانساني، هل ترجون منه أن يصبر على نمو تلك العقلية القائمة على الأثرة وحب الذات التي لا بد من نشوئها في المجتمع إذا انتشرت فيه الدعوة إلى تحديد النسل بصورة حركة عامة ؟ وهل إن الدين الذي يحب السلام لشعوبه الاسلامية ويعدّه أعز شيء على نفسه ، هل ترجون منه أن يصبر على حركة تسبب مزيد النقص في عدد المسلمين الحاطين بأعداء يفوقونهم عدة مرات في العدة والعتاد ، وبذلك تترك في قوتهم للدفاع عن أنفسهم آثاراً لا تحمد عقباها ؟ إن هذه الأسئلة يستطيع مجرد العقل العام ان يجيب عليها بنفسه ولست بحاجة في شأنها إلى ذكر ما يتعلق بها من آيات القرآن وأحاديث الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

★ ★ ★

استعراض علمي لحركة تحديد النسل

للأستاذ خورشيد احمد بجامعة كراتشي

هناك جهود جبارة وأموال طائلة تصرف اليوم بكل سخاء لنشر حركة تحديد النسل أو تنظيمه في البلاد الشرقية عامة وفي العالم الاسلامي خاصة. لهذا فقد أصبحت هذه الحركة موضوع البحث ومثار المناقشة في أكثر الأوساط الدينية والعلمية والفكرية في هذه البلاد. وسواء أكنا موافقين أو غير موافقين على وجهة خاصة من مختلف وجهات النظر في صدد هذه الحركة، فإن من الحقيقة التي لا تقبل الجدل والمكابرة أن البحث والمناقشة يسهلان الطريق — على كل حال — إلى معرفة الحق، وأن تصادم الآراء المختلفة واحتكاك الأدلة المتعددة يوفران الفرص المتكافئة للتوصل إلى الصواب واتباع سبيله. والصادق المخلص من يشق طريقه بأمانة وتجرد مستعيناً بما حباه الله من المواهب الفكرية والقوى العملية ولا يرضى بحال أن يسلك طريق التقليد والمحاكاة.

ومن دواعي الأسف وبواعث الأسى أن عالمنا الاسلامي قد نشأت فيه طبقة متطفلة على الغرب لا تنظر في الأمور ولا ترى فيها رأيها إلا بعين الغرب، وقد فتنتها مدنيته الزائفة وحضارته المزخرفة حيث قد ضحت

في سبيل التصبغ بصبغتها بكل ما آتاها الله من الحرية الفكرية والعقلية ، وهي بدل أن تجشم نفسها الاجتهاد والكدح، تركن دائماً إلى تقليد الغرب ومحاكاة أهله ، وهي بدل أن تتفكر بعقلها تحب أن تتبع الغرب في حياتها اليومية تقليداً أعمى. إن العصبية والتقليد لا يُوجَدان في طبقة مخصوصة من المتدينين فحسب ، وإنما هما يوجدان كذلك على صورة أفظع وأشنع في أولئك المتنورين الذين يفتخرون بثقافتهم الجديدة وحضارتهم العصرية . إنهم يتناغون بالاجتهاد ويدعون اليه بكل جهارة ، ولكن الذي يقصدونه به إنما هو أن يصوغوا الاسلام في قالب من قوالب الغرب ويجعلوه لا يمشي إلا في ركابه ، وهم في حقيقة الأمر ليسوا على شيء من الاجتهاد بمعناه الصحيح . إنهم لا يتفكرون إلا بعقول الغرب وأذهانه ولا يتكلمون إلا بلسانه ولا يسلكون في حياتهم إلا سبيله دون ما وعي ولا شعور .

إننا لا نعادي الغرب من حيث هو ، فإن لديه الحسن والقبيح ، والجدير بالقبول والرفض ، فعلينا أن لا ننظر في كل ما يأتينا من قبله إلا بأنظارنا، ولا نفكر فيه إلا بعقولنا وأذهاننا ولا نشق طريقنا في الحياة إلا ببصيرتنا مستعينين بما قد أعطانا الله من قوى الفكر والنظر؛ إذ أن التقليد والمحاكاة لا ينتجان أبداً إلا الموت الفكري والارتداد المدني .

١ ــ هل المشاكل الاقتصادية هي الأساس لحركة تحديد النسل؟

إن المشاكل الاقتصادية هي التي يضع عليها مؤيدوا حركة تحديد النسل أساس استدلالهم . ومن هنا يقترحون على الناس اتباع خطة منع الحمل للتغلب على مشاكلهم الاقتصادية الناشئة عن كثرة السكان . إلا أن

السؤال الذي يواجهنا في هذا الصدد هو : هل حقاً إن هذه الحركة ما نالت التقدم والنمو في العالم الجديد إلا لأسباب اقتصادية ؟ الذي نعلمه من دراسة التاريخ أن لا علاقة هناك البتة بين وسائل المعيشة وتحديد النسل او تنظيمه .

نعم ! لقد لفت مالثوس الأنظار إلى مشكلة السكان من الوجهة الاقتصادية وكان ـ كذلك ـ قد أشار على الدنيا بالحد من زيادة السكان . والجدير بالذكر أن مالثوس هذا كان من أشد المعارضين لعملية منع الحمل وإنما كانت كل دعوته لتحديد النسل باتباع تدابير خلقية كالعزوبة وضبط النفس في الحياة الزوجية . إن النهضة الاقتصادية والصناعية التي ظهرت في البلاد الغربية في حياته وبعد مماته، قد بدلت الظروف ظهراً لبطن ولأجلها برزت إلى عالم الوجود وجهة للحياة جديدة كانت خافية عن عين مالثوس، أي الامكانيات اللانهائية لزيادة وسائل المعيشة وموارد الرزق .

إن مالثوس هدّد الدنيا سنة ١٧٩٨ بخطر النقص في وسائل المعاش، ولكن الذي ثبت ـ على ضوء ما قد حصل من التقدم الفني والصناعي في القرن التاسع عشر ـ أن تنبؤاته ومخاوفه ما كانت إلا نقشاً على سطح الماء.

وفي سنة ١٨٩٨ ، أي بعد مالثوس بمائة سنة كاملة ، دق السير وليم كروكس ، رئيس الجمعية الاقتصادية البريطانية ، جرس الخطر مرة أخرى ، وقال إن قلة موارد الرزق لا بد أن تظهر على أخطر صورة مخيفة وتتعرض الدنيا من جرائها للمجدبة والموت على نطاق واسع جداً إلى سنة ١٩٣١ ، إلا أن الدنيا وجدت نفسها سنة ١٩٣١ مواجهة لمشكلة

زيادة الانتاج (Over Production) بدلاً من مشكلة قلة الإنتـاج . والحقيقة أن هناك شيئاً وحيداً ، لا غير ، يجوز القول به بالنسبة لكل ما أقيم حتى اليوم من التنبؤات والتقديرات الحسابية عن عدد السكان ووسائل المعاش ، هو أنها لم تثبت في كل مرة إلا خطأها . يقول الاستاذ تشارلس جائيد والاستاذ تشارلس وليست : « يأبى التاريخ أن يؤيد مالثوس في نظريته لزيادة السكان وقلة وسائل المعاش فإن أي قطر من أقطار العـالم ما ظهرت فيه الظروف التي يجوز القول على أساسها بأن هذا القطر مواجه لمشكلة زيادة السكان ، بل لقد كانت زيادة السكان في بعض الأقطار ـ كفرنسا مثلاً ـ بطيئة جداً . وأما الأقطـار الأخرى فإن كانت زيادة السكان فيها تستحق الذكر ، فإن نسبتها ما كانت على كل حال أكبر من نسبة زيادة الانتاج » .

وهذا ما يؤيده إيرك رول (Erick Roll) بقوله :

« إن التقدم الاقتصادي في الدنيا ، وهو حقيقة لا تنكر ، قد فنـد نظرية مالثوس تفنيداً كلياً » . ويضيف قائلاً:

« إن الدراسة العادلة لتاريخ العالم تكفل إيضاح الحقيقة القائلة بأن أي قطر في الغرب ما جرى على خطة تحديد النسل بسبب أن وسائله للمعاش كانت قليلة ولم يكن إنتاجه كافياً لسد حاجاته المتزايدة . إن الفترة التي تقدمت فيها هذه الحركة ـ منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين ـ كانت هي بذاتها فترة التقدم الفني والعلمي والاقتصادي في أوربا وأمريكا . فالذين يعتقدون أن هذه

الحركة وليدة المشاكل الاقتصادية ، إنما يتقدمون إلى الدنيا بدليل واضح على جهلهم بالتاريخ الاقتصادي ، فمثلا إن الأرقام الآتية تميط اللثام عن حقيقة الدعوى القائلة بأن المشاكل الاقتصادية هي الأساس لهذه الحركة:

القطر	الفترة	نسبة الزيادة في الانتاج القومي لكل فرد
انجلترا	١٨٦٠ - ١٩٣٨	٢٣١٪
امريكا	١٨٦٩ - ١٩٣٨	٣٨١٪
فرنسا	١٨٥٠ - ١٩٣٨	١٣٥٪
السويد	١٨٦١ - ١٩٣٨	٦٦١٪

والجدير بالذكر أن هذه الزيادة في الانتاج القومي إنما حصلت في جميع هذه الأقطار مع الزيادة في عدد السكان ، بل على الرغم منها . وأما الزيادة السنوية في نسبة إنتاج هذه الأقطار مع زيادة سكانها ، فهي:

القطر	الزيادة السنوية في نسبة الانتاج
انجلترا	٢،٩ ٪
امريكا	٤،٨ ٪
السويد	٨،٥ ٪
فرنسا	١،٥ ٪

فالذي تدل عليه هذه الأرقام بكل جلاء أن حركة منع الحمل إنما انتشرت في أوربا ولاقت فيها الرواج العام أيام كان مستواها للمعيشة في ارتفاع متزايد وكان إنتاجها الزراعي والصناعي في تقدم وازدهار سنة

فسنة ، وبعبارة أخرى ، أن أوربا لم تكن في تلك الأيام متهددة بخطر اقتصادي ولم يكن فيها أي أساس اقتصادي حقيقي لانتشار حركة تحديد النسل . وهذا عين ما عليه وضع الدنيا الاقتصادي في أيامنا الحاضرة . إن معدل الزيادة في موارد الدنيا الغذائية منذ ١٩٤٨ إلى الآن هو ٢٫٧٪ سنوياً وهو على ضعفي معدل الزيادة في عدد سكانها ، كما أن معدل الزيادة في إنتاجها الصناعي هو ٥٪ سنوياً خلال هذه الفترة وهو أكثر من ثلاثة أمثال معدل الزيادة في عدد سكانها .

اما إن قيل: إذا لم يكن هناك أساس اقتصادي لانتشار حركة منع الحمل في أوربا ، فماذا كان سببه الحقيقي إذن ، فالجواب على هذا السؤال : إن السبب الحقيقي في انتشار هذه الحركة في أوربا ، هو – على ما نعتقد – المشاكل الاجتماعية والمدنية ولاغير . ان المدنية التي قامت في أوربا على أساس المساواة بين الرجل والمرأة واختلاطهما الحر ، كان من مقتضاها الفطري والمنطقي أن يعمل على ترويج حركة منع الحمل حتى يستطيع الجمهور – رجالا ونساء – أن يستمتعوا بأكبر قسط ممكن من لذة النفس ويتملصوا مع ذلك من التبعات المترتبة من قبل الفطرة على الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة .

ليست مشكلة زيادة السكان من أولها إلى آخرها في تاريخ الغرب إلا مشكلة اجتماعية ومدنية. وإذا كان لها نوع من العلاقة بالحياة الاقتصادية فإنما هو في جانب « الهدم والتخريب» لا في جانب «الانشاء والتعمير» لأن هناك علاقة وثيقة بين« خلو حضن المرأة»و«بطالة الرجل» – كما يقول ذلك

العلامة محمد إقبال رحمه الله — إنها حقيقة قد أوضحها المحققون الجدد في الغرب نفسه من أمثال اللورد كينس والاستاذ هينسن والأستاذ كول في مباحثهم الاقتصادية .

٢ – حركة تحديد النسل والسياسة العالمية :

فكما قد قلنا آنفا ، ليس هناك أي أساس اقتصادي كانت تقوم عليه حركة تحديد النسل سابقاً أو هي تقوم عليه حالاً ، وكل مانالت من التقدم والانتصار في بلاد الغرب إنما نالته لأسباب اجتماعية ومدنية . وأما الاهداف التي يرمي اليها الغرب من وراء نشر هذه الحركة في بلاد الشرق فإنما هي سياسية بحتة في حقيقة أمرها .

مما لايخفى على طالب لعلم التاريخ أن تعدد السكان له أهمية سياسية جذرية ، ولذا فإن كل حضارة أو قوة عالمية قد أولت جل اهتمامها الى زيادة أفرادها في عصرها الانشائي والتعميري ، ولذا فإن المؤرخ المعروف الاستاذ ويل درانت (Will Durant) يعد كثرة السكان من أهم أسباب التقدم المدني ، وأيضاً يعدها الاستاذ آرنولد توينبي من تلك التحديات (Challenges) الاساسية التي رداً عليها يخرج الى عالم الوجود تقدم أي حضارة إنسانية . ومن الحقيقة كذلك أن الدنيا ماخلت فيها أمة قامت بعمل جليل يذكر إلا وبذلت أقصى جهودها للزيادة من نسلها . وانه على العكس من ذلك — لا تنشأ مشكلة قلة السكان إلا في أمم مترديه الى الزوال والفناء والانقراض ، وذلك أن قلة السكان تتدرج شيئاً فشيئاً

الى اضمحلال القوة السياسية وان كل امة اذا بدأت قوتها السياسية تضمحل شيئاً فشيئاً ، فلا بد لها أن تتردى في هوة الخمول والفناء آخر الأمر . وهذا مايشهد بصحته تاريخ كل ماقام في الدنيا حتى اليوم من مراكز الحضارة والمدنية .

إن زيادة السكان هو السر الكامن في عظمة أوربا الجديدة وتقدمها الباهر في ميادين العلم والفن والصناعة . يقول الاستاذ اورجانسكي : (Albrano F. K. Organski) :

« ان التضخم العظيم — مطلق العنان — لعدد السكان كان له التأثير القوي والقول الفيصل في الارتفاع باوربا وجعلها قوة من الدرجة الاولى في العالم . انه لم يكن الا من نتائج انفجار عدد السكان (Population Explosion) في اوربا بعد ان تهيأت لها الايدي العاملة لتسيير حياتها الاقتصادية الصناعية من جانب، ومن جانب آخر ظل يتهيأ لها المهاجرون والجنود والعمال للانتشار في العالم وتسيير مختلف دولهـــا المنتشرة في أصقاعه البعيدة المترامية الاطراف حيث كان قد دخل في حوزتها السياسية نصف مساحة الكرة الارضية وثلث عدد سكانها » .

ويعتقد الاستاذ اورجانسكي المذكور ، أن أحسن أقطار العالم وأكثرها رفاهية، لهو القطر الذي فيه زيادة السكان وأنه أرفه مايكون أيام يتجه عدد سكانه الى الزيادة المطردة .

ويقول الاستاذ كولين كلارك :

« أبى سكان انجلترا بعلو همتهم أن يستمعوا الى مالثوس ويقبلوا نظريته

المعروفة في عدد السكان . ولعمري إنهم لو استسلموا لمالثوس وقبلوا نظريته ، لما كانوا اليوم إلا شعباً من طراز الشعوب الزراعية العادية في القرن الثامن عشر ، ولما نشأ السؤال عن ارتقاء الدولة المتحدة البريطانية والولايات المتحدة الامريكية. ومن المقتضيات الاقتصادية الفطرية للصناعة على نطاق واسع ، طلب واسع المنتجات ، وسوق كبيرة ، ونظام مؤثر للمواصلات ، مما لايمكن حصوله الا بزيادة مطردة في عدد السكان ».

وان هذه الاهمية لعدد السكان لها عدة نواح من سياسية واقتصادية لابد من الاشارة الى بعضها في مايلي :

إن آسيا والعالم الاسلامي أكبر مناطق الارض اليوم ازدحاماً بالسكان ـ وماعدد السكان في البلاد الغربية بالقياس اليها الا قليل ـ ومما يشير اليه اتجاه زيادة السكان إشارة واضحة أن نسبة هذه البلاد لزيادة السكان سوف تتعرض لمزيد النقص في المستقبل . وانما الأساس الذي كان لقيادة الغرب وسيادته السياسية في العالم منذ القرون الخمسة الماضية هو ذلك التفوق الفني والعلمي الذي كان له على الشرق والذي به استطاع أن يقيم احتكاره السياسي على العالم على الرغم من قلة سكانه ، بل الذي خيل الى الناس في اوائل ايام الاستعمار أن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسي على العالم إلى أبد الآباد على الرغم من قلة سكانه ، ولكن الأوضاع الحالية والحقائق الجديدة في العالم قد فندت هذا الخيال الخاطىء وأماطت اللثام عن وجه حقيقته .

لأجل التناقص المطرد في عدد سكان البلاد الغربية ، قد ظهرت بوادر

الانحطاط والأفول في قوتها السياسية ، وعم الشعور بعد الحرب العالمية الأولى خاصة، بأن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهتين السياسية والاجتماعية . ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العالمية شيئاً فشيئاً ، وأعلن المارشال باتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأن من الأسباب الأساسية الرئيسية التي عملت لتوهين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية: قلة عدد الاطفال (Too Few Children) والسكان . وأيضاً بدأت آثارها السيئة تحدث في حياة انجلترا وغيرها من البلاد الغربية الاخرى ، وأوجست خيفة من نتائجها كلٌ من السويد وألمانيا وفرنسا وانجلترا وإيطاليا وشعرت بحاجة ملحة إلى إعادة النظر في خطتها بشأن عدد السكان ، ولذا فهي تبذل اليوم جهوداً متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلاً من تقليله ، إلا أن الغرب لا يرجو مع كل هذه الجهود أن يزيد عدد سكانه إلى حد يستطيع معه أن يحتفظ بمكانته السياسية ويبقى متربعاً على كرسي السيادة العالمية ، بل الذي لا شك فيه ويراه بأم عينه ، أنه سيعود عاجزاً في المستقبل عن مقاومة الشرق والعالم الاسلامي مهما بذل من جهوده لزيادة عدد السكان في أقطاره .

ثم إن المعلومات العلمية والفنية التي ما زالت حتى اليوم محافظة على سيادة الغرب ونفوذه في الشرق ، والتي حرم منها الشرق يبذل جهود عظيمة ، قد بدأت تنتشر اليوم بكل سرعة في بلاد الشرق أيضاً . ومع هذه المعلومات فإن عدد السكان في بلاد الشرق ـ كما قلنا ـ أكبر بدرجات من عدد السكان في بلاد الغرب ، فلا إمكان إذن لبقاء شعوب الشرق محكومة

مغلوبة على أمرها بعد تدربها على الآلات الميكانيكية وتضلعها في العلوم الفنية ، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة بسائق الفطرة أن تفقد سيادة الغرب على الشرق آخر أيام حياتها ، وأن تبرز القيادة العالمية من أماكن فيها زيادة السكان ولها في الوقت نفسه خبرة فنية وتكنيكية وحربية ، فكل مايصنعه الغرب اليوم الاحتفاظ بسيادته العالمية في مثل هذه الأوضاع خطير للغاية ، أي محاولته للحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل ووضع العراقيل في سبيل رواج المعلومات الفنية في أقطاره .

إننا لا نقول هـذا جزافاً ولا لعصبية على الغرب ، بل إننا نستطيع التدليل على صحته بوسائل الغرب نفسه . هناك عشرات الكتب طبعت في الغرب ومهمتها أن تبالغ كل المبالغة في عرض هذه المشكلة، مشكلة زيادة السكان في الشرق وتقترح على أساسه اتباع خطة تحديد النسل ومنع الحمل كحل ناجع لهذه المشكلة . وان مكتبة البلاد الغربية مليئة بمثل هذه الكتب وهي تؤثر في الغرب وحكوماته بصفة مستمرة ، كما ان السلوك العملي للقوى الاستعمارية يوثقها توثيقاً . وإننا في ما يلي نذكر عدة أمثلة تشهد بما نقول شهادة ما بعدها شهادة . يقول فرانك نوتيستين (Frank Notistin) في مجلة أمريكا الشهيرة «الشؤون الخارجية» (Foreign Affairs) تحت عنوان « السياسة والقوة في أوربا بعد الحرب» (Politics and Power in Post - War Europe) :

« إذن لا إمكان الآن لشعبٍ في أوربا الشرقية أو الغربية أو الوسطى

أن يتحدى العالم مرة أخرى ، وإن ألمانيا كشعوب أوربا الاخرى قد اجتازت المرحلة التي كان لها فيها أن تبسط نفوذها وتصير قوة غالبة في العالم ، وذلك أن التقدم الفني والعلمي قدوصل أيضاً إلى البلاد التي يتزايد سكانها بسرعة فائقة ».

الحقيقة أنسيادة أوربا السياسية تتوجس خطراً سياسياً شديداً من تزايد السكان فيآسيا والعالم الاسلامي في النصف الثاني من القرن الجاري. تقول مجلة « تايم » الامريكية في عددها الصادر في ١١ يناير ١٩٦١ :

«إن هذيان أمريكا وكل ما تبذل من النصائح والمواعظ عن مشكلة السكان إنما هو نتيجة - إلى حد كبير - لشعورها بتلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغير الاحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وخاصة على أساس زيادة السكان في هذه المناطق بحيث يصبحون أغلبية في العالم ». ويكتب آرنولد جرين (Arnold H. Green) قائلاً :

« إن عدد السكان في العالم قد بلغ ضعفيه خلال الخمسين سنة الماضية ، ولأجله قد تعرض التوازن في القوة الاقتصادية والعسكرية (Balance of Economic and Milittary Power) في الدنيا لعبء (Strain) شديد .

ويعلن آرثر كورماك (Arther Mc Cormack) نتيجة بحثه في هذا الشأن بكلماته التالية : « إنه لما يعجب الناس في البلاد المتقدمة اعجاباً فطريا أن يقل عدد السكان في البلاد غير المتقدمة ، وذلك أنهم يرون في زيادتهم المطردة خطراً داهماً على مستوام الرفيع المعيشة وعلى سلامتهم السياسية». وينتقد ميك كارل هذا السلوك للامم الغربية ويقول بكل صراحة : « إن

أهل الشرق سوف لايلبثون إلا قليلا حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يغتفرونه لأهل الغرب لأنه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الامم غير المتقدمة ، ولا سيما الأمم السوداء ، إلى مزيد من الذل والخسف حتى تتمكن الامم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها. وإننا نستطيع أن نعرض في هذا الشأن مالا يأتي تحت الحصر من مثل هذه الاقوال لكتاب الغرب ، إلا أن هذه الشهادات على قلة عددها كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والذي يتضح من هذا البحث أن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل إلا للبلاد التي تتمتع بزيادة السكان وتتحلى في الوقت ذاته بالعلوم الفنية ، فليس ثمة شيء يستطيع أن يحتفظ لأمم الغرب بسيادتها وقيادتها العالمية سوى أن تعمل على نشر حركة تحديد النسل ومنع الحمل في بلاد آسيا وأفريقيا . لأجل هذا فان البلاد الغربية تعمل اليوم وسعها لزيادة سكانها ولكنها في الوقت نفسه تستعين بأحسن ما عندها من أساليب الدعاية لتعميم حركة تحديد النسل في البلاد الآسيوية والافريقية . ويا للأسف إن كثيراً من المسلمين السذج بأنفسهم يتقدمون ليقعوا في شرك دجلها،وقد أبى الصبح إلا أن يتجلى لكل ذي عينين في هذا الزمان ، فنحن إذا انخدعنا ـ على رغمه ـ بمكايد أهل الغرب وانطلى علينا دجلهم ، فلا تكون تبعة كل ذلك إلا على أنفسنا ولا بد أن نجد عندئذ أن أصدقاءنا المخلصين الذين يلقنوننا اليوم دروساً في تنظيم أفراد الأسرة أو التخطيط العائلي شفقة علينا ، يستغلون ما فينا من مواطن الضعف ويحاولون أن يبسطوا علينا سيطرتهم

بكل معنى الكلمة . لقد كان حكيم الشرق وشاعر الاسلام العلامة محمد إقبال رحمه الله قد تحسس بهذا الخطر الباغت قبل اليوم بمدة ونبه عليه الأمة الاسلامية ودعاها إلا اتخاذ التدابير الفعالة للاحتراس منه ، ولنا في كلماته التالية درس وأيما درس ودعوة حثيثة إلى الجد في الفكر والعمل .

يقول : « وكل ما هو واقع اليوم أو هو على وشك الوقوع في الغد القريب في بلادنا ، إن هو إلا من آثار دعاية أوربا . هناك سيل عرم من الكتب والوسائل الاخرى قد انجرف في بلادنا لدعوة الناس إلى اتباع خطة منع الحمل وتشويقهم إلى قبول حركتها ، على حين أن أهل الغرب في بلادهم أنفسهم يتابعون الجهود الفنية لرفع نسبة المواليد وزيادة عدد السكان . ومن أهم أسباب هذه الحركة عندي أن عدد السكان في أوربا في تدهور شديد وتناقص مطرد بناء على الظروف التي ماخلقتها أوربا إلا بنفسها، وقد استعصى عليها اليوم أن توجد لها حلا مرضياً ، وإن عدد السكان في بلاد الشرق ـ على العكس من هذا ـ في زيادة مطردة ، فهذا ما ترى فيه أوربا خطراً مخيفاً على كيانها السياسي » .

هذه هي حقيقة مشكلة السكان وهذا هو السياق السياسي التاريخي لحركة تحديد النسل . واني على مثل اليقين بأننا مالم ندرس هذه الحركة كما هي بسياقها السياسي والتاريخي ، لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها ولا أن نرسم لأنفسنا خطة عملية راشدة بشأن عدد السكان .

مشكلة عدد السكان والدفاع :

قد أشرنا آنفاً بكلمات مختصرة إلى ما لعدد السكان من الأهمية الدفاعية . وما أصدق الاستاذ اورجانسكي في قوله :

« وفي المستقبل انما تكون القوة أكثر عند المعسكر الذي يكون عنده الافراد أكثر » .

والذين لهم نظرة في عوامل الانتصار في الحرب لايخفى عليهم ان الاهمية الدفاعية لكثرة القوات المسلحة ولكثرة عدد السكان قد تضاعفت في هذا الزمان ، زمان الاسلحة الذرية ، بصورة خاصة . لقد كان يبدو قبل سنوات أن الانسان قدفقد - أوكاد - اهميته في الحرب إزاء الأسلحة وأن الطاقة الانسانية تكاد تكون غير مؤثرة في الانتصار في الحرب ، ولكن قليل أولئك الذين لا يزالون يعتقدون لليوم بصحة هذه الفكرة . أفلم تكن الصين قد أعجزت أمريكا وصمدت في وجه أسلحتها ، أفتك ما كانت ، في حرب كوريا لمجرد كثرة جنودها المديدة ؟ ولذا فان أمريكا نفسها تصرف اليوم أقصى جهودها لترقية قواتها البرية وعصاباتها غير النظامية في تنظيمها العسكري الجديد .

إننا إذا تفكرنا في القضية التي هي موضوع بحثنا من وجهة نظر العالم الإسلامي ، وجدنا أن هناك ثلاثة أخطار تواجهنافي الوقت الجاري:

١ - إننا حتى الآن ما انتهينا من المعركة مع الاستعمار الغربي ولم نتخلص من مكايده ودسائسه ، وكل ما في الأمر أن قد دخلت معركتنا معه طوراً جديداً .إن حوادث السويس وبنزرت لتذكرنا بأن لا مكانة في الدنيا للضعيف ، وأن ليست ولا أم الاماكن في العالم الاسلامي بمصونة أومأموناً عليها .فنحن إن كنا نريد لأنفسنا العز والأمن والسلامة والمكانة العليا في أسرة الامم العالمية ، فعلينا أن نرفع قوتنا السياسية والحربية إلى مستوى عال جداً .

٢ ـ من أكبر مشاكلنا اليوم الاستعمار الصهيوني . إن دولة إسرائيل تجري اليوم على خطة زيادة سكانها بكثرة إنجاب الأطفال وبطلب السكان من البلاد الأخرى، وعلى ظهرها رأس المال اليهودي العالمي ، وهي لا تزال جادة في مضاعفة قوتها العسكرية . فعلى مسلمي العالم الاسلامي أن لا يدخروا وسعاً في مقاومة هذا الاستعمار الصهيوني البغيض .

٣ ـ وهناك ـ علاوة على الاستعمارين الغربي والصهيوني ـ الاستعمار الشيوعي الذي يأخذ أهبته في كثير من نواحي العالم الاحتكاك بالعالم الاسلامي وله ضغط شديد على حدود إيران وباكستان والعراق وتركيا بصفة خاصة . فنحن إذا أغمضنا عنه عيوننا ، فلا يبعد أن نلاقي منه ـ لا سمح الله ـ ما قد لاقاه منه إخواننا في بلاد تركستان .

إذن ليس مما يتعذر تقديره ما للقوة الدفاعية من الأهمية الكبرى بالنسبة للعالم الاسلامي ، فعلى العالم الاسلامي أن لا يرسم لنفسه في مثل هذه الظروف خطة تفضي به إلى الانتحار القومي محاكاة منه للعالم الغربي.

كما أن على العالم الغربي نفسه أن يقف ملياً في مثل هذه الظروف ويتفكر : إن العالم الاسلامي هو الحاجز الوحيد بينه وبين العالم الشيوعي على الجبهة الشرقية ، وإن العالم الشيوعي كله يبذل أقصى جهوده لزيادة عدد سكانه ، وتدعي كل من روسيا والصين أن بوسعها أن تكفل سكانها وتضاعف عددهم عدة مرات بالنسبة لعددهم الحالي، بل إنها تدعي أن جميع البلاد في العالم تستطيع أن تكفل حاجاتها بنفسها إذا استظلت بالنظام الشيوعي بدون أن تعمل شيئاً للحد من عدد سكانها .

وأن العالم الرأسمالي هو بحاجة إلى تحديد النسل وليس العالم الشيوعي بحاجة إليه البتة. ويقول خروشوف «إذا أضيف مائة مليون آخرين إلى المائتين الموجودين لدينا الآن، فلن يصبح العدد كافياً بعد» ...على العالم الغربي في مثل هذه الظروف أن يحسب للموقف حسابه ولا يعمل شيئاً يجر الضعف إلى العالم الاسلامي لأنه الحاجز الوحيد - كما قلنا - بينه وبين العالم الشيوعي.

وكذلك إذا نظرنا نظرة في نظام أوربا للدفاع، علمنا أن عدد السكان في جميع أقطارها - بما فيها روسيا - هو ٣٢٤ مليون نسمة وأن عدد السكان في مناطقها غير الشيوعية هو ٣٠٢ مليون نسمة، وإذا أخذنا بالاعتبار العالم كله، فإن عدد السكان في مناطق المعسكر الشيوعي ألف مليون نسمة وعدد السكان في مناطق المعسكر غير الشيوعي - بما فيها البلاد المحايدة - ما بين ١٧٠٠ و ١٨٠٠ مليون نسمة. وهذا التوازن له خطورته بحيث أن المعسكر الشيوعي إذا ظل يجري على خطة زيادة النسل وظل المعسكر غير الشيوعي يجري على خطة تحديد النسل، فلا يلبث هذا التوازن لعدد السكان بين المعسكرين الشيوعي وغير الشيوعي إلا يسيراً حتى يصيبه الاختلال ولا يلبث الخط الدفاعي للمعسكر الغربي إلا يسيراً حتى يتسرب إليه الوهن مما لا حاجة لفهمه إلى ذكاء غير عادي. فعلى الغرب لصالح نفسه أن لا يتفكر في هذه القضية على ضوء المنافع العاجلة، وإنما عليه أن يتسلح فيه ببعد النظر ويعيد النظر في سياسته التي يجري عليها اليوم رعاية للمؤثرات الطويلة المدى.

حقائق اقتصادية :

ليست مشكلة تحديد النسل في أصلها بمشكلة اقتصادية كما قلنا ، على أن لها عدة نواح تتعلق بالاقتصاد فعلينا أن نتفكر فيها من الوجهة الاقتصادية.

إن أول شيء يستحق الذكر في هذا الصدد هو أن ليست زيادة السكان في أغلب الأحيان إلا نافعة من الوجهة الاقتصادية، لأن كل إنسان حين يخرج إلى نور الحياة لا يكون عنده البطن فحسب بل يكون مزوداً بيدين ورجلين وذهن كذلك . فإن كان البطن يعرض عليه حاجاته ، فإن هذه الخمسة تسعى سعيها لقضائها . وهناك طائفة من علماء الاقتصاد تؤيد الحقيقة القائلة بأن كثرة السكان أنفع ما تكون لصالح النهضة الصناعية البدائية في البلاد المتخلفة ، لأنها تكفل لهذه البلاد بالعمالة (Labour) الوافرة والطلب المؤثر (Effective Demand) للمنتجات ، كما أن الزيادة المطردة في عدد السكان مما لا غنى عنه للمحافظة على التقدم والتوسيع في طلب المنتجات ، حتى لا ينجم قرن الكساد في الاقتصاد المتقدم . وهذه الوجهة للنظر هي التي يعرضها اللورد كينز (G. M. Keynes) والاستاذ هانسن (A. L. Hansan) والدكتور كولين كلارك (Colin Clark) والاستاذ ج . د . ح . كول (G. D. H. Cole) وغير هؤلاء من علماء الاقتصاد في الغرب ، وإن التاريخ الاقتصادي يؤيد فكرتهم .

والأمر الثاني الجدير بالذكر في هذا الشأن أن ما يوجد اليوم من وسائل المعاش وموارد الرزق في العالم كله ، لا يكفي لقضاء حاجات السكان

الموجودين فحسب ، بل هو يكفي ـ فوق هذا ـ لقضاء حاجات أي عدد يمكن تصوره للسكان في العالم ، لأنها أكثر بكثير مما تقتضيه حاجات السكان الموجودين، وإنما هي ضائعة لا تستغل على الوجه الصحيح العادل. كما يقول كولين كلارك على أساس حقائق ثابتة لا تقبل المكابرة .

وهذا الرأي نفسه يراه الاستاذ ج . د . برنال (G. D. Bernall) بعد ما أجرى في هذا الشأن عدة تحقيقات علمية حرة .

والأمر الثالث الجدير بالذكر في هذا الصدد أنه وإن كانت الارقام والاحصائيات التي يعرضها دعاة تحديد النسل عن عد السكان في العالم ، صحيحة وجديرة بالثقة إلى حد كبير ، الا ان التقديرات التي يقيمونها على أساس هذه الارقام والاحصائيات عن ميول الزمنين الماضي والآتي فيها مجال واسع للكلام . إن علم عدد السكان (Demography) لا يزال حتى الآن في أوائل مراحله ولم تبلغ تحقيقاته حيث يجوز أن يقام على أساسه تقدير قاطع يطمأن اليه بالنسبة للمستقبل . إن الغد القريب هو أقصى ما يمكن أن يقال شيء بشأنه ، ومن المحال أن يقام تقدير جدير بالثقة عما يكون عليه عدد السكان في العالم أو في منطقة خاصة من مناطقه بعد أمد طويل من الزمان .

ليس عندنا حتى الآن من وسائل المعلومات ما نستطيع على اساسه ان نقيم تقديرات يقينية عن عدد السكان ، كما انه لا يزال هناك كثير من أسباب النمو في عدد السكان ما عرفت حتى الآن وما تمت التحقيقات العلمية بشأنها. يقول الدكتور آرنولد توينبي ـ مثلا ـ إن ٢١ من بين ٢٣ حضارة

في العالم تخف فيها نسبة زيادة السكان بنفسها عندما ترتقي الى ذروة مجدها. وهذا مايؤيده أيضاً تاريخ الزيادة الفطرية لمدد السكان. ويقول ري موند برل (Raymond Pearl) في إحدى مقالاته :

« انه على قدر مايكون التقدم الصناعي والنمو المدني وتضخم السكان ـ كنتيجة لهما ـ في اقليم من أقاليم العالم ، تخف خصوبته وتهبط نسبته لزيادة السكان ، وهذا ماقد وقع حتى الآن في العالم كله باستثناء عدد يسير من اقاليمه ».

وبيّن الدكتور ميد و الدكتور ف . ر . س .(F. R. S.) في محاضراتهما سنة ١٩٥٩ المشاكل التي لابد من مجابهتها في التقديرات عن زيادة عدد السكان بكل تفصيل وبما قد جاء في تقرير رسمي للامم المتحدة « انه لايصح الاعتقاد بأن الزيادة في عدد السكان في القرن الآتي انما تتم بنفس النسبة التي قد تمت بها في القرن الماضي» . ويمضي هذا التقرير قائلا: « انه من الحماقة أن نتوغل في تقديراتنا الحالية الى الابعاد الشاسعة في المستقبل » وغاية مايبيحه هذا التقرير هو ان تقام التقديرات عما سيقع الى آخر القرن الجاري على الاكثر . على ان هناك علماء آخرين يرون أن غاية مايمكن التنبؤ به واقامة التقديرات عنه هو مابين عشر وخمس عشرة سنة ، وان ليست اقامة التقديرات عن اكثر من هذه المدة الا متنافية مع التعقل والحيطة . وهذا البحث قد طواه احد علماء النفس بكلماته الآتية:

« ان الجمهور قد قل اهتمامهم بالتنبؤات والتقديرات عن عدد السكان، والسبب في ذلك ان قد قلت ثقتهم بصحة هذه التنبؤات والتقديرات .

لقد كان الرأي العام بين العلماء غير الخبراء بعدد السكان (Non-Demogr - phers -) إلى ماقبل مدة من الزمان أن علم عدد السكان يجوز الاعتماد على تنبؤاته بالنسبة لحوادث المستقبل ، ولكن اليأس مخيم عليهم اليوم بكل معنى الكلمة » .

فواضح من كل هذا أن الحيطة لازمة من الوجهة الاقتصادية في إقامة التقديرات عن عدد السكان وميوله واتجاهاته في المستقبل وانه لامبرر البتة لدعوى القائلين ـ على أسلوب اعتادته الصحف ـ بأن الأرض سوف لا يبقى على سطحها مكان يضع فيه الانسان قدميه بعد ٦٠٠ سنة .

والأمر الرابع الجدير بالذكر في هذا المقام هو أننا إذا نظرنا في مشكلة عدد السكان من الوجهة الاقتصادية ، وجدنا أن هذه المشكلة لها صلة قريبة بهيكل الحياة الاقتصادية . فالغرب نظراً لظروفه وضع هيكلاً خاصاً لحياته الاقتصادية كان مبناه على مركزية النطاق الواسع ورأس المال وبذل فيه جهوداً وأيما جهود لتقليل نصيب العمالة وتكثير نصيب رأس المال . ومثل هذه الصناعة يصطلح عليها اليوم في عالم الاقتصاد « صناعة رأس المال الكثيف »(Capital Intensive Industry) وفي مثل هذا الهيكل للحياة الاقتصادية تقل الحاجة الى الأيدي العاملة بصفة مستمرة وتنجم مشكلة البطالة كلما زاد عدد السكان ولكن الهيكل للحياة الاقتصادية لو كان مبناه على أساس آخر غير مركزية رأس المال ، لما نشأت فيه مشكلة البطالة أبداً . ولنا في حياة اليابان الاقتصادية أحسن مايدل على صحة مانقول . لقد أحست اليابان أن كثافة رأس المال في الصناعة

(Capital Intensive) مما لا يتفق مع هيكلها للحياة الاقتصادية إذ كانت فيها وفرة للأيدي العاملة وقلة رأس المال ، فهي لهذا عملت على ترقية الصناعة على النطاق القصير (Small Scale Industry) باللامركزية وحاولت وسعها لرفع فعالتها الاقتصادية على قدر الامكان ، مما كان من نتيجته أن أصبحت صناعتها ذات العمالة الكثيفة (Labour Intensive) ومانشأت فيها مشكلة البطالة ولامشكلة زيادة السكان على رغم نسبتها العالية لنمو عدد السكان .

إن مساحة اليابان نصف مساحة باكستان . ثم إن ٨٣ ٪ من مجموع مساحتها لا يمكن استغلالها لما عليها من سلسلة جبال النار ، فهكذا ليست مساحتها الصالحة للاستغلال إلا ٨ ٪ من مجموع مساحة باكستان، ولكنها مع ذلك حافظت على عدد سكانها ـ وعددهم أكثر من عدد سكان باكستان ـ على مستوى عال جداً وارتفعت بقوتها الاقتصادية إلى حيث تمكنت منتجاتُها من السيطرة على أسواق أمريكا وبريطانيا نفسها، وما استطاعت شعوب أوربا بمجموعها أن تقاومها مقاومة الند للند في المجال الاقتصادي ، بل لقد بلغت قوتها حيث تحدّت العالم الغربي كله في المجال السياسي أيضاً .

وهذا إن كان يدل على شي فإنما يدل على أنه لا تصح دراسة مشكلة السكان بأسلوب سطحي وأنه إذا عمل على ترقية الحياة الاقتصادية وفقا لما يناسب عدد السكان، فلا تنشأ مشكلة زيادة السكان كمشكلة اقتصادية أبداً ، وأنه إذا كانت مشاكل الفقر والفاقة تنشأ اليوم في الدنيا ، فإنما

السبب في نشوئها أخطاؤنا وتقصيراتنا، وما تبعتها أبداً على الوسائل والأسباب الفطرية . وفي ما يلي نريد أن نحيل القراء إلى عدد من الحقائق المتعلقة بهذا البحث :

(أ) إننا في الوقت الحاضر لا نستغل ما لدينا من الوسائل استغلالاً كاملاً وعلى وجه صحيح عادل . إن الوسائل موجودة في الدنيا بكل وفرة، ولكن الإنسان لتقاعس همته وخور عزيمته لا يستفيد منها كما ينبغي ، مما هو أكبر الأسباب الأساسية لوجود الفقر والبطالة في الدنيا .

(ب) ان الفطرة قد أودعت كل مناطق الارض وسائل تحتاج اليها الانسانية ، على أنها قد قسمتها بحيث أن الدنيا كلها بمنزلة « وحدة » واحدة وليست هناك أية منطقة من مناطقها تستطيع أن تحصل على كل حاجاتها بوسائلها وحدها ، ولكن وسائل الدنيا بمجموعها كافية لسد حاجات جميع سكانها . فعلى الانسان أن يتخلى عن ضيق نظره ولا يتفكر في مثل هذه المشاكل الا على الاسس العالمية . إننا لانرى من الضروري في كل ناحية من نواحي قطر بعينه أن يحصل أهلوها على كل حاجاتهم من أرضهم وحدها ، فهذه النظرية هي التي يجب أن نتبناها بالنسبة للمعمورة الارضية كلها ، فانه بذلك ـ فقط ـ من الممكن أن نستغل كل وسائل الارض لصالح الانسانية وسعادتها ورخائها من حيث مجموعها .

(ج) ليس إلا من نتيجة ضيق نظر الانسان أن قسمة الثروة لا تتم اليوم على أسس عادلة صحيحة ، بحيث ان الانتاج يضيع في كثير من المناطق، بينما هناك مناطق أخرى تحتاج إلى هذا الانتاج ولا تجده . الحقيقة أن

الذين يرفعون صيحاتهم في بلادنا وفي سائر البلاد الشرقية بقلة الانتاج وزيادة السكان ، لا يعرفون أن المشكلة الحقيقية التي يعانيها اليوم العالم الغربي ولاسيما أمريكا إنما هي زيادة الانتاج (Over Production) وإيجاد الطرق لاستهلاكه . ومما له دلالته في هذا الشأن أن حكومة أمريكا تنفق كل عام ما بين ٢٠٠ و ٤٠٠ مليون دولار لمجرد اضاعة الكمية الفائضة من البطاطة أو بيعها بسعر منخفض ، وإن كميات عظيمة من الزبيب تبلغ أثمانها مئات الملايين من الدولارات ، إنما تقدم لأكل الخنازير ، ومما تشهد به تقارير مؤسسة البضائع النسيئة (Commodity Credit Corporation) في أمريكا أن لديها من السلع الفائضة ما تبلغ أثمانه حوالي عشرين ألف مليون دولار ، فمن هذه السلع مثلاً :

السلعة	الكمية	الاثمان
القطن	نحو ٥ ملايين حزمة	نحو ٧٥٠ مليون دولار
القمح	نحو ٤٠٠ مليون بشل [١]	نحو ٩٠٠ مليون دولار
الذرة	نحو ٦٠٠ مليون بشل	نحو ٩٠٠ مليون دولار
البيض الجافة	نحو ٧٠ مليون رطل	نحو ١٠٠ مليون دولار
الزبدة	نحو ١٠٠ مليون رطل	نحو ٦٠ مليون دولار
الحليب الجاف	نحو ٣٥٠ مليون رطل	نحو ٣٠ مليون دولار

ومما تدل عليه احصائيات منظمة الأغذية والزراعة التابعة للامم المتحدة أن الذخائر غير المستهلكة في تضخم مطرد في الدنيا ، فمثلا هناك مئات الملايين

(١) مكيال أمريكي يساوي نحو ٢٣ كيلو .

من أطنان المواد الغذائية وغيرها لا تستهلك في مختلف مناطق الارض وتنفق عشرات الملايين من الدولارات لمجرد حفظها ، على حين أن الحكم قائم للفقر والفاقة في كثير من مناطقها الاخرى . وقل لي بالله ان الوضع إذا كان هكذا فهل تصح لنا الشكايةمن زيادة السكان في العالم وقلة وسائله للمعاش ؟ ولعل في هذا يقول شيكسبير :

(The Fault , dear Brutus, is not in our Stars , But , in Ourselves,That we are underlings)

« ليس الفساد والبهيمية ، في نجومنا هذه ، وإنما هوفي ذات أنفسنا ، وذلك أننا سفلاء » .

ان اثرة رجل الغرب وضيق نظره هما السبب في ما يوجد في العالم الحاضر من المشاكل الاقتصادية والمعاشية ، فهو من جانب يتلف منتجاته الفائضة للاستبقاء على أثمانها المصطنعة ولا يتركها لتستفيد منها الانسانية ، ومن جانب آخر لا يستغل كل وسائله لزيادة الانتاج وانما يضيعها في سبل الترفوالبذخ والتبذير ، وفيذلك يقول الاستاذليندوس:

« ان الانسان الغربي المصاب بداء الانانية والغطرسة قد بلغ به المطاف حيث هو غير مستعد لاستغلال كل وسائله في إنتاج الذخائر الوافية من المواد الغذائية » .

(د) لا شك أنمن أسباب تخلف البلاد الشرقية ما في ذات نفسها من داء الكسل وبطء العمل ، ولكن الوجه الذي يستغل عليه الغرب خيرات أراضيها ويستثمر وسائلها الطبيعية ، هو عبء ثقيل على كاهلها ، ونتيجة لذلك قد تضاعف فقرها واشتدت أزماتها المعاشية . إنه لما يعرفه القاصي

والداني ان الاستعمار الغربي ما زال طوال القرون الماضية يمتص من دماء هذه البلاد ، كما لا يزال يمتص من دماء البلاد الافريقية للآن ـ في خبر طويل لا يسمح المقام بذكر تفاصيله ـ وحتى بعد الاستقلال فان الغرب لايزال يستغل وسائل هذه البلاد بغير طريق واحد . ومثل واحد من الامثلة الشاهدة بذلك ما يوجد في هذه البلاد من عدم استقرار أثمان البضائع . إن البلاد الغربية ، وهي شارية لموادها الخام ، لا تدع أسعار هذه المواد حتى تستقر ، ولأجل هـذا كثيراً ما تضطر البلاد الشرقية والافريقية أن تبيع مواردها الخام بثمن بخس دراهم معدودة . فمثلا إن بلادغربي أفريقيا قد خسرت ٦٢٠ مليون دولار في سنة واحدة(١٩٥٦) لهبوط سعر الكاكاو (لقد كان سعر كل رطل منه ٥٧ سنتاً سنة ١٩٥٤ ، ولكنه هبط حتى صار ٢٦ سنتا سنة ١٩٥٦) كما أن آسيا الجنوبية الشرقية خسرت مليون دولار في سنة واحدة لعدم استقرار أسعار المطاط (لقد كان سعر كل رطل منه ٥٦ سنتاً سنة ١٩٥٤ لكنه هبط حتى صار ٢٣ سنتاً سنة ١٩٥٦) . اننا لو نظرنا في الحقائق بوجه عام لعلمنا أن ليست أكثر مشاكل الانسان إلا مما قد خلقه بيده . ومن الواضح من المثالين المذكورين أن أسعار البضائع لو تركت حتى تستقر، ولم تستغل البلاد الغربية على البلاد الشرقية الافريقية اضطرارها، لكان من الممكن أن يستفاد من كل وسائل هذه البلاد في تنميتها الاقتصادية . لا شك أن هناك قلة لرأس المال في البلاد غير المتقدمة وهي عرقلة شديدة في سبيل تقدمها الاقتصادي ، ولكن ما هي أسباب هذه القلة نفسها ؟ إن لها

علاقة وثيقة بأعمال أولئك الذين يرفعون صيحاتهم صباح مساء بقلة رأس المال وعلى ذلك يشيرون على أهل الشرق بالحد من زيادة إنجاب الأطفال.

(ه) وفي هذه الأيام إن جزءاً كبيراً من وسائل الدنيا إنما يصرف في الاستمدادات للحرب المتوقعة القادمة ، مع أنه لو أمكن استخدام هذه الوسائل - كلها أو أكثرها - في التنمية الاقتصادية ، لزال عن الدنيا كابوس الفقر والبؤس والبطالة في مدة غير طويلة . ومما يجوز أن يقال بناء على إحصائيات السنوات بين ١٩٥٠ و ١٩٥٧أن نحو ٩٠،٠٠٠ مليون دولار قد أنفقت سنويا خلال هذه الفترة للاستمدادات الحربية . يقول برنال بعد أن ساق في هذا الشأن بحثاً طويلا :

« إن هذه المبالغ أكثر بدرجات من تلك المبالغ التي تحتاج إليها جميع البلاد المتخلفة لتقدمها السريع فعلا » .

هذه بعض الأسباب المهمة التي هي مسؤولة عما يوجد اليوم في الدنيا من الفقر والفاقة والافلاس الاقتصادي، فليس الحل الموفق الناجح لمشكلة السكان في تحديد النسل الانساني وإنما هو في إزالة هذه الأسباب.

٥ - هل من الممكن أن يكون تحديد النسل حلاً لمشاكل الانسانية وكوارثها ؟

ولعله قد اتضح للقارىء مما قد ذكرنا سابقاً من البحث في تحديد النسل من الوجهتين الدينية والعقلية أن تحديد النسل يخالف الشريعة ولا يجتمع مع أحكامها ومبادئها بحال ، وأنه إن كان له بعض مجال ، فإنما

هو في تلك الظروف الاستثنائية والحاجات الشخصيـة التي قد احتملت فيها الشريعة سيئة هينة لتحقيق مصلحة عظيمة ، على أن الأفراد من واجبهم ، حتى في هذه الظروف الاستثنائية ، أن لا يقدموا على عملية منع الحمـل إلا مع شعور تام بمسؤوليتهم أمام الله وبناء على مشورة الطبيب . أما أن يقدموا عليها لمجرد اللذات النفسية ويقوموا بالدعاية لها على نطـاق قومي واسع ، فما لا تبيحه الشريعة أبداً . وأما المضار التي تظهر لحركة تحديد النسل في النفس والاخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد فهي مدمرة للغاية يعجز القلم عن وصفها .

وفوق كل هذا ، هناك حقائق واضحة في العالم الاسلامي بل وفي العالم الانساني كله تدل بجلاء على أنه من المحال أن يكتب النجاح لهـذه الحركة قبل أمد طويل ، وأن ليس امكان نجاحها على الاسس المـادية المجردة إلا وهماً لا يمكن تحقيقه ، كأنها لا تثبت في آخر الامر إلا إثماً بدون لذة . وفي هذا الشأن أيضاً نريد أن نعرض على القراء عدداً من الحقائق :

١ ـ ليس منع الحمل في حد ذاته بشيء إيجابي ، ولا يسلك الإنسان بإقدامه عليه طريق الصمود في وجه المشاكل وإنما يسلك طريق الاستسلام لوطأتها ، وما هو في حقيقة أمره إلا شيء سلبي من المحال أن يساعدنا على حل أية مشكلة من مشاكلنا ، فان الذي يحتاج اليـه الانسان انمـا هو « الخبز » لا « قرص منع الحمل » وليست حركته من أولها الى آخرها إلا حركة سلبيـة لا تقـدم إلينا أي حل إيجابي للتغلب على مشاكلنـا

الاقتصادية ، ولأجل هذا نقول إن هذه الحركة ،ولو نجحت ،لايمكن أن ترجع علينا بجدوى من الوجهة الاقتصادية ولا نكون بعدها إلاحيث كنا قبلها بل لا بد أن نؤخذ إذن بعدة مشاكل مرهقة جديدة .

٢ ـ إنه من المحال أن تظهر نتائج هـذه الحركة قبل خمسين سنة على الأقل مهما أخلصنا لها النيات وأنفقنا عليها الأموال . وفي أوربانفسها ما ظهرت نتائجهـــا إلا بعد مدة طويلة ، فعلى هذا لا يمكن أن تحدث أثراً فورياً في حياتنا الاقتصادية . وعسى أن تظهر لها بعض النتائج في أمد طويل ، ولكننا لا نعلم عن الأمد الطويل ـ كما قال اللورد كينس ـ إلا شيئاً واحداً هو «أننا سنموت جميعاً» (In The long run We all Shall be dead) .

٣ ـ ليس منع الحمل مجرد مشروع طبي أو اقتصادي حتى يكون من الممكن نشره في جميع بلاد العالم متى شئنا ، بل لا بد لنجاحه من بيئة مدنية مخصوصة واتجاهات خلقية واجتماعيـــة من طراز خاص ، يقول هوراس بيل شا : (Horace Belshaw) : « ومما يتوقع من الدعاية لمنع الحمل أن تهبط نسبة المواليد بعد عدة عقود (Many decades) من الزمان وأن هذه الدعاية ستُحكم الرأي شيئاً فشيئاً . ولكن الذي نعلمه من ترتيب الأمور أنه من المحال أن يتوقع تأثير لمثل هـذه الدعاية ما لم تمهد لها الارض عن طريق تغيرات اجتماعية واقتصادية أخرى » .

ويضيف هذا الكاتب قائلا :

« إن أنواعاً عديدة من العقبات الاقتصادية والمشاكل الفنية بالنسة

من قوتها وتأثيرها حيث لا يمكن أن تؤتي الطرق المباشرة للتعليم والدعاية ثمراتها لصالح حركة تحديد النسل في مدة وجيزة ، كما أنها ما استطاعت أن تؤتي ثمراتها على الفور في الغرب نفسه » .

وأخيراً يتوصل هو راس بيل شا إلى النتيجة التالية :

« فالذي نستطيع الاعتقاد به - نتيجةً لما قلنا حتى الآن - هو أنه لا يمكن أن نكون متفائلين بحق (Oualif ied Optinists) بشأن امكانيات التغير في سلوك الناس إلا بعد مدة طويلة ، بل نحن متشائمون بحق (Oualified Pessimists) بشأن هبوطٍ في نسبه المواليد نتدارك به هبوط نسبة الوفيات خلال عشرين أو ثلاثين السنة الآتية » .

والذي يشير به علينا هذا الكاتب ، بعد كل هذا ، هو أن علينا أن نتسلح بوسائل أخرى غير وسيلة تحديد النسل للتغلب على مشاكلنا الاقتصادية .

ويكتب السير تشارلس دروين (Charles Darwin) - وهو من غلاة المؤيدين لحركة منع الحمل - في إحدى مقالاته الجديدة تحت عنوان ضغط عدد السكان (The Pressure of Population) :

« إننا مهما بذلنا من الجهود المتتابعة لنشرها - أي لنشر حركة منع الحمل - فإنه يبدو بعيداً عن الحسبان أن يحدث مثل هذا الانقلاب على وجهه الكامل في عادات عشرة ملايين من أفراد البشرية قبل خمسين سنة. الحقيقة أن التجارب التي أجريت في هذا الشأن حتى الآن إن كانت تدعو إلى شيء فإنما تدعو إلى اليأس والتشاؤم . لا شك أن هذا العمل

يستحق منّا كل التشجيع والتأييد ، ولكن ليس من المتوقع أبداً أن يترك تأثيره في أكثر من جزء يسير من عدد سكان العالم ولو بعـــد خمسين سنة » .

أما الرأي الذي يراه ميك كارمك في هذا الشأن ، فهو :

« إن البلاد التي تشكو من قلة الخدمات الطبية في بعض بقاعها ومن فقدانها تماماً في أكثر بقاعها الواسعة ، من المحال أن تعمل فيهـا الدعاية لمنع الحمل وتنجح فيها حركة تحديد النسل » .

ويكتب الدكتور تشندر سيكهر ـ وهو في طليعة المؤيدين لحركة منع الحمل في الهند ـ في كتاب له جديد :

« أما الدعوى بإبلاغ رسالة منع الحمل إلى ملايين الأفراد الساكنين في القرى والأرياف ، فهي وإن كانت سهلة على اللسان ، ولكن يكاد يكون تحقيقها فعلاً ضرباً من المستحيل . هناك أزمة شديـدة للخدمات الطبية في قرى آسيا وفيها مئات الآلاف من البيوت لا توجد بها مضخة للماء ولا حمام ولا مكان للخلوة ، وهي أبعد ما تكون من المستشفيات والعيادات ، ولا تزال مشاكل مرهقـة كالفقر والجهل والمرض والجمود والكسل والركود ضاربة بأطنابها حتى في كثير من الأماكن التي توجد فيها بعض الخدمات الطبية » .

ويضيف قائلاً :

« هذه مشاكل عامة . وأما الحاجات المخصوصة فمن الممكن أن تكون مختلفة باختلاف الامم والأماكن . فهناك التصورات الاجتماعية والأخلاقية

والعقائد الدينية والنظم العائلية وضوابط السلوك الجنسي وما إليها من الحقائق المتعددة الاخرى ، لا بد أن تحدث آثارها في استعداد الناس أو عدم استعدادهم للاقدام على منع الحمل . ومما يجب أن نعترف به علناً أن معلوماتنا أضأل ما تكون بالنسبة لهذه الأمور عن الأمم والأجيال القاطنة في المناطق المكتظة بالسكان في العالم . إذن لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن عملية الجراحة ووسائل منع الحمل وأدويته ورغبة عامة الناس في الأخذ بها بعيدة بغير قرن واحد عن أكواخ الهند والصين وبيوت قرى اليابان وبورما » .

والذي يراه الاستاذ ريتشارد ميئر (Richard Meir) الاقتصادي الأمريكي الشهير ، أن وسائل منع الحمل إذا كتب لها الانتشار في البلاد المتأخرة ، فإنما يكون ذلك بمثابة أعجوبة في عالم الاقتصاد ، وهو منكر أشد الانكار لمؤثراتها الفورية ، وهو بعد أن عدّد أسباباً سبعة تقوم عرقلة في سبيل انتشار هذه الوسائل في البلاد المتأخرة ولا يمكن نشرها فيها بدون إزالتها ، يكتب قائلاً :

« وهذه الظروف إنما توجد في مجتمع من المجتمعات إذا كان قد وقع فيه التقدم الاقتصادي. إننا لا نجد في الدنيا ـ على سبيل المثال ـ أية ناحية ريفية مستواها المعيشي منخفض جداً وهي لا تقضي حياتها إلا على مستوى الكفالة، ولكنها مع ذلك قد أخذت خطة منع الحمل بارادتها الحرة حتى أدخلتها مرحلة النجاح » .

وان التجارب العملية الجديدة تؤيد وتوثق هذه الآراء للاقتصاديين.

ففي اليابان وبيورتو ريكو (Puerto Rico) انفقت عشرات الملايين من الدولارات لترويج حركة تحديد النسل وتوزيع الأدوية المانعة للحمل بين الجمهور ، الا ان هذه الحركة باءت بالفشل في كلا البلدين ، واخيرا عمل على ترويج الاجهاض (Abotion) في اليابان واستخدم طريق التعقيم بالجراحة في بيورتو ريكو . فالذي يدل عليه كل هذا :

— أن منع الحمل غير قابل للتطبيق في البلاد الشرقية .

— وان تجاربه قد باءت فيها بالفشل .

— وانه اذا نجح بفرض المحال ، فلن تظهر نتائجه الا بعد خمسين سنة على الاقل .

على ان هناك ناحية أخرى تستحق منا الاهتمام والرعاية مادمنا نتكلم على فشل حركة تحديد النسل ، وهي أن الوسائل التي قد اكتشفت حتى الآن لمنع الحمل ، كلها غالية الثمن الى حد الاسراف .

قبل مدة جرت مناقشة عجيبة حول موضوع منع الحمل في مجلس الأعيان بانكلترا . قال أحد الخطباء أثناء هذه المناقشة :

« إن الذي يشهد به ما أجري من تجارب لمنع الحمل في الهند أن استخدام وسائل منع الحمل يكلف الناس نفقات باهظة جداً وأنها — على حد قول أحد الخطباء — مهما كانت يقينية ، ولكن من الحقيقة على كل حال أن ولادة طفل في الريف لا تكلف الفلاح مثل ما يكلفه الحصول

على وسائل منع الحمل، وفي أثناء هذه المناقشة قال اللورد كيسي (Lord Casey) مستشهداً بكلام الدكتور ا . س . باركس :

«من اللازم لكل امرأة تحب ان تتجنب الحمل بأقراص منع الحمل، ان تتناول عشرين قرصاً على الأقل في كل شهر ، وظيفة لا تستطيع أن تؤديها امرأة غير متقفة في آسيا مثلا . كما ان الوسائل الأخرى لمنع الحمل عديمة النفع لأن بعضها غالية الثمن وبعضها مؤلمة جداً» .

ومما لا يخلو من الفائدة ذكره في هذا المقام أن أقراص منع الحمل لاتجدي بنفع على المرأة مالم تتناول منها عشرين قرصاً على الأقل في كل شهر ، وأنها إذا توقفت عن تناول قرص واحد في ميعاده لأجل النسيان أو لسبب آخر ، فان الشوط كله لا بد ان يذهب سدى . فهكذا إذا تناولت كل امرأة ٢٤٠ قرصاً على الاقل في كل سنة ، فعسى أن تأمن على نفسها خطر الذرية إلى حدما . أما قيمة كل قرص من هذه الاقراص فهي ٥٠ سنتاً ، مما معناه أن على كل امرأة ان تنفق نحو ١٢٠ دولاراً — اي نحو ٥٤٠ روبية باكستانية أو نحو ٤٠٠ ليرة سورية — سنوياً على هذه الاقراص . والجدير بالملاحظة انه كيف تستطيع كل امرأة في باكستان مثلا أن تنفق ٥٤٠ روبية سنوياً على حين أن ليس معدل الدخل السنوي لكل فرد فيها — حسب احصائيتها لسنة ١٩٦٠/٦١ الا ٢٤٤ روبية ؟

الحل الناجع :

فما هو الحل الناجع والعلاج السليم لمشكلة زيادة السكان اذن ؟ هذا هو السؤال الذي ينشأ طبعاً بعد كل هذا البحث الذي سقناه حتى الآن. وجوابنا عليه ان هذا الحل الناجع والعلاج السليم إنما هو الأخذ بالوسائل

العلمية الحديثة لزيادة الانتاج في المجالين الزراعي والصناعي . الحق ان التقدم الاقتصادي والعمل على زيادة الانتاج هما الحل الموفق الصحيح لمشكلة السكان ، والا فما استعمال كلمة « الحل» لمنع الحمل الا اهانة لهذه الكلمة . انكم اذا تدبرتم قليلا ، علمتم بدون ادنى ريب ان ليس اخذنا بخطة منع الحمل وتحديد النسل الا اعتراف منا بهزيمتنا . انما معنى هذه الخطة أن يساورنا اليأس من مواهب الانسان واستمداداته الفكرية والعملية فنذهب نعمل للتقليل من عدد افراد البشرية بدلا من ان نعمل على ترقية الوسائل وزيادة الانتاج لاطراد حياتهم . وهل من التعقل في شيء اذا كان الثوب قصيراً لا يستر كل اعضاء الجسد أن نهذب الجسد ونقطعه كما تقطع اغصان الشجر بدلا من ان نفكر في زيادة حجم الثوب حتى يتلاءم مع حجم الجسد ؟

اننا إذا حللنا العقلية التي تستند اليها فكرة المؤيدين لحركة تحديد النسل ، علمنا ان ليست منزلة الانسان فيها منزلة الغاية والهدف وانما هي منزلة الوسيلة والذريعة ،فكما انه يعمل لنقص أو زيادة المنتجات الاخرى من الكرات والاحذية والاقلام والساعات . . . . . على حسب الطلب ، كذلك تقضي هذه العقلية أن يعمل على نقص أوزيادة افراد البشرية ، كأن ليست منزلةالانسان منزلة من يكيّف كل شيء حسب حاجاته وانما منزلته منزلة من يكيف هو نفسه حسب الظروف الاقتصادية ، وبعبارة اخرى ليس الانسان الا بضاعة من البضائع أو سلعة من السلع . ولعمر الحق ان الانسان لا يرضى بان يتردى الى مثل هذا الدرك الاسفل الا اذا تجرد من اعتباره لكل قدر من الاقدار المعنوية والروحية .

ان الانسان هو المقصود وما سائر الموجودات في العالم الا وسائل لسد حاجاته . هذه هي الحقيقة . ولكنكم اذا عكستم هذه الحقيقة وخالفتم ترتيبها ، فلا بد ان يتردى الانسان من مكانته الفطرية وأية فائدة ترجع عليه ياترى إذا نال الرفاهية المادية والرخاء الاقتصادي بالتردي من مكانته الانسانية ؟ ولعل هذه العقلية النتنة يكتب الأستاذ كولين كلارك منددا بها في تقريره الذي وضعه عن اقتصادية باكستان قائلاً :

« من الناس من يقول ان الاسباب الاقتصادية تقتضي الحد من زيادة عدد السكان ، أو يقول بعضهم أن عدداً ثابتاً أو مائلا الى الزوال هو المطلوب في حقيقه الأمر. أما أنا شخصياً فلا يهمني أي من هذه الاقتراحات المتعددة . وعندي ان وظيفة الخبراء الاقتصاديين ان يبينوا ماعسى ان تكون الطرق الجدية والاساليب النافعة لجعل الوسائل الاقتصادية متلائمة مع حاجات عدد السكان ، وليس من عملهم ان يبينوا كيف يمكن شذب عدد السكان وتقليله حسب الوسائل الاقتصادية . إن الآباء انما ينجبون الاطفال حسب مايمليه عليهم ضميرهم واختيارهم وعليهم ان لا يعملوا في المستقبل الا هكـــذا . وليس من حق أي مفكر اقتصادي ، مهما كان بصيراً بالتطورات الاقتصادية ، ولا من حق أي رئيس للوزارة مهما كان قوياً ، أن يقول للآباء :لاتفعلوا هكذا . كلا ! ان الحقوق كلها في الكفة الثانية، فمن حق كل أب ، ولاشك ، أن يطالب الاقتصاديين ورؤساء الوزارة بان ينظموا الحيـاة الاقتصادية على وجـه يكفل لجميع السكان حاجاتهم الاساسية اللازمة ».

والحل الناجع والعلاج السليم ـ في نظرنا ـ إنما هو ترقية الانتاج وتنمية الاقتصاد بما له امكانيات لا تعرف الحصر والحد . ان بذل الهمم والمواهب والتخطيط الصحيح والكفاح العملي ... هي كل ما نحتاج اليه اليوم ولا غير . فنحن إذا تخلينا عن الاتكال على الوسائل الكاذبة وركزنا جهودنا على الانشاء والتعمير فليس ثمةشيء يقوم في وجهنا ويمنعنا من إقامة حياتنا الاقتصادية والاجتماعية على أسس أمتن من أسس البلاد المتقدمة الأخرى . إن الفساد الحقيقي إنما هو في تخاذلنا وخور عزيمتنا وافتتاننا بمدنية الغرب وحضارته الملفقة وإلا فان الفطرة ما قصرت في تزويدنا بما إذا تسلحنا به ، استطعنا مرة أخرى أن نستعيد عزنا السالف ومجدنا الغابر بين أسرة الأمم العالمية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

★ ★ ★



الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الملحق الاول

الملحق الثاني :